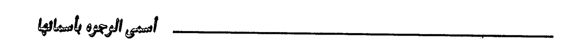
مـذكـــرات
الدكتور حسن فتح الباب

أسمى الوجوه بأسمائها

الطبعـــة الأولى

١٩٩٥




أسمي الوجوه بأسمائها

الفهرس

طالما مدت لى رفيقة العمر حبل الإغراء والمحبة: أن أستخرج بعض شظايا الذاكرة، أشعل ماكاد ينطفئ من نجومها فى عتمة الأحداث المتراكمة، أضئ فضاءات الوجدان، وأفتح أبوابها الموصدة. أنفض متاعى ومتاعبى قبل أن تحين ساعة الرحيل وتذبل أوراق الوردة الأخيرة. شاركها فى الدعوة إخوة من المناضلين الشرفاء الأحرار فى مصر والوطن العربى الكبير بعد أن لاحظوا غير قليل من الزيف والادعاء فى كتابات كثير من الساسة وبعض المنتمين إلى عالم الثقافة الذين عاصرتهم، وتجنيهم على الحقيقة، وتضليلهم حتى اختلطت الأوراق.

أعلم أن مسيرة حياتى عادية، رغم تحولاتها بين الانتصارات والانكسارات، بين المسرات القليلة والمعاناة الطويلة، من القاع حتى الأفق، من الحفر فى الصخر بالأظافر حتى القبض على الجمر، منذ بذرنى أبى وأمى فى إحدى حوارى القاهرة حتى وجدت نفسى فى زى ضابط الشرطة الذى لم يذهب خيالى يوماً إليه

مسيرة عادية ذات قيمة محدودة إذا قيست بسيرة حياة الأدباء والمفكرين الرواد الذين أسهموا فى تغيير وجه التاريخ، وشقوا للبشرية دروبا مضئية جديدة، إذ كنت أعمل فرداً معزولاً فى نفق مظلم طويل، فلا حزب أستظل بسقفه أحنى له قامتى فيرفعنى شهرة وجاها، ولاجماعة أدبية أنتمى إليها، أنصرها فتنصرنى. وجهاز السلطة الذى أرتدى شعاره، وأعمل تحت رايته يرفض فكرى الإنسانى ويمسكنى فى قبضته لأنه لايستغنى عن كفاءتى وخبرتى القانونية فى مكافحة الجريمة، يقربنى كى يفرغنى من وعيى ووجدانى، ثم يقصينى كلما عصيت.. لعبة التمر ،والجمر.. العصا والجزرة.. ذهب المعز وسيفه، الوعد والوعيد، الطمع والهلع، الإغواء والابتزاز.

جهاز عنكبوتى ذومائة ذراع خفية يعد على أنفاسى، وينظر إلى نظرته إلى المشتبه فيهم، لأننى لست من المريدين المتوارين القابعين فى ظله القائلين لمن يلومونهم بلسان شاعر قديم: دعونى فإنى آكل العيش «بالجبن»!! متمرد على مشيئة الحاكم، متحدّ قدرى، مسكون بهموم الطبقة التى ولدت وترعرعت فى أحضانها،. مجنون بحبها وبالرغبة المحمومة فى رجم أعدائها بحجارة الحقيقة المرة فى حلوقهم.

أدرك أن عملى الفردى كان محكوما عليه لا محالة بالعقم، ولكن يدى كانت قاصرة، ولاحيله لى وقد عشقت الحرية إلا محاولاتى الدائبة كى أخرج من حصار الإغواء والتهديد وأتقى الارتماء فى شبكة الاحتواء. لقد غلبتنى طبيعتى وحلمى أن أظل نجماً صغيراً يدور فى فلك من أحببت والذين عانيت فى سبيلهم حرمانا وصبرا مريرا، إذ كانوا هناك فى قاع القرى المجهولة البعيدة وهنا فى سراديب المدن المترفة. أما المثقفون الذين طنطنتنى منهم، فقد انتهى بعضهم إلى عالم السدود والقيود، على حين كان البعض الآخر يختالون كالطواويس ملتصقين بأذيال السلطة، وعلى السطح طحالب من أشباههم الطفيليين أصحاب الأقنعة والأبواق. أما الأسوياء الخيرون فكانوا يسيرون مغمضى العيون إلى جوار الجدران. ولم يبق إلا قلة قليلة نذرت نفسها للسباحة ضد التيار السائد.

ولقد ترددت طويلا قبل أن أكتب مذاكرات أقص بها سيرة حياتى. ومهما أجدت الصياغة النثرية لهذه السيرة فسوف تبقى هامشية، إذ يخيل إلى أننى ولدت لأكون شاعراً. أما النثر فهو يقع فى المحل الثانى من قدراتى أو هكذا أردت أن أكون. فالطفل الغرير القديم الذى كان يتهلل فرحاً ويطير نشوة كلما كتب أبياتا ساذجة مازال يستوطن قلبى، ومازال الشعر ملاذى وصخرة النجاة الحانية كلما طوقتنى النقائض وكادت مشكلات واقعى أن تغرقنى فى دوامتها. كنت أغار على الشعر وأخشى إذا دونت مذكراتى أن تنتزعه منى أنا الذى لا أملك غيره، فإذا انصرفت عنه فقدت طوق الأمان. فالعمر قصير ومايضطرم فى أعماقى من مشاعر تريد أن أسكبها على الورق لا يكفيه الوقت الباقى ولا الجهد والطاقة فكيف أبددها.

غير أنى ضعفت أخيراً أمام المحبين وارتضيت أن أروى بعض الأحداث غير

المعروفة التى يخرج أكثرها عن نطاق الشعر ويحتاج إلى قلم المؤرخ ورواية الشاهد، وأن أبلغ هذه الشهادة أو الرواية إلى الذين لايبلغهم صوتى الشعرى ويريدون أن يعرفوا المناخ الاجتماعى والسياسى الذى عشت تحت وطأته وخفاياه التى لايفصح عنها الكثيرون.

وتغطى هذه المذكرات أزمنة التحول فى حياتى، ومن ثم فى شعرى، من خلال الواقع الذى عشته وأثر إيجابا وسلبا فى عقلى وعاطفتى. فأتحدث عن صراع النقائض الذى أفرز هذه التحولات.. عن الأحداث المفصلية التى شكلت رؤيتى وقصائدى.. وأتحدث عن التشبث بالجذور.. عن أبطال قصائدى المجهولين والمغمورين. أتحدث عن أكبر منعطف فى مسيرتى، عن النماذج المصرية الصميمة فوق طين القرى.. عن «متولى» الصياد المعدم الذى لم يخذلنى مثل الآخرين حينما وجدنى فى رداء الشرطة أركب الجواد وتلمع فوق كتفى نجوم يبغضونها. لم يرْجمنى «متولى» بنظراته كما رجمونى... عن «محمود» الخفير القروى الذى كان يكره الحرب بعد أن استشهد له أخ فى بورسعيد خلال العدوان الثلاثى.. أتحدث عن صياد أسطورى لقيته فى كهوف «بيروت» وغنانى: «والمشنقة ياصاحبى أرجوحه الأبطال»، وعيناه على صورة زيتية لعبد الناصر فوق سور كوخه المطل على المتوسط ترمز للشموخ العربى.

لقد تحولت هذه المذكرات فى بعض فصولها من سيرة ذاتية إلى سيرة إبداعية، إذ جعلت بعض قصائدى المحور الذى تدور حوله المذكرات، ولاسيما أنها كانت تسعفنى كلما خانتنى الذاكرة. فهى ليست نصوصا فنية فحسب، بل هى وثائق تاريخية إلى حد كبير، لأنها تحمل عبق المكان والزمان وروح الإنسان. وهى نضح الواقع الشعبى. فكل توظيفاتها من رموز وصور وأخيلة بل أساطير أحيانا من لحم هذا الواقع ودمه، وإن تجلت أحيانا فى أشكال تقترب من «الفانتازيا» أو «الميتافيزيقا». ذلك أن الواقعية المتطورة بأبعادها التى تشمل الحياة والنفس والوجود هى التى تلهمنى عناصرها الحية. والواقع أغنى من الخيال دائما لكل من يمعن النظر فيه مخترقا القشرة السطحية إلى الأعماق مسلحاً بالوعى الاجتماعى والتاريخى.

وحين صغت هذه السيرة الذاتية نثرا كى يفهم مضامينها أكبر عدد من القارئين

غلبتني طبيعتي الفنية أعني الشعرية، فوجدتني أكتب لغة نثرية تشف حتى تبلغ مايقرب من مستوى الجوهر الشعرى أحيانا، وجعلت القصيدة فى أحيان أخرى تروى سيرتها أو مذكراتها. وهكذا كتبت مذكرات قصائدى لامذكراتى. وقد حقق لى هذا الأسلوب الذى انتهيت إليه دون تخطيط سابق غرضاً طالما حلمت به، وهو أن يحدثنا الأديب المبدع فى سيرته الذاتية لا عن وقائع حياته الشخصية والاجتماعية وانتماءاته المذهبية وعلاقاته وأعماله الأدبية وممارساته ورحلاته فحسب، لأنه قد يشترك فيها؛ ثيرا أو قليلا مع أبناء طبقته أو أبناء جيله. ولكن مايهمنا هو أن يكشف لنا عن كيفية إبداعه، عن الكنز الذى لا نعرف كيف عثر عليه. فالعملية الفنية مازالت سراً خبيئاً رغم كثرة محاولات علماء الأدب والنفس والاجتماع والانثروبولوجيا (علم الإنسان) فى سبيل فض مغاليق هذه العملية وتقديم تفسيرات لها. أردت أن أكتشف البذرة الأولى، النطفة، أو ما يسونها ومضة أو شرارة الإلهام. وربما ترجع نزعة البحث عن المجهول أو الجديد والإمساك بطرف الخيط– تحديا أو مغامرة– إلى بواكير طفولتى. ففى سن السابعة أو الثامنة تعودت أن أغافل أمى وهى مسغرقة فى النوم، وأتسلل من الفراش مع أول شعاع للشمس أو قبل طلوعه، ثم أصعد إلى سطح منزلنا فى حى شبرا، وأتفرس بعينى فى الطين الذى ملأت به إصيصا صغيراً وضعت فيه بذرة قمح أو أذرة، مترقبا الحدث الهائل الذى طالما حلمت به، وهو أن أشهد لحظة بزوغ ساق النبتة الصغيرة من بطن التراب، تلك اللحظة التى لم تتحقق بطبيعة الحال. ومع ذلك فقد كررت المحاولة وخاننى الطالع السعيد فى كل مرة.

واستمر الطفل القديم وقد خلع عنه الوريقات الخضر يتأمل طويلا ويقلب سطوراً كثيرة من كتاب الأيام والليالى ليستل الخيط الأبيض من النسيج المركب. وربما عثرت عليه أحيانا وعرفت لماذا كان اللون أصفر فى هذه القصيدة وأحمر فى الأخرى؟ لماذا كان الخط مستقيما هنا دائريا هناك؟ لماذا كانت هذه الصورة ذاتها وليست غيرها؟ ومن هذا الشبح أو الطيف الذى يَمثل فيها أو يطل عليها؟ إنه ليس نموذجاً من الخيال ولاهو فى الوقت نفسه من الواقع المشهود فكيف هو اذن؟ إنه مزيج منهما، رؤيا من الواقع والحلم معاً.

حاولت مثل عالم المخبر أن أحلل الصور التى تبدو غامضة فى شعرى إلى

جزئياتها الأولى، إلى أجنتها، لأتعرف على كنه العملية الإبداعية ولفك طلاسمها. فلعلى أقدم بذلك مشروعاً للمهتمين بالنقد، ونموذجاً خاصاً لايهمل مدارس النقد الفنى والنفسى والاجتماعى، ويقترب من البنيوية والأسلوبية بأشكالها المختلفة بقدر ما يبتعد عما يجعل من النص عالما معلقا فى الفراغ، انحيازاً منى إلى مدرسة الفن للحياة والمجتمع بعد الوقوف على الأسرار البلاغية للعمل الفنى.

ولئن كانت ثمة فصول فى هذه المذكرات تتعرض لما عانيته من تجنى بعض المسئولين عن جهاز الشرطة فى الحقبة التى عاصرتها، فإن ذلك لاينفى إيمانى برسالة الهيئة التى أمضيت فى سلكها شبابى وكهولتى. بل إن هذا الإيمان هو أحد الأسباب التى دفعتنى إلى كتابة مذكراتى. فقد كان فهم هؤلاء الخاطئ لوظيفة الشرطة باعتبارها عملا شعبيا وطنيا وإنسانيا وراء ماعانيت، كما كان التمسك بالمظهر دون الجوهر والغاية علة لهذا الفهم القاصر وذلك التجنى المقيت.

إن هنالك عديدا من الصفحات الوضيئة التى سجلها رجال من الشرطة فى المعارك المصيرية. وسيظل من الرموز الوطنية الحية أولئك الضباط والجنود الذين زودوا ثوار سنة ١٩١٩ فى الصعيد بالأسلحة لمقاومة سلطة الاحتلال معرضين أنفسهم للإعدام. ولا ينسى التاريخ معركة الاسماعيلية فى ٢٥ يناير ١٩٥٢ التى استشهد فيها عشرات من رجال الشرطة أبناء الشعب الأصلاء، تساقطوا صرعى ليرتفع عالياً فى الأفق علم مصر، مستميتين فى الدفاع عن شرف وطنهم حتى آخر طلقه دون أن يستسلموا للعدو الذى يفوقهم عدة وعتاداً أضعافا مضاعفة.

إننى أهدى هذه الشهادة التى لم أستطع كتمانها إلى المؤمنين بالحق والعدل والحرية والكرامة طريقاً لبناء مصرنا الغالية على قاعدة راسخة من الديمقراطية والتقدم، إلى شبابها وشباب الأمة العربية، حفزاً لهم إلى مقاومة اليأس والخوف، وإلى الحلم بوطن أجمل وعالم أفضل، وامتلاك إرادة قوية للتغيير، ومطابقة المبدأ للممارسة كى يتحقق هذا الحلم.

والله ولى التوفيق

د. حسن فتح الباب

سبتمبر ١٩٩٤.

(١)

الحجاج ولعبة الشطرنج !!

الرحلة المقدرة للعمل فى عالم الريف معاونا للإدارة ثم ضابطا للشرطة منذ أكثر من ثلاثين عاما وبالتحديد فى سنة ١٩٥٥ كانت مدخلاً إلى عالم آخر لم أعرفه ولم يعرفنى، وإن كنت قد أمضيت بعض أيام الصيف فوق ترابه فى بواكير الصبا على عهد الدراسة بالتعليم الثانوى. لم يتبدل الإنسان ولم تتغير القرية ولكن الفتى القديم هو الذى تغير وإن لم تفارقه فى البدايات الأحلام الرومانسية. لم تتجاوز الرحلة فى قلب القرى عامين. أما السنوات الطوال التى امتصت شبابى فكانت فى المدن أو (البنادر) على هامش الريف الحقيقى، وأما العمل فكان رئاسة نقطتىْ شرطة (طوخ دلكة) فى العام الأول و(فيشا الكبرى) فى العام الثانى. ولكنى خرجت منهما بتجربة تعدل عمرا، إذ كانت شرارة تحوّل جذرىّ فى حياتى وجناح انطلاق إلى فكر جديد ومعاناة جديدة بالضرورة وانعكس ذلك على رؤيتى الفنية.

خلفى ودّعت (قاهرتى) التى ماعرفت غيرها، وكنت أعشقها، ولكننى لم أحبها إلا قليلا.. كان العشق للمدينة المكان، أما الحب القليل أو المفقود فكان للإنسان.. إنسانها المسكون بحلم الرغبات الأشعبية فى الأحياء «الراقية»، والحزن كان من نصيب أهل «الحوارى» التى خرجت منها – مثل بورجوازى صغير..صغير – لأشق طريقى بالعناء والسهر ابتغاء موضع قدم فى زحام عجلة الحياة ومكان أمين تحت الشمس بلا أسى ولاقهر.

حملتنى أقدامى وأنا أتصنع الوقار العسكرى وهيبة الحاكم القادم الجديد إلى نقطة الشرطة بعد أن غادرت المركز الذى كنت أعمل به (معاونا للضبط).. أجرّ خطاى وأحمل فوق كتفى عبئا ماكان أفدحه.. ثلاث نجوم!! وخلفى جندى يحمل شيئا من متاعى.. أوراقى فى حقيبة وبزّته العسكرية تكاد تتهرأ.. كنت مطاردا..

منفيا من (حجاج) مدير الإقليم ورئيسي الأعلى.. وكان معروفا بدكتاتوريته في المعاملة كأنما يريد أن يكون له من اسمه نصيب!!.

رقما كنت في رقعة الشطرنج، لعبة الحجاج وكل الحجاجين.. يحركني من المدينة (البندر) حيث تتيسر الحياة لأمثالي إلى حد ما - إلى قرية نائية (على شمال السماء) طبقا للتعبير الشائع بين الضباط، فلا مرافق.. لامناخ ثقافي..لاحياة، وإنما مستنقع راكد، المياه العكرة منذ آلاف السنين.. والبلهارسيا التي قتلت الأديب القاص فاروق منيب منذ كان في قريته يستحم مع الصبية في ترعة (أنشاص) بالشرقية، وحين جاء إلى المدينة واستوطن القاهرة جاءت معه الثمرة المُرّة.. داء الكُلَى.. ومات به غريبا في لندن وإلى جانبه الكلية الصناعية ورفيقة عمره (ثريا). ومن قبله قتلت ديدان البلهارسيا في الشرقية أيضا المغني الرومانسي عبد الحليم حافظ، ومن قبلهما واليوم وحتى الغد سوف يموت في بطء قاتل عشرات الآلاف من أبناء قرى وطني، ولن يتوقف الطاعون قبل أن تطرق الحضارة أبواب القرية ويأتي من يقدر حياة البشر وإنسانيتهم.. يوما يولد فيه الإنسان من جديد.

لم يحركني الحجاج الصغير من المدينة إلى القرية بأصبعه مثل لاعب الشطرنج المتمرس بفنون اللعبة، وإنما ببصمته على وريقة تسمى بعد أن يمهرها بتوقيعه أمرا إداريا ينزل خلسة كضربة قدرية.. عمود كالصنم الجامد له آلاف مؤلفة من السدنة الكهان (ومسّاحي الجوخ) وحاملي المباخر والقواصين. والضحايا يتجاوزون عدد الحصى والرمال على الشاطئ الذي امتصت الأفاعي المقدسة نضرته وخضرته لم يبق غير صفرة المغيب في الجباه وعلى وجه التراب.

كنت أعمل بهمة لا أحسد عليها (بالمركز) فوقع عليّ نبأ نقلي إلى (النقطة) النائية موقع المفاجأة القاسية حين تحمل إلى المرء جزاء سنمار. وحين أردت أن أتظلم للباشا المدير - لم تلغ الألقاب إلا على الورق - أنذرني (أركان حربه) بسوء المصير، فمن ذا الذي يجرؤ على اقتحام عرين الأسد ثم يأمن على نفسه!! ولكني صممت على طلب لقاء (سعادته) مجيبا الضابط (الأركان) أنني أتحمل مسئوليتي كاملة، ولا عليه فليأكلني الذئب، فليس لدي ما أخسره. وطبقا للشكليات المرسومة وإحكاما للخطط

الإدارية العمودية والموضوعية لتحقيق العدالة وحسن الانضباط معا تحدد اليوم والساعة والدقيقة للمقابلة الرسمية فى جو مشحون بالإشفاق علىّ ونصحى بالرضوخ للأمر الواقع «فأنت تعلم عاقبة المتمردين»!!

وكانت لعبتى المحببة - فأنا أيضا لى لعبة صغيرة مثل كل أبناء الفقراء والمعدمين والمعوزين - أن ألجأ فى ساعات الجور والمحن إلى الرأى العام أستنصره. ولكن الرأى العام الذى أتقنت حينا العزف على وتره كان قد مات وشبع موتا منذ زمن طويل. وكان أعجب حوار بينى وبين الحجاج بعد أن أدخلنى إلى مكتبه الوثير (أركانه) فى طابور عسكرى منتظم مشكل من ضابطين - هو وأنا - فى غير ساحة حرب!!

* طلبت مقابلتى؟

** من حقى أن أعلم سبب إقصائى من عملى الرئاسى بالمركز إلى نقطة شرطة صغيرة نائية يكفيها ضابط حديث، كأنما ارتكبت خطأ أعاقب عليه!!

* أنت وزملاؤك من معاونى الإدارة الحقوقيين لم تتدربوا على أعمال «النقط». ولهذا أصدرت الأمر بنقلك من مركز إلى نقطة كى تبدأ السلم من أوله!!

** لكن هذا مخالف للمنطق وللنظام، وإذا أخذنا به فالأولى أن تنزلنى من وظيفتى ورتبتى وتجعلنى (خفيرا) من خفراء النجوع حتى أبدأ السلم حقا من أوله!! ثم ترقينى جنديا وبعدها ضابطا..

واستشاط الحجاج غيظا فصرخ متوعدا وهو لايكاد يصدق مايحدث أمام عينيه. وأخذتنى العزة بالكرامة فارتفع صوتى فوق صوت الذى هاج، واتهمته بالتعصب الطائفى والخروج على قانون الإدماج - إدماج معاونى الإدارة وضباط الشرطة فى هيئة نظامية واحدة سنة ١٩٥٥ - و أنى سأشكوه للوزير. ولم ينقذ الموقف غير دخول (مساعد الحكمدار) وكان يُكنّ لى ودا ويقدرنى شاعرا لأن له قصائد منظومة ينشدها فى المناسبات، ولا أبرئ نفسى، فلكم تطارحنا الأشعار وخطبنا معا فى المواسم بحكم المهنة التى لاترحم. وطالما ضحكت كلما مدّ لى حبل الإغراء هو والضباط المحبون كى أنشر قصائدى العصماء فى الإخوانيات والمناسبات لأنها كنز

وأى كنز!! هذه القصائد التى أشعر الآن بالخجل منها رغم جودتها سبكا وحبكا وبراءتها من النفاق. وأعجب كيف ينشر شعراء معدودون بين الكبار غسيلهم القديم الذى حكم به عليهم الزمان!!

ولما كانت أولى القواعد العسكرية التى تعلمناها أن (أطع الأمر ولو غلط ثم تظلم) فقد نفذت أمر النقل طائعا بل مكرها، ولكن بعد أن رويت بعض الغليل واشتفيت. وكنت على يقين أن الرجل سيتربص بى الدوائر. فكان علىّ أن أحذر الوقوع فى خطأ يتيح له الفرصة المرتقبة.

سرت فى طريقى إلى القرية يتبعنىِ جندى وظلى، خافض الرأس روحا رافعه جسدا، كأنى من قوم كتبت عليهم الذلة والمسكنة، أو كأنى أحمل كل هموم العالم فوق كتفى، شعرت أنى مستضعف مهان مشرد فى الأرض بلا جريرة، وعزت على نفسى، إذ يفرض على الاستسلام للأمر الواقع اللعين ويتحكم فى رقبتى حاكم محكوم. وتجلدت ومضيت إلى قدرى لأبدأ من جديد.. فتلك كانت مداعبة القدر الثقيلة معى دائما. أدركت أننى غير مغضوب علىّ لشخصى الذى لم يعجب (سعادة المدير)، وأن سوء حظى هو الذى أوقع بى بين يديه حين أريد ممن هم فوقه أن ينقل من (نقطة طوخ دلكة) إلى القاهرة رئيسها الضابط السابق المحظوظ، فكان لامفر من بديل، فكنته. فمن سواى للملمات وأنا المقطوع من شجرة لانسب ولا حسب إلا أن يكون حقا ماقيل من أننى من سلالة سيد الشهداء!!، من يجيرنى أو يشفع لى؟ وعرفت هذا الضابط السعيد بعد أعوام طويلة إذ جمعتنا معا (مصلحة الشرطة) بوزارة الداخلية بالقاهرة حين عينت مديرا للقضاء العسكرى بعد (مشوار) طويل. وقد كان إلى عهد قريب كبيرا يشار إليه بالبنان وتهوى إلى ساحته الركبان، ومن المفارقات أن اسمه مشتق من (الحسب).

اوصدت القرية أبوابها فى وجهى.. هذا الصمت الكئيب الثقيل يحاصرنى من كل مكان «عن يمينى وعن شمالى وقدامى وخلفى فأين عنه أحيد؟» كما يقول ابن الرومى فى عشقه المغنية وحيد وبالمفارقة! شعرت أننى منفى فى عالم سحيق مغلق لم تطل يوما عليه شمس ولا سماء. حفريات من العصور السحيقة لاتبصر فيها العين غير التراب الكابى الراقد فى غيابات المجهول.. والوجوه والأجسام كالأشباح تحولت إلى جزء من هذه الحفريات.. صفرة مغبرة وليس غير ثقبين ضيقين فى كل وجه.. تساوى العجائز والأطفال والصبايا.. لا ابتسام ولا كلام لا حياة. خيل لى أن القرية الفرعونية كانت أحسن حالا منذ سبعة آلاف عام!! هكذا تقول لنا الرسوم على الآثار من عهد رمسيس. الملامح المتآكلة والبؤس الذى يخرق العظم حتى النخاع فيمّحي كل أثر يفرق بين الآدمى وبين الجماد.

ساخت الأرض تحت أقدام هذا الفلاح المصرى من فداحة العبء الذى كتب عليه أن يحمله فوق كتفيه الواهنتين عشرات الآلاف من السنين: الأهرام، المعابد، المسلات، القصور، القناطر، المقابر الملكية، الحمامات والساحات الرومانية، مخادع الأمراء وحدائق العشاق.. كل شئ بمقابل حتى فى سوق النخاسة إلا عرق الفلاح المصرى ودمه، السخرة.. الجباية.. التجنيد لحروب عدوانية واستعمارية لا ناقة له فيها ولاجمل، إشباعا لشهوات الفراعين والأباطرة والمماليك القدامى والجدد........... الشريان الذى يمد المدينة بأسباب الحياة والرفاهية لمترفيها ويحملها هو جائعا على كتفيه العاريتين..

نصفه فوق التراب هذا المُعانى الأبدى ونصفه تحته حتى تحول إلى جزء من التربة، يظل الذى على السطح ميتا مثل الذى تحت حتى يلسعه سوط الجوع أو

سوط الجابى والجلاد، فيتذكر أنه مازال حيا، ويشق الأرض بصدره العارى حتى تستوى أمام عينيه ثمرة رحيقها للحاكم ونواتها له، مرّة يقتسمها مع أطفاله وزوجه، ومرة يدفنها فى الأرض كى تطلع ثمرة من جديد، وتدور الدائرة أزلية كالفصول، كدورة الليل والنهار، كدورة الموت والحياة، دورة البؤس ودولته الأبدية التى لاتخلف الميعاد.

أقتلع قدمى الثقيلتين تحت السترة العسكرية من الأرض الترابية اقتلاعا، مخافة أن أغوص فألحق بمن جئت لخدمتهم كما تقول الشعارات «فالشرطة فى خدمة الشعب»، أو لتنفيذ القوانين عليهم لحساب أرباب السلطة كما يقول الواقع: «فالشرطة خدم السلطان» كما يقول الفيروز بادى فى قاموسه اللغوى.. لا أدرى اليوم ما إذا كان أحد فى القرية قد اكتشف وقتئذ أن الهيبة التى اصطنعها (ضابط النقطة) الجديد وخلعها على هيئته كانت قناعا يخفى ذهولى. ولكن الذى لاريب فيه أن أول خيط من نسيج قصيدتى (ضابط فى القرية) التى كتبتها بعد عام من ذلك النهار الليلى قد انبثق كالومضة يومئذ، واطّردت بعدها أشعارى فى القرية كالمطر المنهمر.

أهو الظلم الجائر الذى عجزت عن دفعه عنى؟ أم هو الواقع المتجسد تحت عينى ذلك الذى رسم هذه الصورة القاتمة وشكل رؤيتى السوداوية؟ لم يكن الريف حينما طفت به فى مطالع الصبا بعمق هذه الكآبة ولا بامتداد ذلك العدم، أين راحت عصافير الأمس البعيد وحمائم الأجران؟ أين قمر القرية والصبايا حاملات الجرار يتهامسن وصيحات الصغار على شاطئ الترعة وتحت شجر التوت والجميز وعند السواقى والشواديف؟ بدا لى كأن عالما سحريا بهيجا قد التقفته فجأة هوة هائلة، أو كأنما كان ذلك الريف الذى عرفته قديما حلما أو وهما. والحقيقة أن الأمس هو اليوم واليوم هو الأمس وماتغير غيرى، فقد مضى الصبى والفتى الرومانسى القديم إلى غير عودة، مضى ومعه عالم من الرؤى المثالية، وخلفهما اليوم طارق القرية الجديد الطريد فى زيه الغريب.

أتذكر إذ أخط هذه الكلمات الآن أن صديقى الشاعر محمد البخارى استطاع أن

ينفذ إلى أعماق مشاعرى وأنا على أعتاب هذا العالم الريفى ثم وأنا فى قلبه أعانيه ويعانيني، فكتب فى مقدمة ديوانى الثانى (فارس الأمل) الذى صدر منذ عشرين عاما وشاركه فى التقديم الروائى الشاعر أحمد لطفى: (لم تكن خطوات الشاعر الشاب الأولى فى قلب الريف خطوات هادئة مرحة، ولاكانت رحلته الطويلة وسط قرى مصر رحلة سائح مبهور، بل كانت أبعد من كل ذلك، تجربة فريدة غريبة وعميقة. فالشاعر الشاب ابن العاصمة الكبيرة الصاخبة بأصواتها وعرباتها وإيقاعها المحموم، عرف فى طفولته وصباه أزقة الأحياء الهرمة، واجتاز فى شبابه شوارع المدينة الكبيرة ليصل إلى الجامعة.

تعلمه دراسة القانون منطق الدفاع عن الحق، غير أنه يعين أثر تخرجه فى وظيفة معاون إدارة «شغل هذه الوظيفة حينا الكاتب الكبير يحيى حقى واستوحى من الريف فى تلك الفترة روايته «البوسطجى»، كما شغلها الأستاذ سعد لبيب أحد وجوه الإذاعة والبرنامج الثانى فى عصرهما الذهبى». لاتمضى الأعوام الأولى للثورة حتى تقرر الدولة إدماج معاونى الإدارة بضباط الشرطة. وفجأة يجد الشاعر المرهف الحس نفسه فى زى الشرطة الذى لم يذهب خياله فى الماضى إليه.

وفى هذا الزى المميز يخطو ابن المدينة خطواته الأولى فى الريف الذى لم يكن يعرفه إلا عبر الأقاصيص والصور والأحلام، خطوات شوق ولهفة إلى غسل عينيه بجمال الخضرة الآسرة، وإراحة صدره على وسادة السكون الحالم، وإسعاد قلبه بلمسات الصدق والصفاء والنقاء التى تعبق بها أنفاس الفلاحين المصريين. لم تكن يده هى الأخرى أقل شوقا إلى أن تربت بحنان على مناكب المحزونين.

يدخل القرية وفى خياله صورة عالم سيكون عالمه الخاص الذى يحيل فيه أحلام العدالة إلى واقع جميل. وتتعثر خطواته الأولى مع إطلالة البيوت. الوجوه البسيطة تبدو ولكن عيونها تنظر إلى الأرض. وكلمات التحية تقال، ولكن بسمة الود تغيض. ولم يعد الريف خضرة وسكونا وضحكات صغار وصفاء قلوب، بل أصبح سرا غامضا مختفيا وراء الظلال. ورأى زى السلطة الذى يرتديه وقد استحال جدارا قائما يفصل بينه وبين البشر الذين أتى ليعرف بينهم سعادة الحياة.. وغاضت البسمة

على شفاه شاعرنا الشاب، وخفت فى أعماقه صوت ابن الرومى الشاعر الذى أحبه وهام بشعره واصطحب ديوانه فى رحلة الحياة. ومن خلف النافذة المعتمة بالليل يطل وحيدا).

كُتب علىَّ الصراع والتحدى من قبل أن أجد سقفا أتخذ مرقدى تحته، فواجهت بعد مدير الإقليم عمدة القرية وهو المستوى الذى يلى ضابط النقطة فى التسلسل الإدارى العتيد. ولكنه أراد أن يحتوينى أو يضعنى فى جيب سرواله الفضفاض الملئ بثقوب الدنانير المسفوحة من عرق أجراء الأرض وعبيدها، وربما من ذهب الدخان الأزرق كما كان العليمون بما خفى يقولون فى السر بالحق أو بالباطل. عبثا بحثت عن منزل بالكراء أضع فيه كتبى ومتاعى القليل ويضمنى بضع ساعات من الليل تريحنى من عناء عمل النهار.

علمت من العساكر و(ضباط الصف) المخضرمين بهذه النقطة التى يرجع عهدها فى ذلك الحين إلى أكثر من عشرين عاما، ومع ذلك فقد ظلت نقطة مؤقتة تعتمد على مركز الشرطة فى تزويدها بالخيل كلما حل موعد قيام رئيسها (بدورية السوارى) وكان مقررها أربع نوبات فى الشهر.. علمت أن جميع من سبقونى من الضباط كانوا يسكنون إما فى القاهرة وإما فى (البندر) الذى يبعد عن مقر النقطة عدة كيلومترات تقطع بسيارات الركوب (بالنفر) أو بالدواب، ولايحضرون إلا إذا اتصل بهم العمدة أو شيخ الخفراء تليفونيا لإبلاغهم بوقوع حادث جنائى له خطره كالقتل أو الخطف أو سرقة الماشية. أما الحوادث الأخرى فكان يتولاها (بلوكامين النقطة)وهو ضابط صف، ويمهر محاضر التحقيق بإمضائه أو بتوقيع الضابط بإذن منه إذا كانت الحادثة مما يقتضى القانون أو الإجراءات أن يحققها الضابط بنفسه.

واستمات الشرطى العجوز (البلوكامين) فى إقناعى باستحالة العيش فى قرية بلاماء ولاكهرباء ولاسكن، وأدركت أنه يدافع عن قلعته إذ كان المتصرف والآمر الناهى.. علمت بعد ذلك (التسعيرة) التى كان يضعها ومنها خمسة وعشرون قرشا لقاء الإعفاء من تحرير محضر مخالفة قانون محو الأمية، وكان ذلك مبلغا لايستهان به عام ١٩٥٥. وكان دفع الفلاح الصغير هذا الغرم أو الرشوة أهون الشرين: أما

الشر الآخر فهو حرمانه من معاونة ابنه له فى الزراعة إذا اقتيد إلى مدرسة محو الأمية، ولذلك فإنها كثيرا ما كانت فارغة!! ومازالت الأمية هى السوس الذى ينخر فى عصب البلاد وخطة التنمية لأن مكافحتها مثلها مثل كثير من الآفات الاجتماعية وغيرها لاتخرج عن نطاق «الشكلية» أو مذهب «سد الخانة» و«خلّص قلمك»... «صورية» تعشش كالخفافيش تحت كل سقف يحميها غول البيروقراطية....

إنه أول القصيدة إذن: منفى ولا مأوى.. ولم يكن مفر من أن أتخذ «الكنبة» (الأريكة) التى لايوجد غيرها هى و«المكتب» وكرسى هرم و«بارافان» (ساتر) أكل عليه الدهر وشرب، فعمر ه من عمر النقطة فى هذه الغرفة التى كتب على بابها فوق لافتة خشبية صغيرة (ضابط النقطة) – اتخذ من هذه الكنبة سريرا أوى إليه فى الساعات القليلة التى يتاح لى النوم فيها، فقد أتت علىَّ أحيان كنت أواصل فيها الليل بالنهار بحثا عن (جاموسة) مسروقة، لأن الأوامر كانت صارمة فيما يتعلق بهذا النوع من الجرائم لخطورته. «لاتعد لمقر عملك إلا والمسروقات معك» هكذا كانت (الأوامر المستديمة). فكان الضابط ومعه بعض الجنود والخفراء يتضورون فى القرى والنجوع وبين (العزب) أياما وليالى بطولها، بحثا وتحريا حتى يعثروا على الدابة المسروقة ويخطروا (المركز) بضبط الواقعة.

مهنة الشقاء الذى يبلغ حد الهوان أحيانا – فمن الحق أنه هدف وطنى مقدس أن تحمى اقتصاد البلاد متمثلا فى ثروتها الحيوانية التى لاقوام للزراعة وللفلاح دونها – فقْد هذا الفلاح الكادح زوجته أهون عليه من فقد جاموسته، فالأولى تعوض بأخرى، أما الثانية فلا عوض للفقير المعدم عنها، نفوقها أو سرقتها هو الموت بعينه للأسرة كلها، وهو الخراب. ولكن أين إمكانات مكافحة هذه الجريمة ماديا وفنيا؟ لاجهاز بشرى مدرب من رجال الشرطة، وأعوان (الضبطية القضائية).. لاوسائل اتصال ولا أدوات انتقال عصرية.

اتذكر انني اضطررت يوما إلى امتطاء صهوة (حمار) – حتى البغال كانت شحيحة – للوصول إلى إحدى العزب النائية لتحقيق حادث فى مكان الجريمة. فلم تكن ثمة سيارة مخصصة لنقطة الشرطة، بل ولاخيل بها كما هو الشأن فى النقط الأخرى. فكان لابد مما ليس منه بد.. منظر يتنافى مع وقار البزة العسكرية ولمعان

النجوم، يرافقنى جندى وخفيران أحدهما فى الميمنة والآخر فى الميسرة وثالث يتبعنى للحراسة، حاملا بندقيته العتيقة من نوع (الجرينر) الذى يرجع إلى الحرب العالمية الأولى بل إلى أيام الثورة العرابية، فلم يكن بالنقطة فى (السلاحليك) – مقر السلاح – سوى بندقيتْى (لانكستر) سريعتىْ الطلقات تستخدمان بالضرورة فى الأحداث الجلّى مثل مهاجمة النقطة. أما تسليح ثمانية من الجنود الأحد عشروهم يشكلون قوتها فكان عماده البندقية الأنجليزية (لى انفيلد) وهى تفى بالغرض، وسلاح الباقين تلك (الجرينر) العتيقة وكانت المتاحف أولى بها.

سبقتنى– إذ أدخل النقطة أول مرة – صيحة (انتباه) أطلقها الجندئ رقم (١) الحارس الخارجى على بابها، وانتظمت (القوة) الصغيرة بالفناء الداخلى فى (طابور) يقوده ضابط الصف الأقدم وكان هو (البلوكامين) – أمين البلوك «إياه» لأداء التحية العسكرية (لحضرة الضابط) الجديد.. ملامح التعب والفاقة تكسو الجباه والملابس.. معظمهم مسنُّون فى عمر أبى.. خشيت أن تفلت منى نظرة إشفاق فلا آمن بعد ذلك تخاذَل ضعفاء النفس منهم فى الاضطلاع بالواجب وتنفيذ التعليمات.. وأغلب الظن أنهم يعلمون أنى (رجل طيب) أكره القسوة فى المعاملة، وأتسامح مع المكسورى الجناح، أليس أبى منهم؟ رأيت وجهه – الذى فارقنى طفلا لا أكاد أتبين ملامحه – فى وجوههم.

نظرة خاطفة استوعبت بها مقر عملى الجديد ثم غادرته مسرعا إلى الخارج يصحبنى الجندى (المراسلة) المعين لخدمة ضابط النقطة طبقا للتعليمات المرعية غير الرسمية المكتوبة (ألغى هذا النظام على الورق وبقى فى الواقع العملى). ولا أدرى أىّ عنت كنت سأقاسية لو لم يكن (المراسلة) مصطفى، إذ كان لى مفتاح (المملكة) البائسة الغامضة التى نُصبت رغم أنفى (أميرا) عليها!! وقد آخيته إذ كان فى مقتبل العمر يشى خلقه وسلوكه بإمارات «ابن ناس» أخنى عليه أو عليهم الزمن، فلم يتح له أن ينال حظا مناسبا من التعليم، فما وجد غير وظيفة (عسكرى) فى الأقاليم مصدرا للرزق الذى يكفيه وأسرته بالكاد، فمن المعلوم أن هذه الوظيفة أدنى الوظائف

فى الدولة مرتبا وأثقلها عبئا، وذلك بعض أسباب جناية الرشوة التى يرتكبها بعض أفراد الشرطة كما تبينت - عمليا - حين أسند إلى بعد ذلك منصب إدارة القضاء العسكرى.

كنت أتمزق نفسيا وأنا «أصادق» على الأحكام القاسية فى مثل هذه الحالات والتى تبلغ عقوبة السجن مع الأشغال الشاقة، فتتشرد أسرة كبيرة بها تلاميذ وطلاب ذكور وإناث بدءا من المرحلة الابتدائية حتى الجامعة. وإن أنْسَ - رغم مرور أعوام كثيرة - لا أنسى زوجة جندى متهم أو ابنته وهى على باب مكتبى تتوسل إلى الجندى الذى يحجبها عنى أن يستأذن لها كى تلقانى بدموعها ومسكنتها، لعلى أجد سبيلا إلى التخفيف من العقوبة، فأحول دون تعرض شاب أو فتاة للانحراف أو السقوط فى قاع الجحيم، فتلقى المصير الذى عرفته (نفيسة) فى رواية (بداية ونهاية) لنجيب محفوظ. وكثيرا ما أشفق على المسكينة هذا الحاجب بحكم المهنة والطبقة الواحدة فتوسل إلىّ بدوره أن أمنحها دقيقة من وقتى. وكم أسعفتنى أحيانا خبرتى القانونية فى إعمال ظروف التخفيف دون أن أملك مرة واحدة تطبيق مبدأ (الرحمة فوق العدل) فالقانون قاس، ولكنه القانون كما يقول المثل الرومانى القديم. وقد كدت أحيانا أن أتهم بالتعاطف مع الجنود، بل لقد اتهمت وإن لم ينل ذلك من مكانتى لحاجتهم إلىّ، أعنى حاجة المسئولين الكبار إلىّ فى ذلك المنصب الصعب. وماكانوا يعلمون أنى من هؤلاء وأنهم منى، هم من لحمى ودمى من دمائهم.

فى طوافى بالقرية التى تحتضن - رغم الحب المفقود - نقطة الشرطة، ويسمى هذا الطواف فى مصطلح العمل الشرطى (بالمرور)، وهو من أكثر المصطلحات جريانا على ألسنة عمال تليفونات الوحدات الشرطية من مراكزْ (بالريف) وأقسام (بالمدن) ونقط كلما سئلوا عن رؤسائهم الضباط، وهم فى غير مواقع العمل، قاصدين بذلك درء شبهة تغيبهم لأمر أو لآخر، لأن (المرور) بدائرة مقر الشرطة الرسمى من صميم اختصاصات الضابط وواجباته معا. فهو يباشر عمله سواء أكان

حاضرا أم غائبا، وكأنه الكرة الأرضية أو الشمس تجرى فى مدارها دون توقف بالليل أو بالنهار.

فى هذا الطواف لاحظت كثرة الدور الموصدة الأبواب بالقرية كأنما هجرها ساكنوها، فكيف لايسعنى مسكن واحد صغير رغم هذه الكثرة!! وكانت الإجابة أن أصحابها موظفون كبار بالقاهرة أو فى حاضرة الإقليم الذى تتبعه نقطة الشرطة، فهم يدعونها مغلقة طوال العام ولايشغلونها إلا فى أوقات إجازتهم السنوية فى الصيف ومدتها شهر، ويشرف على صيانتها فى غيبتهم بعض ذوى قرباهم دون أن يملكوا حق تأجيرها لغريب مثلى ولو كان (ضابط النقطة) الذى يحكم مجموعة القرى التى تتألف منها هذه الوحدة الشرطية. وقد يستطيع هذا الضابط أن يفرض سلطته فيما يشاء من أمور متى شاء وكيف شاء إلا أن يستأجر بيتا من تلك البيوت، فذلك أمر مستحيل عليه طواعيةً أو إكراها لأن الملاك مستشارون بالقضاء أو ذوو مناصب أخرى عليا بالحكومة.

وأسرَّ فى أذنى الشرطى (المراسلة) أن المشكلة ميسورة الحل إذا قبلت أن أقيم - مثل سلفى - فى سكن ملحق بدار العمدة، وإن كان - يعنى الضابط الذى خلفته فى رئاسة النقطة - قد تعود على أن يمضى معظم الأيام فى القاهرة أو فى حاضرة الإقليم، ولايتخذ من هذا السكن إلا استراحة مؤقتة كلما اقتضته ضرورات العمل وطوارئه أن يبيت ليلة أو ليلتين فى الأسبوع أو فى الشهر. فإذا لم يرقنى المقام فى جوار العمدة، فثمة سكن مماثل ملحق - هذه المرة - بمنزل شيخ خفراء البلدة وهو ابن أخى العمدة فى الوقت نفسه - هكذا همس لى الجندى مصطفى - وسوف يكون الحل الأول - إذا اخترته - شرفا للعمدة ولى أيضا، فالرجل من كبار القوم ذوى النفوذ!! فهو يمت بصلة مصاهرة إلى رجل آخر دخل بعد ذلك التاريخ من أوسع أبوابه ظالما - فى وجدان شعب وأمة - مظلوما - حسب مصالح قلة - ولكنه خالد مخلد على أية حال، ورحم الله عمر بن أبى ربيعة إذ يقول:

ألا ليت أم الفضل كانت قرينتى
هنا أو هنا فى جنة أو جهنم! !

والعمدة – فارس عنترىّ تعرفه حلبات الخيل الراقصة فى البندر، ويعرف هو كبيرا آخر من الزمرة بل يشاركه فى الحلبة أحيانا (كان يمارس تلك الهواية قبل أن يلمع نجمه ثم يطفئه الكوكب القطبى الأكبر بنفخة واحدة من فيه). وبدت لى امبراطورية العمدة المتشابكة والمحكمة الخيوط بلا خفاء ولافكاك.. وفرضت على الحرب قبل أن أهجع راقدا على (كنبة) النقطة التى كانت تتحول بالنهار إلى مجلس للضيوف الزائرين من رجال الإدارة المحلية، فهم أعوانى شئت أم أبيت.

(٤)

وانتقل الجبل

استقبلت شعاع أول صباح يعلونى نهاره فى موطنى الجديد بإبلاغ إشارة تليفونية لعمد القرى الثمانى التابعة للنقطة ولمشايخها تقضى بحضورهم فى اليوم التالى بمناسبة استلامى العمل، وما يقتضيه ذلك من تبادل الرأى معهم، وحثهم على التعاون معى، وإبلاغهم خطتى فى مكافحة الجرائم ولاسيما سرقة الماشية وإخفائها. إذ كانت دائرة النقطة سيئة السمعة فى هذا الميدان، الأمر الذى فرض علىّ اتباع مذهب الحزم والإنذار بتوقيع العقوبات الإدارية على المقصرين منذ البدء. وكان ما خفت أن يكون، إذ عقد الاجتماع دون أن يتخلف أحد غير الحاج العمدة وهو أكبرهم شأنا وأعزهم نفرا. فالقرية التى يرأسها هى مركز الدائرة ومقر الشرطة. تراها إشارة إعلان الحرب من جانبه أن يتعمد إهمال الأمر المبلغ للكافة؟ بل هو (بالون اختبار) أراد به أن يستعرض قوته ليعجم عودى!! فلا شك أنه قد علم بإعراضى عن السكنى فى الاستراحة التى خصصها للضابط بمنزله أو بمنزل شيخ الخفراء، وعما تعنيه من (رفع للكلفة) بيننا، وأنى اعتزمت ممارسة اختصاصاتى مستقلا عنه بل رئيسا له كما تقضى اللوائح النظامية.

لقد شققت إذن عصا الطاعة بهذا الاعتراض مما سيزعزع مكانته وسطوته، إذ يخرج الضابط الأليف – كما تعود – من جيبه. ونويت أن أفوّت عليه بالصمت غرضه إيثارا منى للموادعة، وكفانى مشكلات العمل فى مقر للشرطة لاتتوافر فيه أدنى الشروط الضرورية لتحقيق الهدف منه، فضلا عن ظروفى الخاصة الصعبة سواء ما يتعلق منها بالمعيشة أو بالإقامة بعيدا عن أسرتى التى تركتها مكرها فى القاهرة. ومضى يوم ويوم وثالث، ولاحس أو خبر عن (جناب العمدة). وتعمدت ألا استقصى الأمر، وأن أعيد إلى النقطة النظام الذى نَسيَتْه أو أنساها إياه غياب رب

البيت. وكان أشد المتضررين – فى صمت كما لاحظت – البلوكامين وشيخ الخفراء الذى يغدو ويروح فى غير الرداء الرسمى، فهو يهرول فى ملابس (الأعيان) استعلاء على نظرائه فى القرى الأخرى وتباهيا بقوة عمه. وتركته وشأنه إلى حين.

فى اليوم الثالث أو الرابع – لا أذكر على وجه اليقين – رن الهاتف على مسمع منى وأنا قابع حيث أراد بى حجاج آخر الزمان، ألست أتقاضى مرتبى نظيرعملى فى هذا الموقع كما قال لى – فى نبرة لائمة – وزير الداخلية بعد عدة أشهر من ذلك اليوم حينما تظلمت؟ هرول أكبر الجنود سنا يصيح وقد كاد ينكفئ على وجهه كأنه مذعور يطارده فأر أجرب: «حضرة العمدة على التليفون ياحضرة الضابط!!» ولا أدرى ماذا كان سيصنع الرجل المسكين لو كان المتحدث هو المدير أو الوزير؟ نهرته وقمت متثاقلا إلى غرفة التليفون:

** من ؟

* أنا الحاج . . .

** حاج. . . . من ؟

* أنا العمدة ياحضرة الضابط . . أنا عمدة البلد . . .

** أى بلد؟ وأى عمدة؟ لقد حضر جميع العُمَد بدائرة النقطة الاجتماع الذى عقدته ولم يكن هنالك عمدة بينهم بهذا الاسم!!

وأدرك العجوز الأمر.. أدرك أننى أردت إذ أتجاهله أن ألقنه الدرس الأول بأسلوب دبلوماسى حتى يرعوى فيصلح من شأنه اتقاء للنزاع. ودعانى إلى الإفطار على مائدته إذ كنا فى شهر الصيام وأنا كما قال ضيف وقد علم أنى مقيم وحدى، وإكرام الضيف شيمة كرام القوم كما ألح فى حديثه المعسول. اعتذرت للصوت المتحدث بدعوى أن تلبية دعوة موجهة من مجهول أمر غير معقول. وتلقى الإشارة الثانية. ولم تكد تمضى دقائق حتى شرفنى جنابه بالحضور تقله مع ولده الصغير سيارة خُيِّل إلىّ وقتها أنها فارهة وجديدة. ويبدو أن هذا القدوم السعيد كان حدثا مفاجئا لعساكر النقطة، إذ كانت الدهشة تعلو الوجوه فى مزيج من البهجة لما دل عليه

الحدث من تواضع الكبير وحسن التقدير للنقطة وأصحابها. ولاشك أننى ارتفعت فى نظرهم وليس العمدة فهو رفيع المقام فى كل الأحوال، وليس مثلى الذى يرفع أو يخفض من شأنه. لقد انتقل الجبل فالفضل له وحده. رثبت فى نفسى لأعمامى أو أبائى ـ هؤلاء الذين ألفوا الذلة حتى استطابوها ـ بدا الحاج العمدة والمسبحة فى يده وابتسامة عريضة يوزعها على الجمهور المعلق العيون بفمه انتظارا للكلمات الحسنى، والسيارة فى انتظاره أمام باب النقطة كأنه «تابو» لايمس.

حين اقترحت عليه أن يسعدنى باقتسام ما أحضره من البندر (المراسلة) لى من طعام (واللقمة الهنيئة تكفى مائة) كما يقول المثل، صاح كبير الجند مرة أخرى: ((ياسعادة البيك (يعنينى) هذه أول مرة يشرف فيها العمدة النقطة بالحضور!!)) ولم يكمل عبارته. لقد خلف لى أسلافى تركة مثقلة مستغرقة بالديون. حسبت أن نقطة الشرطة هى الحكومة، هى الجبل الذى يتحرك إليه الناس. وهأنذا أتبين حجم المهزلة الواقعية: أن أعمال الدولة تدار من (دوار العمدية). والويل للمعترض على نظام استتب وعُرْف استقر مهما كان مخالفا للقانون ومجافيا للكرامة. ولم يكن مفر من اتقاء الصدام ولاسيما بعد هذا التنازل الذى لم يسبق له مثيل فى التاريخ، وبعد أن أقسم الجبل يمينا مغلظة لأتناولن معه الإفطار هذا المساء.

أسلمت أمرى إلى الله. وكانت المائدة عامرة قد أعدت خصيصا وليست (على قدر ماقسم) كماقال. وليمة جمعتنى بمن اختار المضيف من خاصة أهله وصحبه وأعوانه.. أصبت بضيق من يقع فى مصيدة رغم أنفه بل عن طيب خاطر.. تبخر ماكدت أن أصاب به من حسن الظن وافتراض سلامة النية. فمثل هذا النموذج لايتغير والضباط عنده سواء.. ولشد ماكانت سذاجتى حين ظننت أنه وعى الدرس.. أتذكر الآن قول الجنرال جياب بطل معركة ديان بيان فو: «الاستعمار تلميذ بليد لايتعظ». ولكنه الإقطاع هذه المرة. وهو ينصب لى مظاهرة يغلفها بقالب من الحفاوة بالضيف الكبير الخليق بالمأدب الرمضانية الفاخرة.. فالمال كثير وكله قليل فى هذه المناسبات الغراء!! لو دعانى وحدى لكذبت وسواسى، ولكن هاهو ذا يثبت صحة النظرية ويجعلنى «فرجة» لرعاياه. أصبحت واحدا منهم والشاعر مازال فى أول القصيدة، فكيف بالختام؟

«الأفضل أن نتناول الفاكهة ونحبس بالقهوة فى الهواء الطلق»..وينتصب المهرجان فى الطريق العام أمام (الدوار). فالكرم الحاتمى ينبغى أن يشيع ويذيع ويملأ البقاع والأسماع. وقد كان.. انتقل الصوان بما حواه من الضيفان إلى حيث أراد، وأمسيت من زمرة العمدة وشيعته المقربين المعززين المكرمين. ومن بعيد لمحت أهل القرية، يقبلون، فالطريق هو شارع (داير الناحية) أى الطريق الرئيسى الذى لامفر من قطعه لكل ذاهب أو قادم.. من الحقل إلى الدار ومن الدار إلى الحقل ومنهما إلى الحانوت.. كل الطرق توصل إلى روما.. وروما هى (دوار العمدة) القطب الذى تدور حوله كل الكواكب، وكانت كلها نجوما مظلمة ورمادا منطفئا.. مايكاد الفلاح يقترب من مجلس العمدة وحاشيته حتى ينزل عن دابته إذا كان راكبا، أو ينحنى ويرفع يديه حول أذنيه، مسلما راكبا كان أو راجلا، وهو يهتف «السلام عليكم». وتستمرالاسطوانة ولا «تنشرخ» أبدا.. ويصفع الشواء وجوه القرويين وثيابهم الزرقاء المتهرئة.

شعرت بالتقزز وزاد إحساسى بأنى رهين العمدة أنا الذى جئت لإطلاق سراح القانون المقيد وتقويم النظام المعوج والعودة إلى الأصول. وتذكرت – بمرأى الريفيين السذج – ما درسته فى الحقوق عن نظام الرق ونظام الأقنان.. وربما ترحمت على عرابى – وهو يصرخ فى وجه الخديوى توفيق وحوله قنصلا بريطانيا العظمى وفرنسا – فوق جواده فى ميدان عابدين «والله الذى لا إله غيره. لسنا عبيدكم ولن نورث بعد اليوم» بعد أن هدده الخديوى الخائن بالويل والثبور وعظائم الأمور، مستمدا القوة من العدو، منتفخا مثل ديك رومى أو هرّ هلامى وهو يجمجم ممسكا بأذيال سيده (من حسن الحظ ودلائل الإعجاز الحضارى أن «مودة» الأذيال الدبلوماسية الطويلة قد بطلت): «أنتم عبيد إحساناتنا».

وطالما اتهمت نفسى – قبل أن يتهمنى غيرى سرا أو علانية – بالمبالغة العاطفية أو الحساسية المفرطة والرومانسية التى لاترى الواقع ولاتتكيف به فتودى بصاحبها إلى الخسران المبين. وطالما حاولت أن أروض النفس وأكرهها على اعتناق حكمة ابن أبى سلمى العتيدة:

ومن لم يصانع فى أمور كثيرة

يضرس بأنياب ويوطأ بمنسم! !

ولكن عبثا..فها هو تاريخ مصر كله يلعننى إذا ارتضيت - خنوعا - هذا الواقع ولم أعمل على تغييره ولو بأضعف الإيمان. أحسست وأشباح الفلاحين التعساء تتهاوى ذليلة أمامى واحدا واحدا أن سياطا من اللهب تلذع ظهرى حتى قفاى. وامتلكت نفسى وأجلت المعركة فما زال أمامى الكثير حتى أتهيأ لها.. ولا أدرى حتى اليوم كيف واتتنى تلك القوة الهائلة فاستطعت أن أكبح جماح غضبى.. أسرعت بالانصراف معجلا فى تلك الليلة الطويلة الليلاء متشائما من الغد. فالذى فعله (الحجاج) فى المديرية كان أرحم وأخف وطأة مما يفعله تابعه فى القرية. ومن يعلم ماذا سوف تكون عليه الحال لو تبادل كلاهما موقعه!

في مجلس الإفتاء !!

جاهدت نفسى على الإبقاء على شعرة معاوية. فاستجبت فى الليلة الثانية لدعوة العمدة – تليفونيا – أن أحضر مجلس علم وفقه يعقده كل مساء فى أعقاب إجراءات الإفطار والصلوات بعد أن اعتذرت عن مشاركته الإفطار على مائدته الخاصة المتواضعة!! ذلك رجل أزرق الناب، وقد يستغل امتناعى عن المشاركة فى المجلس الرمضانى الموقر للتشهير بى، فتقع الواقعة ويفسد أو يقطع مابينى وبين الفلاحين السذج الذين اعتزمت أن أقف معهم فى مواجهته، وكم استغل سلاح الدين واتجر به أعداؤه وهو وأهله منهم براء. ولن يتورع مثل الحاج العمدة عن الابتزاز والتهديد إذا اشتم رائحة المقاومة والتمرد على سلطانه من حيث تعود الإذعان أو تبادل المصالح المشتركة. يومئذ سوف يستبدل بالتمر (كانت وليمته ندية به وجيبه عامر الثقوب بالحلوى) الجمر (كان معدا إلى جانب المائدة وغرفة التليفون لمزاج أكابر القوم دون الخروج على القانون على الأقل فى حضورى).

على (الكنبة) أو (الدكة) الممتدة بطول حائط التلفون المواجهة لدار العمدة الكبيرة بشارع (داير الناحية)، وتحت قضبان نافذتها نصف المعتمة، انتظم العقد وأنا (ضابط النقطة) حبة من حباته الفرائد، وقد اقتعد العمدة اللحيم الشحيم مكانه ملاصقا لى لايريم كأنه يخشى أن أفلت منه، وعن يمينى ويساره مستشاروه ومفوضوه من المعلمين بالمدرسة الإلزامية الوحيدة بالقرية، وهم يمثلون أهل العلم والفصاحة والصفوة المثقفة، وبعض الأعيان المقربين، وربما كان منهم مأذون البلد وهو قاضيها فى عرفهم، إذ يحفظ كلام الله تعالى، وإليه ترجع مراسيم الإخصاب، والصراف (الموظف الموكل بجمع الرسوم وتحصيل الضرائب) والمقرئ الذى يستهل الجلسة بترتيل ماتيسر من أى الذكر الحكيم، وخفيران يروحان ويجيئان بالصوانى التى تحمل كئوس الشاى وبعض الفاكهة، فرزق الله العاطى واسع وكله من فضله.

أسلمت أمرى مرة أخرى إلى الله الذى لايحمد على مكروه سواه حين بدأ العمدة – ويا للمفاجأة – يفسر ماتلاه المقرئ، والكل آذان صاغية وعيون على شفتيه تترقب الدرر المتساقطة. لم تكفه إذن ميزات السلطة والجاه العريض ولم يقنع بموفور المال والصيت البعيد، فأراد أن يتشح بلباس العلماء، ولِمَ لا وقد منحه المولى سبحانه بسطة فى الجسم وعلوا فى المقام بين الناس، وقد كان بعض السلاطين قديما فى المشرق والمغرب وحديثا فى عالمنا الثالث على رأس أرباب التأويل والحكمة؟ والعمدة يملك شروط اكتساب العلم حسبما يزين له مريدوه وأولها المال ورضى السموات والأرض فألسنة الخلق أقلام الحق. ولولا أن الله اختاره بين المرضىّ عنهم من أوليائه لما أفاء عليه كل هذه النعم، فهو عز وجل يعطى كلا مايستحق: الغنى يزيد غنى والفقير المغضوب عليه يزيد فقرا. إنه ليملك زينة العلم بحكم المنطق لأن الذى يملك الأكثر يملك الأقل!!

تطور جرى به آخر الزمان، فلم يكن الحكام بعد عصر انقضاء الامبراطوريات الدينية – باستثناء قلة باغية – ينافسون العلماء، قد يشترون بعضهم ليبرروا سوء النظام وجور الأحكام، ولكنهم يدعون ما لقيصر لقيصر وما لله لله، ويؤمنون بمبدأى التخصص وتقسيم العمل. فلم ينازع أحد الطرفين الآخر فى ملكه. عالم واحد فقط من عصرنا الحديث لم يرتض بمقسوم النصيب فقال يشكو إلى الله همه وقلة حيلته وهوانه على الناس وهو الأديب واللغوى والشاعر الذى يشير إليه الناس بالبنان كلما طلع عليهم فى وقار أهل العلم والفضل: هذا هو حفنى ناصف الذى قلد رتبة (الباكوية) من صاحب الأريكة التركى إكراما وإعظاما، وإن لم تغن عنه شيئا فى دولة الألقاب والأنصاب والتكايا:

أتفنى معى إن حان حينى تجاربى

وما نلتها إلا بطول عنائى؟

ويحزننى ألا أرى لىَ حيلة

لإعطائها من يستحق عطائى

إذا ورّث الجـهـال أبـنـاءهـم غـنـى
وجاها فما أشقى بنى العلماء!!

ولكن الشقوة الأكبر أن ينتحل الأولون من الحكام علم الأخيرين فيخسر هؤلاء كل شئ.. إنه عود إذن على بدء، عود إلى عصر نظرية (الملك ظل الله فى الأرض) فهو الحاكم القوى الغنى وهو العليم الخبير الحكيم. . .!! استشرت النظرية السلطانية السرطانية أخيرا حتى وجدنا امرأة كافورية (نسبة إلى كافور الاخشيدى المشبه به زوجها الحاكم)، أو شاهنشاهية (نسبة إلى شاه ايران صديق هذا الحاكم بحكم التبعية للولايات المتحدة الأمريكية) أو سجاحية (نسبة إلى سجاح التى ادعت النبوة فى زمن الردة على عهد أبى بكر رضى الله عنه وتزوجت مسيلمة الكذاب) تجد بين كبار الأكاديميين والأكاديميات من يخلع عليها اكبر الدرجات العلمية وينصبها « معيدا أو مدرسا» بالجامعة. فالعبقرية شجرة ربانية معطاء ذات جذور وفروع لاتعد ولاتحصى، وحرام ألا يفيد الخلق من ثمراتها حكما وعلما، وألا يجنوا من نفحاتها النيسانية (الوفاء والأمل)!! رحمة من ربك والله لطيف بعباده.

ولما كان صاحب المجلس من أولياء تلك الشجرة ومن أصهار صواحبها، فقد عد نفسه من نظراء الزمخشرى والنسفى ومن أقران الإمام الشيخ محمد عبده فشرع يفسر الايات التى تلاها المقرئ والحاشية تستزيده أو تستعيده.. كانت أذنى معه وفكرى يسبح بعيدا. أما البصر فكان يتابع الظلال الطويلة للأشباح المحنية الرقاب. وصحوت فجأة – كما لو كنت تحت وطأة كابوس ثقيل – على تفسير خاطئ لبعض الآيات القرآنية، فخرجت عما ألزمت به نفسى من صمت وتدخلت مصححا. فتصدى لى أحدهم معترضا علىّ ومصدقا لما بين يديه، وكأنما يريد أن يقول: «نحن أدرى بالصواب والخطأ، وما ينطق كبيرنا إلا بالحق، فلماذا تتدخل فيما لايعنيك؟!» وكانت الكلمات تتناثر من شدقيه ويده تمتد فى الفضاء لتلقف كوب الشاى وتزدرد الأخرى ثمرات الفاكهة.

لقد اتسعت الدائرة إذن.. فما يجدى سلام ولاموادعة مع أخطبوط له ألف ذراع وذراع.. وقد حلا له أن يتخذ موقف الحكَم بينى وبين محاميه الأشعبى وينفلت هو

كالشعرة من العجين، ولسان حاله يقول لى: «نحن – أنت وأنا – من طينة واحدة، فلا ينبغى أن يدب خلاف بيننا أمام العامة وإلا اختل نظام الكون. وإنك لترى بعينك عقبى ماصنعت، وما كان أغناك عنه.. فنهاية الصراع محسوبة ومحسومة من قبل توزيع الأدوار، بل من قبل أن تبدأ. وهاهو معلم إلزامى يرفع صوته فوق صوتك وسوف أقف أنا إلى جانبك. ألسنا من طبقة واحدة؟ وقد أعذر من أنذر». وزجرتُ المنافق الأكل على مائدة الوثن.

ضاقت بى رقعة الشطرنج و(صندوق الدنيا). وكانت هذه الليلة آخر ماكان بيننا من لقاء على أعين الناس. أما فى الخفاء فقد تلاقينا بعدها غير مرة وفى يدى الملك قفازان حريريان مرة وقبضتان حديديتان مما يستعمله (فتوات زمان) مرة أخرى ولكن من وراء حجاب أيضا. وقد أدرك هو تلك الليلة أننى لن أعود بعدها. فلما كانت الليلة الثالثة أناب عنه شيخ الخفراء – وزير حربية الأسرة الحاكمة – فى دعوتى إلى مجلسه التقليدى الموقر مخافة أن يدعونى بنفسه فأخيب أمله، فينتشر الخبر مما يغض من قدره ويغرى الخبثاء من خصومه المتسترين باستغلال الانقسام الحكومى وبث الشائعات وربما تحدى صولجانه وهيلمانه.

تجاهلت الدعوة وأفهمت المندوب السامى الذى حملها وهو يخب فى زيه المدنى أنه لاينبغى لشئ أن يشغله عن أداء وظيفته، دون أن أذكر عمه وسيده صراحة. وجاء الرد عاجلا من لدنه، إذ لم تنقض غير ليلة أو ليلتين حتى أقبل المندوب مرة أخرى فى (زفة) من الخفراء وهم يقتادون رجلين طالبا منى باسم العمدة أن أودعهما سجن (النقطة) المسمى بالحجز تأديبا لهما وردعا لكل من يجرؤ على معصية أولى الأمر. ولم يكن شيخ الخفراء يحمل بلاغا كتابيا من العمدة كما تقضى الإجراءات. بل أمر سيده أن أستلم «البضاعة» المرسلة ثم أحدثه فى شأنها تليفونيا على مذهب (أطع الأمر ولو غلط ثم تظلم). لقد أصبح لى (حجاجان) إذن كأنما لم يكفنى (حجاج) واحد. ولقد خلع جديدهما قفازه وواجهنى به، فلم يكن مناص من قبول التحدى.

لقد أنشئ نظام العُمَد فى عصر الاحتلال البريطانى لمصر ومازال قائما منذ ١٨٨٢ حتى الآن لم تطرأ عليه سوى تعديلات طفيفة، أما الجوهر – من حيث

السلطة المحلية المفروضة على الشعب - فلم يمس، فهو يرتبط بالإقطاعية العريقة فى مصر وبالرأسمالية المتحالفة معها. وكان القصد من وراء هذا النظام خلق جهاز بشرى وتنظيمى يرتبط بالولاء للانجليز ويكون بديلا عن نظامين أو نزعتين لاتعرفهما مصر وهما القبلية والطائفية اللتان تغذيهما سلطة الاحتلال أو الاستعمار طبقا لمذهب فرق تسد، ومن الحق أن الأمور فى عهد الاستقلال لم تجر كما يشتهى الانجليز من حيث إنشاء نظام ظاهره الرحمة وباطنه العذاب، ومثل نظام العمدية - من حيث منشئه وأغراضه وتطوره - مثل جامعة الدول العربية إذ أوحى بفكرة إنشائها البريطانيون ولكنها تطورت لكى تصبح لصالح الشعب العربى بغض النظر عن النتائج التى حققتها. وكذلك العمد إذ جرفتهم فى تيارها الوحدة الوطنية، فكانوا من أدوات الحكم الوطنى يصلحون بصلاحه ويفسدون بفساده.

ولكنّ لكل تشريع قديم رواسبه وصنائع أصحابه والمستفيدين منه. وهذا الرجل الذى رمانى به (الحجاج) مدير الإقليم خير نموذج يجسد الغرض الذى رمى إليه الانجليز، وهو إقامة إدارة محلية تعمل لحسابها وحساب سيدها ويدفع الشعب الثمن، تحنى ظهورها كى يمتطيها السادة الأعلون، وتعمل على إكراه الطبقة الدنيا على الانحناء لتركب هى، طبقات بعضها فوق بعض. . . هكذا ينبغى أن يكون التسلسل الإدارى، فلا بأس فى شرعتهم أن يكون المرء هو الأدنى اختيارا بالنسبة للقمة طالما هنالك من هو أدنى منه اضطرارا. وكانت أشباح القرويين المذعورة فى شارع (داير الناحية) وظلالها الطويلة المرتجفة، وسواعد الخفراء النظاميين الذين يتقاضون مرتباتهم من الدولة نظير أعمال أخرى لاتمت بأدنى صلة إلى حمل (الصوانى) وتوزيع الأشربة على ضيوف العمدة هى الفيصل بينى وبينه، بل هى جدار الطين الذى أقامه هو وفى يده هو وحده أن يهدمه أو أهدمه أنا على رأسه.

(٦)

لم أكن من جناتها علم الله

بدأنا لعبة الجزرة والعصا كما يعبر أهل المغرب العربى.. ترى أيريد الحاج العمدة بقبضه على الشابين واقتيادهما إلىّ مخفورين أمرا بسجنهما أن يستعرض قوته أمام الرأى العام بعد أن اطمأن إلى إيثارى الموادعة بقبولى دعوته ليلتين، وما يعنيه ذلك من احتوائى ووضع (النقطة) فى جيبه الفضفاض كما جرت به الأمور من قبل، فلا جديد تحت الشمس؟ أم اعتراه اليأس من قدرته على ترويضى فبعث (بأركان حربه) يتحدانى؟ إن الاحتمال الثانى هو الأرجح، فالرجل ليس بالغِرّ ولا هو بالغبى. لقد عركته السنون والأحداث وهو يعرف من أين تؤكل الكتف كما هو متمرس بأنواع الضربات القاضية فى حلبة السلطة، ولاشك أنه لمح نظراتى ودلالاتها فى الليلتين.

استلمت (الهدية) المسمومة من شيخ الخفراء ورددت عليه بمثلها فتلقاها كصاعقة فوق رأسه: «أين زيك الميرى (الأميرى أى الرسمى)؟ لا أراك بعد اليوم فى هذا الملبس (المدنى)؟ «تلعثم وبدا كأنه موشك على الإغماء، وكأنما جردته من سر قوته. تمتم (أصل ياسعادة البك . . .) قلت: «لا أصل ولا فصل ولابيه ولاتيه.. أنا ضابط النقطة المسئول عن إقرار النظام والأمن... وينبغى لك أن تكون مثلا لغيرك من الخفراء وأشياخهم فى احترام النظام». واختفى عن وجهى وهو يتخبط فى أذيال جلبابه دون أن يجرؤ على سؤالى: «ماذا أقول للحاج «يعنى العمدة»؟ يتبعه قولى: «البذلة الرسمية شرف لحاملها فلماذا تخجل منها؟» (من الحق أن هذه البذلة تمثل الكآبة بسوادها وسوء هندامها وطالما كانت مثارا للسخرية فى الأفلام والمسرحيات).

أفرجت عن الشابين القرويين بعد أن تبينت أنهما لم يقترفا من الأعمال ما يؤاخذان عليه قانونا. وأمرت – خفية – الجندى الموكل بأعمال البحث والتحرى أن يراقبهما. وعلمت من التحرى أن العمدة يفرض إتاوات على من يشاء من الأهالى

المستضعفين دون وازع من ضمير، ولايجرؤ أحدهم على الامتناع مخافة بأسه الشديد، وأن أطيانه (أراضيه الزراعية) قد تضاعفت منذ تولى منصبه وله موارد أخرى.. وحينما علمت أن كلمته عند الحكام لاترد قلت لنفسى أعابثها ضاحكا: (ماذا يفعل الصعلوك بين الملوك؟)!! ولم يكن الرجل يخسر شيئا، بل كان يكسب بحسه التجارى الانتهازى، فالهدية التى يقدمها لحكامه الأعلين ولحاشيته تقابلها إتاوات بأضعاف ثمنها. وبإقامته مجلس التفسير والفتوى بعد الإفطار يكسب الدنيا والآخرة!!

«من يملك يحكم» تلك هى القاعدة المعمول بها منذ أقدم الأزمان حتى اليوم، ولكن (الحاج) يحكم ويستغل أيضا، وكل ذلك باسم القانون، ولماذا لانقول وباسم الثورة؟ أليس صهرا وصديقا لها؟ فليست الثورة عنده وعند أمثاله بل عند عامة الناس الذين لايعون، إلا فلانا وزملاءه بأشخاصهم وأفعالهم، لابوصفهم الطليعة التى تمثلُ إرادة الشعب فى التغيير، والرمز الذى يدل على هذه الإرادة كما تقول الحقائق أو الشعارات. وليس عدلا ولامنطقيا أن نطلب من قروى أمى جائع أو عريان أن يفرق بين النظرية وبين التطبيق، أو بين المادى المجسد وبين المعنى المطلق المجرد.

كانت قد مرت على ثورة ٢٣ يوليو ثلاث سنوات يوم هبط (الضابط) الغريب أرض تلك القرية، وارتطم بجدار قلعتها الصلدة التى لاتلين، كما اصطدم بالثور الذى يحمل كُرَتها فوق قرنيه ويمتص دمها أجرا له!! وسوف تبقى ذكرى اللحظة التى سمع فيها نبأ اندلاع الثورة من أعظم الذكريات وأعزها فى حياته، على الرغم من كل الجراح التى أصابته فى عصرها وما اكتوى به من نارها:

لم أكن من جناتها علم اللهُ

وإنى بحَرِّها اليوم صالى

مصرى مخضرم أنا من شهود العصرين.. من الجحيم إلى المطهر ثم إلى الطوفان، كأنما التاريخ لايمضى إلى الأمام. لم أفقد إيمانى قط بنبل الدوافع التى فجرت ٢٣ يوليو ولا بمبادئها الستة رغم هلاميتها، ودورها فى حركة التحرر الوطنى فى البلدان العربية خاصة وفى آسيا وافريقيا وأمريكا اللاتينية عامة. ولولا

التجنى على ثورة سنة ١٩١٩ ومآخذ أخرى فى (الميثاق) لعددته اقوم دليل للعمل تمخض عنه كفاح الشعب المصرى وتضحياته خلال مسيرته التاريخية الطويلة. وجاء بيان ٣٠ مارس بعد النكسة ليصحح نظريا الأخطاء التى كانت من أسباب تلك النكسة والتى تتعلق بالديمقراطية، ولم يقيض له أن يوضع فى حيز التطبيق لحظة واحدة لأن القائد لم يكن واثقا بقدرة الجماهير التى طالما ناصرته على الوقوف فى وجه العاصفة الجائحة التى بادلته التحدى.

ولكننى كنت أومن فى نفس الوقت أنه لا اشتركية بلا اشتراكيين، وتجاربى فى هذا الشأن يقصر عنها الحصر، فما يعرف أسرار المجتمع وخفايا الحكم بالكواليس مثل ضابط الشرطة، ولقد كنت واحدا من الضحايا وإن كان السجن الذى رميت فيه خارج القضبان، وليس واحدا من سجون الاغتراب الثلاثة التى عاناها أبو العلاء المعرى وعبر عنها فى لزومياته:

أرانى فى الثلاثة من سجونى
فلا تسأل عن الخبر النبيث
لفقدى ناظرى ولزوم بيتى
وكون الروح فى الجسم الخبيث

كان سجنى أو سجونى من نوع خاص Sui - generis

كما يعبر فقهاء القانون. سجون مفتوحة لا بالمعنى الذى نعرفه عند أصحاب النظرية الحديثة فى إعادة تربية المذنبين، ولكن على الطريقة التى تمخضت عنها عبقرية الجهاز الحاكم لقمع ضابط شاعر متمرد على السلطة الغاشمة وعلى الزيف والديماجوجية، وهو من أهلها بل هو أداة من أدواتها. ولكن هذا حديث ماحان وما حان حينه.

كممثل ساذج أو حالم يوتوبى تصورت دائما فى عملى بالشرطة، فى الأقاليم الريفية وفى المحافظات الحضرية، وعلى اختلاف المواقع ومن الشباب حتى الكهولة، أننى مبعوث العناية الوطنية للثورة على الأوضاع الفاسدة وهدم هرم البغى

والاستغلال على أصحابه، والتبشير بعالم جديد يتساوى فيه الناس جميعا، فلا طبقية ولاعنصرية ولا دكتاتورية.

وكثيرا ما اتُّهمت بالمثالية والتعلق بالخيال، أو رميت بالتطرف من أحد رؤسائى بمصلحة الأمن العام وهو اللواء صلاح مجاهد وكان من القلة القليلة الفاضلة التى عملت معها، كما كان يتذوق الأدب ويستبقينى ليلا بعد انصراف الضباط لنتنفس معا عبير الشعر الفاغم ترفيها عن نفسينا الكليلتين من عناء العمل الشاق اليومى، ودفعا منه لى إلى منح هذا العمل كل قطرة من دمى إذا أصبحت فى اليوم الجديد، نتيجة لهذا التشجيع. ولقد كنت أفعل انطلاقا من طبيعتى وتقديرا ومحبة للرجل الذى كاد أن يكون نسيجا وحده بين الآخرين، هؤلاء الذين قال أبو الطيب فى أحدهم أو فى جمع منهم:

ومن نكد الدنيا على الحر أن يرى

عدوا له ما من صداقته بد

مرة واحدة خيب ظنى، إذ أهديته نسخة من كتاب لى فكان تعقيبه حينما قلبه بين يديه، واسترعى نظره حجمه الكبير: «كل هذا على حساب الأمن العام» .. ووجمت، أهذا هو الرجل الذى أحببت فيه حبه العلم والأدب وتفانيت فى عملى تحت رئاسته؟ ولكن الكتاب كان لسوء حظه يتعلق بصميم الأمن العام، فموضوعه هو (المخدرات سلاح الاستعمار والرجعية). ولما نبهته إلى ذلك وإلى أننى لا أكتب الشعر أو النثر إلا فى أوقات فراغى القليلة، وغيرى يلعب النرد وغيره من اللعب، أو أقتطع من وقتى مع زوجتى وأطفالى أو من نومى ساعة أو ساعتين لأخلو إلى نفسى، بل لأحقق ذاتى بالإبداع الشعرى أو التأليف، سكت وبدا كمثل من شعر بالأسف. أما أنا فقد خيل لى بعدئذ أن تناقض الرجل ينم عن حالة نفسيه خاصة، ذلك أنه لم يخلص إخلاصه فى العمل أحد– كما رأيت– ولاشك أنه تمنى يوما أن يخرج مثلى كتابا ولم يجد متسعا من الوقت إذ كان راهبا فى محراب (الداخلية) أو حمامة مسجدها العتيد، يدفعه تقديسه للعمل باعتباره عبادة لا مجرد أداء للواجب، أكثر مما تدفعه الرغبة فى إرضاء الرؤساء والطموح إلى المناصب الأعلى.

مازالت ترن فى سمعى كلماته إذ أشكو إليه وضعا خاطئا فى العمل، وهو يعلم مثلى هذا الخطأ وأطالبه بالتصحيح وهو يملك السلطة: «أنا معك، ولكن هل تريد أن تغير الكون؟ لقد وجد هكذا وسيظل كذلك ولن تستطيع أنت أن تعدل مساره مهما فعلت» يريد أن يقول بلسان الشاعر قديما إننى كناطح صخرة يوما ليوهنها، أو بلسان العقاد حديثا:

إن الحـــيـــاة حـــيـــاة

ففـــار قـــوا أو أقـيـــمــوا

ولم أتعظ أبدا بالدرس الذى ألقاه علىّ صلاح مجاهد الرجل الفاضل، وجادلته فيه طويلا دون جدوى، كما جادلت ومازلت أجادل غيره من العقلاء الذين يتهموننى أحيانا– فى أنفسهم– بالجنون أو الشطط. ولو كانوا يقصدون– بحكمتهم التى اطمأنوا إليها وسعدوا بها وحققوا فى ظلها مصالحهم ومطامحهم– أن الجهد الفردى الذى أبذله محكوم عليه بالفشل لما كذبتهم، ولكنهم يقصدون أنه لا مناص من الرضوخ للأمر الواقع مهما كان ظالما أو فاسدا، وذلك ينطبق فى السلم وفى الحرب، وفى شتى الميادين، فى كل زمان ومكان .. نهج أبدى سهل لايتغير يصارع أصحابه من يتبنون النهج الآخر الصعب، وهو العمل على التغيير لتستمر الحياة، ولتكون أقل بشاعة وقسوة وأكثر أمنا وعدلا وجمالا. ترانى پ ب شيللى المصرى حين كان يصرخ فى خضم النقائض: «تسكننى شهوة لتغيير هذا العالم».

حين قرأت بعد سنوات طويلة نعى الرجل اعتصر الحزن قلبى، ومر فى ذاكرتى شريط «المشوار» الذى أمضيناه معا، وسيرته الهادئة المتفانية فى العمل حتى رقى إلى منصب كبير دون وساطة تدفع به إلى الأمام، على خلاف فى ذلك مع كثير ممن تتوافر فيهم الشروط المطلوبة، وأولها النفاق لمن بأيديهم مقاليد الأمور، وذلك أن وزارة الداخلية ـ ولاشك أن الوزارات الأخرى كذلك– تتخلى عن توافر هذه الشروط أحيانا فتسند إحدى الوظائف الرئيسية إلى أحد الأكفاء كى يدور دولاب العمل على الوجه المنشود، وإلا اختل نظامه وانكشفت عوراته، وهى لا تتطلب من مثل هذا الكفء إلا شرطا واحدا وهو الطاعة العمياء، فدون ذلك خرط القتاد حسب التعبير التراثى الذى يقصد به إبداع الألم.

إن الكفاءة والنزاهة لا تغنيان عن هذا الشرط، وهذا ما جرى للواء صلاح مجاهد رحمه الله حين كان محافظا للدقهليه، وكان المنصب الذى شغله من قبله هو محافظ دمياط. وحين أرادت السلطة الحزبية المتحكمة المتعفنة أن تعصف بأحد الناصريين، وهو الأستاذ ضياء الدين داود ابن دمياط وأمين الاتحاد الاشتراكى بها فى عهد جمال عبد الناصر. وفى الفترة الواقعة بين موت الزعيم واستيلاء السادات وعصبته على السلطة بانقلاب ١٥ مايو ١٩٧٠، والزج بهذا الرجل فى السجن، أريد من اللواء صلاح مجاهد بصفته المحافظ السابق لدمياط أن يكون أنشوطة الصياد بأن يشهد على وقائع مختلقة تدينه، فلم يطاوعه ضميره أن يرتكب شهادة الزور، وقال لن أدلى بيمين كاذبة فى المحاكمة. فلقى جزاء سنمار لأنه خالف الشرط الأساسى للمنصب وهو الطاعة العمياء.

وهكذا أحيل المحافظ الأمين الكفء على المعاش شأن كل من يتجاوز الخط الأحمر. ولاشك أن هذا المصير قد أصابه بالمرارة حتى لقى ربه مشيعاً من الأحرار الأنقياء بالرحمات ومنهم على الباغين الأدنياء باللعنات.

كل جهد فردى معزول عن الرأى العام غير منصور بقوته وتأييده، دفاعا عن قضية عادلة أو تغييرا لوضع جائر، حرث فى البحر أو نسيج عنكبوت وقبض الريح كما كان يعبر المازنى فى تنويعه على (نشيد الإنشاد). تلك كانت قناعتى دائما، ولكنى عجزت عن العمل بمغزاها فى معظم الأحوال، ومازلت بعد كل هذا العمر وتلك التجارب المريرة التى حصدتها بسبب العمل المفرد عاجزا عن حل المعادلة المستحيلة، فمن الصعب حقا زحزحة الجبل أو الهرم عن موضعه ولكن الأصعب أن تميت الضمير الحى وأن تطفئ الشعلة اللاهبة.

واخترت أهون الطريقين وهو العمل منفردا رغم علمى سلفا بفداحة الثمن، وقلة الجدوى أو انعدامها. فهذا العلم السابق لم يحد بى عن الطريق الذى اخترت قيد أنملة، لأن الإبحار مع التيار السائد تطبيق لمبدأ النفعية (البراجماتية) الذى أبغضه لتعبيره عن المنطق التجارى ونظرية العرض والطلب.

ومع ذلك فقد بقى دائما فى النفس هاجس متوارث من جذورى الريفية القدرية: أنه لا عمل طيب دون ثمرة يجنيها الآخرون الطيبون، ولو بعد أحقاب طوال. وربما كان إيمانى بهذا المعنى أو الأمل هو الدرع الواقية لى عندما تنزل بى المحن رغم مظهرى السوداوى أحيانا، وهو الذى عصمنى من السقوط بين براثن (العدمية) و(العبثية) وغيرهما من المذاهب التشاؤمية، ولعله أن يكون العلة التى يكمن وراءها طول عمر هذه التى أخرجتنى للحياة وورثتنى قدرتها الغريزية - كمصرية أصيلة- على الصمود والمقاومة، وطول عمرى حتى اليوم. وربما عبرت عن هذه النزعة التى تبدو أحيانا كأنها وهم ميتافيزيقى أو خرافى رغم انبثاقها من صميم حركة الصراع البشرى على المستوى الجمعى أكثر مما هى على المستوى الفردى إذ تلعب المصادفات القدرية فيه دورا كبيرا- عبرت عن هذه النزعة التفاؤلية التى تنظر إلى

الماضى بلمحة خاطفة، على حين تمارس الحاضر وتطيل النظرفى الآتى مستبشرة به بقصيدة شعر قصيرة أشبه بالمقطوعة أو الومضة، ضمنتها ديوانى (معزوفات الحارس السجين) بعنوان: (العودة):

ياحسرتا على العباد
ما يأتى من القرى مصدق
إلا افتروا .. كانوا به يستهزئون
حين رمونى بالجنون
لأننى مكذب
أيقنت أننى المقاتل الذى
ماعاد منصورا ولا شهيدا
لكنه ألقى ببذرة هناك
فى سواحل بعيدة
تنبت سروا .. فوقَهُ
نشد وغدا بصوت بلبلين
وثغر عاشقين
نعود منصورين
نعود منصورين

تصورت أن صدامى المتوقع بالحاج الثعلبى (العمدة) هو وجه أخر من وجوه الصراع الذى كانت الثورة تخوضه حينئذ مع الإقطاع والرأسمالية المستغلة بعد أن أصدرت القانون الأول ثم القانون الثانى للإصلاح الزراعى. ألست ممثلها فى القرى الثمانية التى تتألف منها النقطة؟ وهذا الرجل الذى ابتليت به قريته كما ابتليت .. أليس نموذجا للماضى العفن الذى فرض على الفلاحين الفقراء المضطهدين، وجاءت الثورة لاقتلاعه من جذوره؟ ولكنى اكتشفت تدريجيا أن القول غير الفعل، وأن استلال الحق من جوف الباطل المتلبس به دونه العذاب. قد يخرج الحق منتصرا، ولكنه دامى الجراح، وأن ذلك الخروج العسير سوف يستغرق أمداً طويلا لتغلغل الجذور فى باطن الأرض واختلاط الخير بالشر. ولما كان هذا الخير حديث العهد

بالحياة مثل نبتة خضراء وليدة، فإن استمراره فى الحياة ونموه سوف يظلان مهددين مالم يصلب عوده ويقوى على مجابهة رياح الشر القوية. وهو لن يكتسب هذه الصلابة وتلك المنعة مالم يكن له حُرّاس ثقاة.

وتلفت حولى فوجدتنى بلا أخ ولا معين، وفرض علىّ أن أقاوم بجهد فردى امبراطورية أفعوانية متعددة الأسلحة رأسها خفية عن العيون .. بعيدة بعيدة عن موقع الصدام، وذيلها فى القرية. وحين جاءت الساعة الفاصلة ووقعت الواقعة، سكت المستضعفون فى الأرض الذين جئت لنصرتهم ولكنهم عجزوا عن الوقوف معى .. كانوا جوعى مطحونين فكيف يقوون على الوقوف، أما الأقوياء الكبار - الرؤساء وأتباعهم - فقد وقفوا مع الأقوياء الصغار القدامى ذرية بعضها من بعض، رصيدها فى التآمر عريق، وباعها لايقصر عن الغاية التى تجمع بين الرؤوس والذيول فى سلة واحدة.

تكالب القوة على الضعف متمثلاً كان أمامى أينما توجهت وحيثما حللت .. ومازال يغشانى شبحه حتى فى أوقات المسرة .. جرح قديم تنكؤه كل هبة ريح .. فينطلق الموال الحزين فى قصائد الحب شجيا يعتصر القلب .... قالتها صغيرتى البرئية فى محنة سربها الأقوياء الصغار: «حكم القوى على الضعيف!!» وطالما غمغمت بها الأرملة العجوز وشفرة السكين تعتلى الرقبة ليركع الجسد كلما أبت الروح أن تخضع، اقتربت من تصوير هذا المعنى فى الأبيات الآتية من قصيدتى (على الشاطئ) فى ديوان (عيون منار):

تدفع الريح شراع الأقوياء
ويغوص الغرباء
فى قرار الموجة الأولى
ويغفوا الضعفاء
فى صناديق الضلوع المطفأه
واسطوانات الأغانى الصدئه

تمر مياه كثيرة تحت الجسور وتتقاطر السنوات، ويحزننى ألا أرى لى حيلة، كما

قال حفنى ناصف، فمازال التاريخ قابعا لايتحرك إلى الأمام والنيل ينحسر. كم تستمر هذه الوقفه فى المنعرج، هذا الارتداد؟ وأجدنى بعد ٢٨ عاما من رحلة القرية أقول فى قصيدتى المطولة (العودة) التى كتبتها فى ١٧ سبتمبر ١٩٨٣ بعد أن اكتحلت عيناى للمرة الثانية ـ بعد أفول نجم (ست) ـ بالرمد والرماد، وكنت أحترق شوقا وحنينا إلى الديار والنيل والأحباب، كعودة البارودى من منفاه، كليل العينين موهون الجسد:

ليس ماء النيل يا أخت دما

دمنا حال بأعناق غوانيهم يواقيت

وفى أجسام أشباه الغوانى ورما

دمنا حلٌ ودنياهم حرام

هؤلاء الأقوياء الجبناء

أم ترانا القادرين التعساء!!

انفتحت كل الجبهات دفعة واحدة إذ كان لابد من التخلص من الشر القادم مع رئيس النقطة الجديد، هذا المشاغب الذى جاء لتعكير صفو المياه التى تجرى بسلام لمستقرها منذ عشرات السنين، متصورا أنه سيصلح العالم!! السيارة التى جهزت بها شرطة المركز للانتقال إلى مواقع الحوادث الإجرامية تقل «الأضحية» هدية من العمدة للسيد المأمور إذ كان الزمن قبيل عيد الأضحى !! وما الغريب فى الأمر والأطفال ينتظرون فى لهفة مراسم العيد الكبير السعيد!! وددت لو كانت معى كاميرا فى ذلك الوقت لأصور الحدث الفريد.. فالحاج العمدة فى سباق مع الزمن لتعبئة قواه وشحذ أسلحته للمعركة التى قرر أن يخوضها حتى النصر، دون أن يضطر إلى الاستشهاد، ولأن أكليل النصر معقود بجبينه الوضاء كما تدل السوابق التاريخية وحاسة الشم المرهفة عند كلاب الصيد لم تخطئ مرة واحدة. الخيوط مجدولة بإحكام، ممتدة دون ثغرات حتى قلب النقطة. كنت قد اضطررت إلى نقل مكتب (البلوكامين) إلى غرفة مكتبى ليعمل تحت بصرى وسمعى، فانقطع بعض

رزقة، وكان لابد من التعويض. فربط حباله سراً بمركب الحاج العمدة، وتحول إلى (طابور خامس).

و(الحاج) محميٌ داخل قلعة شماء، وحين تتهاطل الأمطار تنفرج فوق رأسه عشرات المظلات المقدسة حتى لاتنزلق قدمه فى الأوحال. فهو عضو نشيط فى التنظيم السياسى الحاكم منذ هيئة التحرير حتى أخر (طبعة) مستحدثة منه.

فى صعيد مصر أيام العصر الملكى الملوكى كانت الأسرة الحاكمة فى القرية تتوارث المناصب المحلية الرئاسية فيما بينها، وتدع المناصب الأقل أهمية للأسر الأخرى تبعا للبنيان الهرمى العشائرى، توازن فولاذى محكم يكفل إقرار الأمر الواقع والنظام فى القرية، والويل لمن تسول له نفسه أن يخرج على القانون العرفى فدون ذلك الدم، وكأنه الشرف الرفيع.

وتولى هذا التنظيم الإدارى قسمة المناصب النيابية الشعبية بين الإخوة فى الأسرة الحاكمة، اذ ينتمى أحدهم إلى حزب الوفد، والآخر إلى الأحرار الدستوريين، والثالث إلى حزب السعديين مما يضمن تمثيل الأسرة بمجلس النواب، وربما مجلس الشيوخ أيضا فى أية حكومة تتولى السلطة بعد إجراء الانتخابات. وهكذا تقبض الأسرة من حديد على أعناق عمال الأرض وسائر الفئات فى القرية بجمعها بين السلطتين التنفذية والتشريعية فى كل العهود، كما تضمن ولاء الموظفين لها، فلاصوت يعلو فوق صوتها.

مدرع هـو بالمصاهرة والـفروسـية فى حلبة الجياد والـرجال الـراقصة، وبـالهـدايا وضعف العـاجزين وقوة القادريـن ... (بكتاب الموتى) والجـماجم ذات العيون الـناظرة الجـوفاء .. بـالصـمت الـعـام .. (مسيّس) عـلـى اخـتلاف الـعـصـور والـعـهـود .. (أتته الـرياسة منقـادة إليه تجرجـر أذيالها، فـلـم تك تصـلـح إلا له، ولم يك يصلـح إلا لـها) !! ذلك (الحـاج) العمدة الـذى يصلـح شـخصية كـاريكاتـورية لا تصـور مـن الواقـع مهـما أجاد مبدعها إلابعض جوانبه وصدق المتنبى:

وكم ذا بمصر من المضحكات ولكنه ضحك كالبكا

مدرع أنا بهم ... بالثياب الزرقاء المتهرئة مدجج بالظلال الطويلة والأشباح المحنية الظـهور فى الـعودة مـن (الغيطان) بين الـعمدة والـصراف والـخفير (ضـعف الطـالب والمطـلوب) .. بمـواويل الأنـين عبـر آلاف السـنين بين الـساقـية والـشادوف، بـين الدار المقبرة وتحت السقف الحظيرة تجمع شمل البنين والبنات والحيوان للمحظوظ منهم وترعة البلـهارسيا، والرحـيق والنواة ... مدرع بقوة الـقانون الغائب.. بـالثورة.. ثورة الشاعر الذى يسبح ضد التيار.

أعلـنت بيـننا حالـة اللاحرب والـلاسلم.. قـبلـناها كارهـين، إذ تكافأت الـكفتـان فى الميزان. الحرب نائمة لعن الله من أيقظها... هدنة من نوع خاص إذ تسبق القتال الذى لم يـبدأ.. الـتربـص سيـد الساحـة. والقـرية قـوقعـة صلبـة، سر مـغلـق، هـو ربّهـا وأنا الـغريـب الغريق فـى لجـجها الـعطشى.. بيـنى وبين الـنيل فراسـخ.. عمـيقة.. صفـحته الملساء التى أتدحرج عليها بلا قرار. مجـلسه هذا (الحاج) على الأريكة وثير بـالخشب المسندة، والـشقشقة من تنابـلة السلـطان ... تأويـل ولا علـم .. كهان القرية المـفتونون المُفْتُون والمشرعون ...

كان (شيشـرون) يملأ فمه بـالحصى والحجـارة ويؤم ساحل البحـر ثم يـخطب فى

الأمواج والهدير فيملأ رذاذه الآفاق .. عماد يدخر، ليوم يخدر فيه أهل روما بسحر البيان وفصاحة اللسان .. أشداق كهنة (الحاج) تلفظ الحصى والحجارة، وتتلمظ بالتمر والأعناب، رافعة أعناقها الغليظة إلى مقام رب النعم تطلب المزيد لتجوّد الترتيل والتأويل: «كى نسبحك كثيرا ونذكرك كثيرا، إنك كنت بنا بصيرا» والظلال والأشباح فى (داير الناحية) تقرئ الجميع السلام.

تنشق الأرض والسماء ذات ضحى موعود عن زائر من القوم، جاء للسلام والتعارف بالضابط الجديد، رجل من الأعيان مديد القامة، بشوش الطلعة ينم مظهره عن رقة المتحضرين. قدم لى نفسه على أنه مراسل صحفية الأهرام فى الناحية، وأنه يعلم أنى من رعايا مملكة الأدب.. وحسبه هذا منى، فليس له مصالح يبغى قضاءها (بالنقطة) فهو مستور ولله الحمد بما أفاءه سبحانه عليه من رزق قليل ولكنه يكفيه: أرض زراعية لا تتجاوز بضعة فدادين وبيت صغير تحوطة حديقة متواضعه تغنيه عن مجلس العمدة. لم يذكر أنه ابن عم الحاج العمدة، ولكنى عرفت ذلك من الجندى (المراسلة) الذى أنبأنى بحضوره ومن لقبه. رحمه الله .. علمت من جريدة (الوفيات) التى كان يراسلها هذا النبأ الفاجع منذ سنوات وسنوات بعد فراقى العمل بالريف بزمن طويل، وكم تحسرت ولاسيما بعد أن قارنت بينه وبين ابن عمه طويل العمر، وربما تذكرت ذلك فى الصباح الحزين قول الشاعر القديم:

(والموت نقّاد على كفة جواهر يختار منها الجياد).

أدركت أنه لا يضمر ودا للحاج وإن لم يطلق لسانه فيه، إذ كانت الإشارة أو الصمت تغنى، ولعل القطيعة، بل من المؤكد هى التى وصلت بينهما، إذ كانا– كما تبينت بعد زيارتى إياه فى بيته وما يشبه الصداقة التى انعقدت بيننا– على طرفى نقيض.

وكانت تلك الزيارة التى نعمت بها حينا قليلا عونا لى على رحلة المعاناة بين من لم أخلق لصحبتهم، والشقاء يجبر المرء على إلف من لاتحبه النفس ومن يلفظ الضمير.. واحة فى صحراء موحشة ترفضنى وأرفضها أفاعيها. والأهم من ذلك أنها كانت مفتاحا على خفايا كثيرة. رحمه الله ما كان أكرم نفسه لولا حرج بالغ أوقعنى فيه ذات يوم دخلت فيه جنينته التى كانت البيت الوحيد الذى فتح لى أبوابه دون مَنّ

ولا تجارة، أستثنى من ذلك دير الرهبان بتلك القرية، ولعل سوء حظى وحده هو المسئول عن ذلك الحرج.

مازالت الذاكرة تحتفظ فى ركن من صندوقها المغلق بصفو الليلات القليلة التى أمضيتها فى ذلك الدير العتيق فى بلدة طوخ، دلكه مقر نقطة الشرطة.. لم تكن زياراتى على نهج الحسن بن هانى (أبى نواس) فى مغامراته بأرياض البصرة وفى سوق بغداد، بحثا عن (ألحان الحان) فى الأديرة التى اشتق منها أهل اللغة مصطلح (الديّارات) لإطلاقه على الأدب الذى كتب عن هذه الأديرة وتاريخها وروادها، بل كانت تلك الزيارات طلبا للترويح عن القلب الشريد، ورغبة فى اكتشاف عالم جديد لم أعرفه إلا فى بطون الكتب، ولاسيما فى الفترة التى صاحبت فيها ومعى رفيق الشباب الأستاذ محمد محمود حمدان الأديب الشاعر الراحل عبد الرحمن صدقى وهو يصنف كتابه القيم عن أبى نواس.

سبقتنى إلى الدير مكالمة تلفونية أجاب عليها سكرتير كبير الرهبان أن رئيسه فى انتظارى، وأنه مرحب بزيارتى سعيد بها. وحين التقيت بالرجل أحسست بمعنى إنسانى فى شخصيته قريب من صفاء النفس وطهارة الروح، لحيته الرمادية الكثة التى تنسدل حتى وسط صدره، ولباسه الدينى الأسود كانا يخفيان تلك البساطة التى يتسم بها، أو هكذا خيل إلى. كانت الغرفة تغص بالكتب والمجلدات، وما أسرع ما أفضى بنا الحديث إلى الفكر الدينى وفلسفته. وتلاقينا رغم الاختلاف الدينى، وأكبرت فيه روحه الإنسانية، واتساع الأفق وحفظه آيات من القرآن. ولاشك أن أول انطباع لمن كان يرانا أول مرة أننا صديقان حميمان وإن كنا لم نلتق ونتعارف إلا منذ دقائق. إنها عظمة الإنسان فى تقديس الفكر ونبذ التعصب. وكثر ترددى على الراهب الإنسان حتى كانت تلك الواقعة التى أكدت رأيى وشعورى نحوه، ووثقت بيننا العلاقة التى أتمنى اليوم لو استعدتها من ذلك الماضى البعيد.

ففى ضحى يوم من تلك الأيام التى جمعتنى بصديقى الأوحد المراسل الصحفى فى بيته مد لى يده بورقه قال إنها رسالة بلغته أخيرا من صديق قديم وأنها تعنينى أكثر مما تعنيه. وكانت المفاجأة التى لم أظن يوما أنها تحدث فى الواقع رسالة إليه من

اميرالاى الشرطة المتقاعد (محمود عبد المجيد) الذى يعرفه مذ كان هذا الضابط رئيساً للنقطة قبل نحو عشرين عاما، ينبئه فيها بإبلاغ رئيس تلك النقطة أن مجرما محكوما عليه بالأشغال الشاقة المؤبدة وهاربا من وجه العدالة يتردد على الكنائس والأديرة ومنها دير البلدة، متشحا بالزى الكهنوتى، مدعيا أنه بائع للكتب الدينية. وهو يبيت فى تلك الأديرة متسترا متنكرا. وقد أرفقت بالرسالة ورقة من الجازيتة (النشرة) البوليسية التى تذاع على الوحدات الشرطية للقبض على المجرمين الفارين المدونة على صفحاتها أسماؤهم وأوصافهم وصورهم والأحكام الصادرة عليهم.

أدركت سوء حظ هذا الهارب بل سوء حظى إذ أوقعنى القدر فى طريقه وأوقعه فى طريقى قبل شهور قليلة من تاريخ سقوط الحكم. مدرس للغة الانجليزية بإحدى مدارس الصعيد الحكومية الثانوية، مسيحى الديانة، أعزب يقيم فى فندق (بالبندر)، ويتردد عليه بعض الطلبة والطالبات لتلقى (دروس خصوصية). وينقض وحش السعار الجنسى على فتاة برئية من تلاميذه، ويكتم المدرس أنفاسها مخافة الفضيحة حين همت بالصراخ، فتقع جثة هامدة بين يديه. ومنذ ذلك اليوم المشئوم الذى ولى فيه هاربا وهو مايزال يهيم على وجهه شريدا فى الوجهين القبلى والبحرى.

ها أنذا أعترف اليوم أنى ماوددت قط حينئذ أن تكون نهايته المأساوية على يدى بالقبض عليه وإعادة إجراءات محاكمته وتوقيع العقوبة عليه، كأنما لم يكفه كل هذا العذاب الذى عاناه والذى كان تنفيذ الحكم عليه لو أنه وقع فى أيدى الشرطة أهون منه.. إنه إنسان آخر اليوم .. كهل محطم يصحو ويبيت فى جحيم الخوف والمطاردة. ويُقتل فى اليوم الواحد بل فى كل لحظة ألف مرة .. لم تغمض لى عين تلك الليلة وعرفت أى محنة أو لعنة حقت على شاعر كتب عليه أن يتعاطى مهنة قاسية تناقض طبعه، وأن عليه أن يجيدها احتراما لنفسة وأداء لواجب ثقيل لا مفر منه. إنه الخيار الصعب بين العدل وبين الرحمة بين الضمير المهنى وبين الحس الإنسانى.

شعرت بتعاطف مع المجرم الهارب، وتدافعت إلى خاطرى موجات من الأفكار التى تشبه الوساوس مما درسته من نظريات الدفاع الاجتماعى وشرعية القصاص

ومعادلة الجريمة والعقاب. وتصورت نفسى أو بعض من أحب فى موقف هذا المعلم الجانى التعيس. ولاح لى شبح الفتاة القتيل .. الضمير والواجب.. فلسفات الجبر والاختيار.. خشيت أن أهوى إلى حافة الجنون. مثاليتى القديمة تطاردنى والواقع المريطاردنى فأين منهما المفر؟ وربما تذكرت بيت أبى ماضى:

خلت أنى أصبحت فى القفر وحدى فإذا الناس كلهم فى إهابى!!

فى صباح اليوم التالى أمرت الجندى الموكل بالبحث والتحرى وهو نفسه الذى يعمل (مراسلة) لى بعد أن أطلعته على صورة المجرم الهارب فى (الجازيتة) أن يراقب- فى ذهابه إلى البندر وعودته- ركاب سيارات الأجرة التى تغدو وتروح بين القرية وبين المدنية، فلعله يظفر بالرجل فينهض بواجبه ويظفر بمكافأة. أما أنا فلم أبغض فى حياتى شيئا مثل تلك المكافاة إذا ما قدر لى أن أحصل عليها.. مكافأة ملعونة!!

فى المساء قادتنى خطاى إلى الدير.. قلت لكبير الرهبان: «هل تصدقنى- بما بيننا من ود وثقه- فى أمر يهمنى إذا عرضته عليك رغم دقته وحساسته بالنسبة لوضعك الدينى؟ «ووعدنى أن يكون عند حسن ظنى. فأطلعته على الأمر. ولم يتحرج لحظة فى إخبارى أن رجلا بمثل الأوصاف التى ذكرت قد ألم بالدير منذ بضعة أسابيع وقضى فيه عدة ليال ثم انصرف ولم يعد بعدها. وتعهد بإخطارى تليفونيا إذا عاد هذا البائس المشرد لأتخذ الإجراء القانونى الذى يمليه علىّ واجبى. وكان رئيس الدير حريصا على بث الطمأنينة فى نفسى بعد أن أدرك دقة موقفى وثقتى فيه. ولكن الرياح جرت على ما اشتهيت فلم أتلق منه تلك المكالمة المنشودة، كما لم تسفر متابعة الجندى مصطفى عما كنت أبغى أو لا أبغى.

مضت الأيام والشهور بطيئة ثقيلة فى انتظار الذى يأتى ولا يأتى، أعنى نقلى إلى القاهرة حتى فارقت (نقطة الشرطة) إلى غيرها بعد أشهر قليلة. ولا أعلم حتى اليوم ما الذى جرت به المقادير. ولكن الذى مازال حيا فى ذاكرتى النفسية هو الأثر الذى خلفه القرار الصادر من وزارة الداخلية بنقلى إلى القاهرة، إذ تنفست الصعداء كما لو كان حجر ثقيل قد انزاح عن صدرى، فلقد تحقق ما كنت أتمناه بينى وبين

نفسـى، وهو ملاقاة المحكوم عليه الهارب مصيره المحتوم بيد عمرو لا بـيدى. عبء آخر ألقيته عن ضميرى حين أفضيت بالأمر كله- قبل مغادرتى النقطة- إلى ضابط مباحث المركز محملا إياه المسئولية مبرئا نفسى.

وخلال لحظات التنازع بين العاطفة المشتعلة والضمير المهنى البارد كان ينتابنى شعور بالتقدير أو بالشفقة لست أدرى حيال هذا الضابط الكبير القديم الذى كان مجرد ذكر اسمه كافيا لإرهاب الخارجين على القانون وإعلاء مكانة الشرطة، حتى كاد يتحول إلى (شارلوك هولمز) المخبر الأسطورى الذى طالما أثارت مغامراته خيال جيلنا على عهد الدراسة الثانوية فى سنواتها الأولى فى الأربعينات، وإن لم أتطلع مرة واحدة إلى أن أكون (مفتش مباحث) عبقريا مثله، وربما طارت بنا أحلام المراهقة حينئذ فسحرتنا شخصية (أرسين لوبين) و(روبن هود) الذى يأخذ من الأغنياء ليعطى الفقراء. فكنا نتهافت على (روايات الجيب) غير باخلين بقروشنا القليلة. ولم أكن قد عرفت فى ذلك الحين أن شاعر الصعاليك العبقرى عروة بن الورد كان يقتسم ما يظفر به من الاغنياء مع الفقراء، وأنه القائل :

أقسم جسمى فى جسوم كثيرة

الأميرالاى محمود عبد المجيد هذا الرجل الذى عرف بحاسته المرهفة فى كشف الجرائم الغامضة مذ تولى إدارة المباحث الجنائية يوم كان هذا الجهاز يفتقد الوسائل والأساليب المادية والفنية المتطورة، ويعتمد على الذكاء الشخصى للمحقق والباحث فى مجال مكافحة الجريمة. لقد حوكم الرجل فى عصر الثورة عن جريمة ارتكبها فى أواخر عصر الملكية سنة ١٩٤٩ وهى تدبير قتل رجل له شأنه وهو المرحوم حسن البنا مرشد الإخوان المسلمين وصدر الحكم بتجريمه وسجنه. ولم أكن لأتصور أنه يحرص على ممارسة مهنتة بعد قضائه مدة العقوبة أو بعضها وإقصائه من الحياة العامة حرصا يبلغ مرتبة التفانى. إنه عشق المهنة الذى لايفتر مهما جلبت هذه المهنة على صاحبها من متاعب، عشق النعيم الشقاء ! ! غيره ينسلخ فى هدوء أو ألم من ردائه وينتابه إحساس طاغ بفقد أعظم مايملك ويميز شخصيته فقدا لايعوضه شئ،

ويفيء إلى حياة مدنية هادئة رتيبة بعد عز السلطة وجبروتها، فيعكف على تلاوة القرآن والأوراد لينجو من عذاب الآخرة وقد يختم حياته بأداء فريضة الحج.

مثله يستبد به بعد التقاعد ذلك الشعور المرير بفقد أساس وجوده بل علته، فيعيش بقية عمره غير مصدق أن تلك النهاية الكئيبة هى مآله، وذلك على الرغم من تلك اللافتة التى طالما رأيتها معلقة فوق الرؤوس الكبيرة وهى فى عز الظهيرة (لو دامت لغيرك ما وصلت إليك)، ولكنها لافتة خشبية أو نحاسية مثل كل اللافتات، وكم ذا بمصر من اللافتات. إنه يحس أن حياته غدت بلا معنى حين انتهى دوره على المسرح الكبير، وأن العوض هو المستحيل. وقد يصبح هذا النموذج الشائع بطلا تشكوفيا أو سرفانتيسيا.

وهكذا كانت مطاردة المجرمين الفارين عند الرجل حتى آخر قطرة من ينبوع العمر المتسرب هى الفريضة التى لا مفر من أدائها ليحتمل الحياة، ويخلع عليها دلالة وقيمة وإن حمل فوق كاهله عبء السبعين. هذا النمط من الناس له منطقه الخاص، ولله فى خلقه شئون، منطقه أو فلسفته أن يرتفع بالمهنة فوق المحنة التى ولدتها، أو فوق الجريمة التى ارتكبها وهو يحسبها من صميم خصائص تلك المهنة التابعة كما عبر عنها قديما ذلك المعجمى الشهير.

فجأة تكشف الصمت المخيم عن إعصار عتيّ حين واتت (الحاج) فرصة العمر، وهو قابع كالأفعى فى مكمنه متحينا لمثل هذه الفرصة متربصا بى الدوائر، لينتقم من الأمر الذى أصدرته إلى الخفراء الثلاثة الذين يعملون فى زراعته بالانتظام فى عملهم الحكومى الذى يتقاضون مرتباتهم لقاء قيامهم به، وعينت لهم دركات (مناطق سكنية) لحراستها ليلا بالسلاح، شأنهم فى ذلك شأن سائر الخفراء. وكان وقع مافعلت شديدا على العمدة لا لما ينطوى عليه من مس بسلطانه التقليدى وتجريده من نفوذه فى أعين أهل القرية فحسب، وإنما للخسارة المادية التى حاقت به أيضا، إذ كان هؤلاء الخفراء يوفرون له ما يدفعه من أجر يومى لعمال يحرثون له الأرض أو يجمعون له ثمارها من البطاطس التى اشتهرت هذه المنطقة بزراعتها. فهو يجنى والحكومة تدفع. لم ينته عصر السخرة إذن ولاصدرت قوانين تحقق العدالة الاجتماعية وتحمى الصغار من استغلال كبار ملاكى الأراضى الزراعية وتقلم من أظفار الإقطاعين.

أردت من ناحية أخرى أن أرفع من شأن نقطة الشرطة التى كانت أشبه (بخيال المقاته) أو أضل سبيلا بالقياس إلى قوة (العمدية). هى الشكل والعمدية الفعل، أردت أن أنفخ من روح الثورة فى الهيكل الأصم.. وهكذا اشتعلت النار حين عاد إلى النقطة خفيران كنت قد كلفتهما بضبط شابين هاربين من القرعة (التجنيد).. عادا خائبين مجرّحين يشكوان اعتداء هذين الهاربين وأهلهما عليهما بالضرب والإهانة فأعدتهما من حيث جاءا يؤازرهما جنديان لضبط الجناة والا تداعت أعمدة النقطة وانهارت على رؤوس أصحابها فلاتقوم لها بعدئذ قائمة ويفقد رئيسها مبرر وجوده وكرامة وظيفته وشخصيته.

وفى منتصف الليل– وكان المعتديان على الخفيرين قد ضُبطا، وأودعا غرفة

(الحجز)- تعالت من هذه الغرفة صيحات تجاوبها صرخات وولولة نساء تحت جدار النقطة من الخارج .. قامت القيامة إذن.. وأدركت أبعاد المؤامرة التى حيكت خيوطها بحذق.. لمحت نظرات الخوف والقلق فى عيون الجند، إذ بعثت من مرقدها خرافة القوة الخارقة التى يملكها (الحاج) فلا يستطيع أحد أن يقف فى وجهه.. نهضت من مرقدى على (الكنبة) وقصدت الحجز. كنت قد فتحت محضر تحقيق ضمنته أقوال الخفيرين المصابين والمتهمين وأحلت الأولين على الكشف الطبى لمعاينة إصاباتهما وأسبابها وتقدير مدة العلاج. سألت الجندى الحارس عن علة صياح المحجوزين، فأجاب أن أحدهما يشكو مغصا حادا يتلوى منه. لم أستطع أن أجزم حقيقة الأمر، ورجحت أن ثمة مكيدة مدبرة من العمدة، وأنه حرض أهل المتهمين على افتعال واقعة اعتداء جنود النقطة بتحريضى على ولديهما، فكان الصراخ والعويل من النسوة لإثارة أهل القرية ضد الضابط الجديد واستعداء رؤسائه عليه.

عبثا حاولت إقناع بعض هؤلاء ممن أرسلت فى طلبهم أن الإجراءات التى أخذتها قانونية، وأننى سأرسل المتهمين صباح اليوم التالى إلى النيابه فى البندر لتقرر ما ترى فى شأن اتهامهما بالاعتداء على خفيرين نظاميين أثناء قيامهما بأعباء وظيفتهما، ولم يكف المحجوز عن التأوه ورفض الحديث، وتزايدت الجموع خلف مبنى النقطة وبدأ الخطر يطل برأسه. لقد استيقظت القرية النائمة فجأة وفتحت عينيها على الصياح والنواح اللذين يليقان بجناية قتل أو حريق.

وقبلت التحدى مرة أخرى إذ كان على أن أختار التمسك بالإجراء القانونى الذى اتخذته مع ما يحمله من محاذير أشدها احتمال تدهور حالة الفتى المحجوز مما قد يؤدى إلى موته، فلم يكن ثمة طبيب بالقرية فى تلك الليلة كما تبينت، وفى هذا الاختيار إبقاء على هيبة النقطة وكرامتى فى نفس الوقت. أما الاختيار الثانى فهو إطلاق سراح المتهمين، ومن ثم ينهار ما أردت وشرعت فى بنائه، وهو إعادة القوة والاختصاص إلى النقطة، فتعود للعمدة سطوته بل تزداد شراسته وشراهته.

مرت بى لحظات قلق وتوتر شديدين فى تلك الليلة التى بدت كأنها لن يطلع لها فجر، وتجلدت ولاسيما بعد أن قاربت على اليقين من أن الأمر كله حرب أعصاب

ينتصر فيها الأقوى نفسياً، فالمبالغة فى الصراخ كلما اقتربت أو اقترب أحد الجنود من الفتى المتماوت، وتجاوب أخيه معه كأنما ليحثه على إتقان دوره حتى النهاية، وكذلك جنوحه إلى الكف عن صياحه كلما تعب، وماكان يصحب هذه المهادنة الصوتية من تزايد الصرخات الخارجية كأنما هى أعواد من الحطب تلقم بها فم النار كلما آذنت على الانطفاء، وامتناع أى رجل من القرية قد يعرف مبادئ التمريض عن تلبية دعوتى للكشف على المتهم- أكد لى كل ذلك أن احتمال الادعاء والتصنع أقوى من احتمال المرض المفاجئ، وأن أصابع الرجل الحاقد الشرير وراء هذا التدبير، وأن الهدف هو اتهامى والجند بالاعتداء ضربا على الشابين.

على أن التوتر الذى انتابنى كان وراءه أمر آخر أشد خطرا، ذلك أن المتهمين كانا مسيحيين وكان نصف القرية مسلمين والنصف الآخر مسيحيين. فهى إذن فرصة العمر التى لن يفلتها (الحاج) الموتور، أن أظهر أمام الرأى العام المحلى وأمام المأمور والمدير الذى يكن لى ودا مفقودا، وأمام الثورة التى جاءت للتطهير وللوحدة الوطنية بمظهر المخرب المثير للفتنة الطائفية!

وعقب منتصف الليل اتصل بى مأمور المركز تلفونيا يسألنى عما نما إلى علمه من ظروف ذلك الحدث الخطير. فقد انهالت عليه البرقيات وأُرسل مثلها إلى المديرية وإلى الوزارة وربما إلى جهات أعلى فى سلك الدولة. لقد صدقت توقعاتى فى شأن اليد الخفية المحركة.. يد تستحق البتر ولكنها تجد من يعضدها ويطيلها. وأمرنى المأمور بإخلاء سبيل المتهمين، فكان ردى أن ذلك من شأنه أن يحرض الأشرار على استمرار العدوان والاستخفاف برجال الأمن وهو أولهم وأكبرهم، وأن موقفه لاينبغى أن يختلف عن موقفى طالما أقف فى صف القانون. قال إنه أخ أكبر وأنه ينصحنى إشفاقا على من النتائج الوخيمة.. ولم يكن لدى شك أن العمدة هو الذى أوعز إلى آخرين بإبلاغ المركز والاتصال بالمأمور إن لم يكن هو نفسه الذى حدثه تليفونيا.

وأطل صباح كأنما لم تسفر عنه شمس، إذ تساوى مع الليلة فى ظلامها ولم يكن أقل منها بؤسا. ففى الوقت الذى بعثت بالمتهمين يصحبهما حارس إلى المركز كان فى الطريق من الوزارة إلى النقطة أحد مفتيشى الداخلية الذين لاينتقلون من

مواقعهم إلا فى الحوادث الجسام. لقد تصورت الوزارة مما بلغها من برقيات أن هناك فتنة طائفية بمقر النقطة، وأن الضابط متورط فيها مما سوف يؤثر فى (سلامة الجبهة الداخليه)!! هذه الجبهة التى كثيرا ما ارتكبت جرائم القمع والتعذيب وتلفيق التهم للوطنيين الأحرار الشرفاء باسمها.

ولكم كان العمدة سخيا وجواداً، فقد تحققت أنه تحمل أجر كل تلك البرقيات المتقاطرة كالسيل، وجمع حوله بعض المخدوعين أو الانتهازيين وأغراهم بمال شربوا به خمرا ثم قسموا بينهم العمل طبقا لمخططه، فريق يسارع إلى (مكتب التلغراف) بالبندر، وآخر للإحاطة بالنقطة، وتحريض أهل المتهمين ولاسيما النسوة على الندب واللطم والنشيج الجنائزى.

كان لامفر من توجهى إلى المركز كى أقطع على المتآمرين تدبيرهم استغلالا لغيابى بعيدا فى نقطة الشرطة. وهنالك حشدت الرأى العام من زملائى الضباط دفاعا عن حق لا انتصارا لباطل. وبدأت خيوط المؤامرة تنكشف إذ وجدنا العمدة قد سبقنى إلى مكتب المأمور، وقد فوجئ بدخولى عليهما فكف عن الكلام، وما لبث إلا قليلا حتى انصرف رغم ما كان له من دالة على رئيسى العزيز!! شرحت حقيقة الموقف للمأمور وما للعمدة من ضلع فيه، ولكنه بدا متخاذلا وقال إن الأمر بيد النيابة. واتصلت عن طريق زميل بمفتش الصحة ليكتب تقريرا بالحقيقة، وكذلك بالمستشفى الذى أحال إليه وكيل النيابة المتهم الذى ادعى أنى ومعى جنديان قد اعتدينا عليه وعلى أخيه بالضرب المبرح، فأسفر التحقيق والكشف الطبى عن كذب الادعاء..

أما التحقيق الذى أجراه معى مفتش الداخلية فقد استشهدت فيه برجال الدين وعلى رأسهم القس وكبير الرهبان فكانوا عند حسن الظن، إذ لم ينطق كلا الرجلين عن غير الحقيقة، وقال ثناء مستطابا بل اكد أنهما لم يشاهدا ضابطا بمثل هذا التسامح ومعاملة الجميع سواء، وأن الذين بعثوا بالبرقيات من العناصر المنحرفة المعروفة بالتبذل وسوء الخلق وبيع الذمة. ولم أشأ أن أتهم العمدة صراحة بالتحريض لصعوبة اعتراف من أغراهم من حثالة القرية بذلك ولأننى أردت طى هذا الملف، ويكفى ما نال العمدة من خيبة وخسران ومن فضيحة أمام الرأى العام.

تنفست الصعداء بعد أن خمد الحريق. أما الأفعى التى رمتنى بدائها فلم تستطع الانسلال، فبدأت تغير جلدها بعد أن أعيتها الحيل وجنت على نفسها حين كادت أن تخنقها الحبال التى جاهدت طويلا فى نسجها لتصنع منها شراكا خداعية لى. ولم يعد القرويون المساكين يقدمون مطالبهم وشكاواهم ضد بعضهم البعض إلى دار العمدية بعد أن تضعضع نفوذ الحاج، وكاد أن يصبح بلا حول ولا طول ولاسيما بعد تجريده من الخفراء.. وربما فتر استقبال معظم ضباط المركز له وتظاهرهم- مجاملة- بالتجاوب مع نوادره ومفاخرته وصلاته بأهل الحل والعقد حين كان يلم بالمركز حينا بعد حين، ويضطجع مسرورا محبورا مقرورا أو قريرا على أرائك (البيك المأمور) رافعا (الكلفة) بينه وبينه أمام الأعيان والأهلين ليسمو فى أنظارهم فتكثر مغانمه وغنائمه وتسمن بقراته وتتكاثر هى أيضا.

وتقاطرت وفود الأعيان وعمد البلاد المجاورة التابعة للنقطة ومشايخها تستشفع للحاج فالمسامح كريم. وأخذت النقطة زخرفها وزينت، فقد آن لها وهى الدار العتيدة التى أخنى عليها الدهر منذ أن استأجرتها الحكومة من عم حنا، وكانت جزءا من منزله الهرم، هذا العجوز الطيب الذى انعم على يوما بحماره لأمتطيه حين عزت على وسيلة مواصلات أو جواد للانتقال إلى موقع حادثة لضبطها، ولست بناس جميله أبد الدهر، فماذا كنت أصنع لولا دابته الطيعة وكرمه الريفى الأصيل .. أن للنقطة أن ترفع رأسها بين علية القوم وأدناهم، وأن لأفراد قوتها أن «يلمعوا» زراير أرديتهم الرسمية، وللخفراء ان يصطفوا فى سراويلهم الطويلة الفضفاضة لاستقبال الأعيان ورؤية الحاج الذى أقبل إليهم للمرة الثانية فى إهاب غير ما ألفوه من قبل، إهاب العزيز الذى أحنى رأسه للعاصفة واستسلم للأمر الواقع الذى طالما أخضعه لأمره هذا الأفعوان الألعبان الحسيب النسيب الذى طالما تباهى- كى يفرض ويعزز نفوذه وتحقيق مآربه فوق أعناق أهل القرية الفقراء- بأنه ابن عمة أنور السادات وصديق حسين الشافعى عضو مجلس الثورة، وأنه رفيق الثانى فى ألعاب فروسية الخيل.

(١٠)

جرت الرياح هنية لينة بعد أن ابتلع اليم سفينة الإفك والطاغوت. وما كان فى وسع (الحاج) أن يغامر بالتآمر من جديد بعد أن (ركب أعلى خيله) فلم تغن عنه شيئا. بل كان فى حاجة إلى التخلى عن دوره على المسرح حينا ريثما ينسى الناس عقبى صراعه معى، وما جره عليه من وبال وسوف يظل يذوق مرارته ويضرس بنواته الصلبة التى ازدردها حتى نهاية مقامى ببلدته. ومضت الأيام والليالى دون أن يظهر لحسن الطالع أثر للمدرس القاتل القتيل واستمر ترددى على الدير والسؤال عنه فى كل زيارة، وأنا أكاد أكتم اسماعى فى انتظار كلمة فاصلة من الراهب كأن مصيرى معلق بها، أو كأنى أنا المحكوم عليه الذى يخشى أن يضبط فيقضى عليه بالإعدام أو بالأشغال الشاقة المؤبدة عن خطأ قاتل فى لحظة طيش غيب فيها العقل. كما لم تنقطع زياراتى للرجل الفاضل مراسل الأهرام.

وندر وقوع الحوادث الإجرامية، فلم تقع غير سرقات معدودة ضبط مرتكبوها. جناية قتل واحدة عكرت صفو الأمن العام ولم يعرف الجانى ولا الباعث على الجريمة رغم ما بذل من جهود فى التحرى شاركتى فيها ضابط مباحث المركز ومازلت حتى اليوم أتذكر فى حزن العاجز الخائب الحيلة بشاعة الجريمة إذ كانت وسيلة القتل (بلطة) هشمت الرأس من خلف. وكان القتيل أعزب يعيش وحده فى بيت ريفى صغير متداعى البنيان يكاد لايصلح لسكنى إنسان على غرار الأغلبية العظمى من بيوت القرية، ولم يكن له عصبية (أهل) ولا حرفة يعرف بها ولعله كان من المشتبه فيهم غير المسجلين فى دفاتر الشرطة، إذ كان كل مانما إلينا من معلومات عنه أنه سئ السلوك يمضى ليلته مع آخرين على شاكلته فى المقامرة والشراب. وكانت بقايا ما خلفه فى آخر ليلة من عمره تشهد بذلك، ولاشك أن القاتل من بين رفقاء السوء هؤلاء وأن الجريمة قد وقعت بدافع الاختلاف بينهم وبين الضحية. وقد احتجزت

ذوى السيرة المعوجة فى الناحية واستجوبتهم ولم أصل إلى نتيجة تكشف اللثام عن هذه الجناية الغامضة.

واليوم إذ تتقدم بى السن وتتأخر الصحة أحسد نفسى على أنى مازلت فوق الأرض فى عداد الأحياء رغم قسوة الظروف التى مرت بى، فى حين تغرب شمس رفقاء الشباب الذين عاشوا حياة هادئة واحدا بعد الآخر. فاليوم الواحد فى حياة ضابط الشرطة المختال نشوة بنفسه وبرتبته ومنصبه أيام وشهور بما يبذل من جهد جهيد. إذا كان يمتلك ضميرا مهنيا، فكيف بمثلى الذى مارس تلك المهنة الشاقة بحس وطنى وشعور إنسانى ينتمى به إلى من شرعت الشرطة لاكراههم على القيود القانونية أو الأمنية. كان العام الذى أمضيته فى النقطة معادلا لأعوام، ففيه تلقيت دروسا من المعاناة والقهر والتحدى لاتنسى. غريب فى زى غريب كما قال يوما الصديق الأديب البخارى.

على ظهور الجياد الشرسة غير المروضة كنت أقوم (بالدوريات) فى الليل القارس البهيم، عن يمينى وشمالى جنديان من رجال (السوارى)كهلان فى الأغلب الأعم ربما لم يتناولا كفايتهما من الطعام والنوم. لم أتخلف عن هذا الواجب مرة واحدة فى حين كان يتخلف غيرى مرات ومرات اتقاء للظلام والبرد والوحدة الكئيبة فى البرارى، ولم يكن الليل والخيل والبيداء تعرفنى كما عرفت المتنبى قديما. فلم أكن فارسا محاربا ينشد المجد، بل كنت سجانا سجينا وعازفا مجهولا. ومن ثم غدا الجواد والجندى (السوارى) والسكون الموحش فى الظلماء رموزا لحياتى ومفردات تتردد فى لغة قرطاسى وقلمى .. وتلك كانت المشيئة التى لم أخترها وإنما هى التى اختارتنى، مكرها كنت لابطل.

(الساهرون والناس نيام) ليس مجرد شعار للشرطة تزد ان به نشراتها، بل هو حقيقة يعرفها أهل الريف بصفة خاصة، إذ يشهد الرجال الذين يخرجون إلى الحقول ليلا أو فجرا ليرووها بالماء والعرق تلك الكوكبة من الفرسان فى زيهم المميز يجوبون الدروب الملتوية الضيقة والغبار يتناثر من وقع سنابك الخيل كما تغوص قوائمها فى الأرض المروية أحيانا. وقد أحببت ركوب الجياد وكانت الرياضة الوحيدة

التى عشقتها وإتقنتها بعد تعثر فى البدايات على عهد التدريب بكلية الشرطة. وإنى لأتذكر اليوم بعد هذه السنين الطوال طابع الجدية والصرامة الذى يتميز به هذا الواجب الشرطى والمهابة التى يشعلها الركب من حوله، كأنه جيش من النسور يبسط جناحيه العريضين مطلا من عليائه على الكادحين فوق التراب خالعا عليهم ثوب السكينة والأمان.

ولكنى لا أنسى أيضا منظر شواهد القبور المتناثرة المحفوفة بالأساطير التى تعمر فراغ الذاكرة الريفية الساذجة فى رقعة ضيقة من الأرض على جانب الطريق وبين الحقول، كأنها تعلن عن العناق الأبدى بين الحياة والموت.

ورغم اعتيادى هذا المنظر الكابى فإن إحساسى بالوجوم وانقباض النفس والوحشة لم يفتر وهو إحساس لم يرد فى قصائدى وظل مكبوتا فى كهف اللاوعى. هو يطفو اليوم أول مرة. وربما كان وراء انزواء نفورى واكتئابى فى ذلك الجب العميق دون التعبير عنهما مرجعه إلى مقاومتى ومطاردتى لهاجس الموت، أو إلى استبدال تصوير بيوت القرويين البائسة بتصوير مقابرهم، فما الفرق؟ والوجود والعدم سيان وربما الموت أهون. كان شبح القبر محور قصيدة من أوائل أشعارى، إذ كتبتها فى مرحلة الدراسة الثانوية فى ساعة يأس واغتراب، وقد فكرت فى ذلك الوقت لأول وآخر مرة فى الانتحار. كان عنوان تلك القصيدة (حفار قبرى) ولعلى كنت متأثراً بشكسبير فى إحدى رواياته الدرامية (هاملت) وورد ذكر المقابر فى شعرى مرة أخرى بعد ثلاثين عاما بقصيدة (الجبل) التى تدور حول الثأر كظاهرة اجتماعية تقليدية تنتشر فى الريف المصرى حيث التركيب الطبقى والعشائرى وإفرازاته فى العصر الإقطاعى ثم فى عصر البرجوازية الطفيلية ودور الشرطة فى مكافحتها.

لقد ضيعت القصيدة الأولى التى طالما رددتها فى نفسى قديما، غير أنى مازلت أذكر مقاطعها الأولى:

حفار قبرى فى الغيوب   ما كنت عن عينى تغيب
متيقنـــا لا أستريب   أنــى قــريب مـن قــريب

ooo

فى كل خطو لاح قبرى ووقفت أنت حيال قبرى
متوفزا تسعى لأمر يهفوله قلبى الكئيب

أما قصيدة (الجبل) وقد تضمنها ديوانى: (معزوفات الحارس السجين) بعد سنوات من كتابتها، فإن المقبرة الجماعية والكتابات الثارية المسطورة عليها والأكفان التى لفت فيها جثث القتلى فى حوادث الصعيد الثارية تطل على الأحياء لتثير المواجد والغرائز الوحشية الدفينة كما يطل (عسكر الأمير) على ليل (دشنا) القرية الترابية الدموية المنزوية على هامش الوجود الحى يميتها الحرمان من أدنى مطالب العيش، ويحييها صوت النعاة حين يشب الصراع:

(دشنا) تضاجع الجبل
يستر باليمين عريها على جذوع نخلها القديم
يسد بالأخرى ثقوب الخوف فى الجباه والعيون
وفى بيوتها التى تلاصقت بلا جدار
يجعل ليلها النهار .. فجرها الأسرار
إذا أقض نومها القرير عسكر الأمير
وانتهك الستار
وحين يشرئب عنقود الغضب
على عرائش القصب
ويقبل (العرب)
يستبق (الهوارة) الملثمون للمزاغل المحجبه
تصبح (دشنا) مركبه
جيادها الجفاف والثارات والعار
وملجأ على الجبل
تصبح (دشنا) رمالنا التى
غدت رجالنا بلا ثمن
ويحمل الشباب والكهول قبرهم
بلا كفن
ولا وطن
وتنصب الولائم الحمراء للجياع فى (النجوع)

تستحم (دشنا) فى النجيع

○○○

جلودنا اهاب موتانا

تذكارهم نسيمنا والريح محيانا

فهذه المقبرة التى توسدت

حنية الجبل

لا تسع القتلى من الأموات

واللصوص تنبش اللحود

ليشرب الموتور من جمجمة الصريع

وتوقد الشموع

وفى سنوات المنفى الاختيارى يتراءى شبح حفار القبور مرة أخرى فى قصيدتى (رؤيا) ١٩٨٣ وقد بعد النيل، وأمست مصر التى نريد حلما بالليل والنهار، وكاد القلب أن يجن عشقا وحنينا ولا عزاء فى المحنة غير المقاومة حتى الموت وغير الشعر رفيقا لا يخون:

قلبك الشمس وعيناك القمر

أيها الصقر الأغر

والجناحان نجيمات الفلك

لاتدعنى نهب حفار القبور

إن يحن يومى

وخذنى فى يديك

علّنى أرتد ومضا يهتدى بى

ركب عمال (التراحيل) لديك

والحيارى فى البوادى والروابى

واسترد الغد ما أبقيت من

عظمىَ المنخور والقلب العنيد

كبدى الحرى .. شراعى المستميت

(١١)

امتصت أحداث الصراع الذى كتب على أن أخوضه فى نقطة (ط) كثيرا من الطاقة اللاهبة المفجرة للإبداع الشعرى، فكادت السنة التى أمضيتها بها أن تكون عقيما لاتلد. غير أنى أدركت فى العام التالى الذى قضيته فى نقطة فيشا الكبرى التى نقلت إليها أنها كانت سنة المخاض الكبير. وكان (أركان حرب) المديرية قد لوح لى فى مكالمة تليفونية مصطنعة أن الفرج على الأبواب، ومن المفارقات أن (الفرج) كان من أسمائه غير الحسنى. وقد كان (صوت سيده) فى الإيماء بهذه البشرى بعد أن بلغته أصداء الرأى العام الصامت التى تنبى عن الاستياء لما حل بى من غبن استرضاء لوساطة كبير أو صغير ذى شأن بالوزارة. ولولا خشية الحجاج من اهتزاز هيبته إذا رجع إلى الحق فأعادنى إلى عملى السابق بالمركز بالفعل. ولكن النقطة الجديدة كانت أقل سوءا على أية حال فانتقلت إليها راضيا، فبعض الشر أهون من بعض، كما قال يوما شاعر قديم. فهى أقرب من الأولى إلى القاهرة وأقل جرائم، وقد أجد بها مأوى كما انها لم تعرف بحاج ولاحجاج.

كانت تلك النقطة على مسيرة عدة كيلو مترات من محطة السكة الحديدية التى تصل بين الإقليم وبين القاهرة، مما أتاح لى قضاء الراحة (العطلة) الأسبوعية فى بيتى بحى شبرا. فكنت أغادر مقر عملى مساء الخميس وأعود إليه صباح السبت حيث أجد فى انتظارى على رصيف المحطة جنديا من (قوة سوارى) النقطة راكبا جواده مصطحبا جوادا آخر كان مخصصا لى. وكانت التعليمات تقضى بتنظيم (طابور) أسبوعى لقوة الخفراء والجنود صباح كل سسبت فى الوقت الذى يصل بى فيه القطار، مما كان يضطرنى إلى إطلاق العنان للجواد لبلوغ مقر عملى فى أقل وقت ممكن .. كان مبنى النقطة مواجها لمدرسة القرية الإلزامية. ومازلت أذكر كيف

جمح بى الحصان فجأة حين أرخيت له العنان (اللجام) فابتعله تحت شدقه، فتحرر من قيده، وانطلق يسابق الريح، وقد عجزت عن السيطرة عليه حتى إذا اقترب من النقطة ادركت أن كارثة على وشك الوقوع، إذ كان التلاميذ الصغار فى «فسحة» بشارع (داير الناحية) أمام المدرسة وقد ادركهم مثلى الذعر وهم يرون هذا الوحش الأعمى طائرا بى كالإعصار فى اتجاههم.

لم يكن بمقدورى غير اختيار أهون الشرين، فانتحيت جانبا منه وقد تشبثت بمعرفته يدفعنى التشبث بالحياة حتى تمكنت من ثنى رقبته ثم جسمه إلى حافة الطريق اليسرى حيث الأرض الزراعية وألقيت بنفسى. وكانت فرحتى بنجاتى من موت محقق لا تعدلها إلا الفرحة بإنقاذ العصافير الوديعة المذعورة، وفرحتى الثالثة بنجاة الحصان، ولايهم بعد ذلك ما أصابنى من بلل. فلأن تدق عنقى أهون عند الحكومة من أن يصاب الحصان بجرح طفيف، فهو (عهدة) مسجلة فى دفتر رسمى يوقع باستلامها، ويتعهد بحفظها ويقر بمسئوليته عنها لاحق عن سابق، و(تنهد الدنيا) وتقوم القيامة ما بين مدير وحكمدار ومأمور لو مس الضر شعرة منه. أما البشر من أصغر جندى إلى أكبر ضابط فهم غير مقيدين بدفاتر (العهدة)، والسماء وحدها هى الكفيلة بهم وبأسرهم. إنه الطاعون الروتينى الشكلى الذى يلتهم الجوهر ولايهمه غير المظهر، طاعون كل العصور، قد ينخر البلى فى أعمدة الهيكل ويتآكل البنيان، ويبقى كل شئ مع ذلك على مايرام (تمام يا أفندى) طالما يلمع الطلاء فوق الجدران المتداعية حتى تكاد أن تنقض. فكأن هذا الروتين الأبدى العتيد الجاثم كالكابوس فوق الأنفاس صنو للاستعمار الذى قال فيه حافظ ابراهيم بعد أن نكثت سلطة الاحتلال البريطانية بعشرات الوعود التى قطعتها على نفسها وأعلنتها على الملأ طوال أكثر من نصف قرن أن تجلو عن أرض مصر، فكانت (مواعيد عرقوب أخاه بيثرب) كما قال ساخرا شاعر عربى قديم:

وأكبر ظنى أن يوم جلائهم

ويوم نشور الخلق مجتمعان !!

كانت نقطة (فيشا الكبرى) بؤرة إشعاع لإنتاجى الشعرى، ففى العام الذى

أمضيته بها (١٩٥٧) كتبت قصائد عديدة إذ كنت فى حالة (شعرية) دائمة، وتحولت تدريجيا- ولكن فى فترة قصيرة لاتعد وبضعة أشهر- من القصيدة التقليدية إلى القصيدة الحديثة بكل تقنياتها. وكانت وراء هذه الغزارة وذلك التحول عدة عوامل سياسية واجتماعية من ناحية ونفسية وفنية من ناحية أخرى كما عرفت- فى تلك المرحلة- إفك شعراء ونقاد يتبادلون مثل الساسة التجار المصالح والمنافع ولا يستحون.

سماء إقليم واحد أظلت نقطتى الشرطة اللتين اقتسمتا عامين من عمرى، وشمس واحدة، ولكنى حييت بإحساسين جد مختلفين. فكأنما كان عامى الأول أرضا لا تعلوها شمس .. مثقلة خطاى .. ثقيل ذلك الثاوى النابض بين الضلوع .... ضائع ضيعة المتنبى وهو يجأر لنفسه بالشكوى حينا:

أنا فى أمة تداركها الله

غريب كصالح فى ثمود

وبالدمع المحتبس حينا أخر:

فيم التعلل؟ لا أهل ولا وطنُ

ولا نديم ولا كأس ولا سكنُ !!

ولكن أبا الطيب كان ينشد مجدا وربما أطمعه كافور بولاية منية ابن الخصيب. أما حارس القريتين السجين فقد كانت أمنيته أن يقتبس دفئا من صدور أبنائهما عوضا عن حرمانه رؤية موطن أبيه ومقابر أجداده فى تلك الولاية من صعيد مصر (منية ابن الخصيب) التى تسمى الآن محافظة المنيا.

أشرقت الأرض من جديد فى عامى الجديد. والسماء التى لا أذكر أنها أظلت على أو مددت بصرى متطلعا إليها أمدتنى بضوأين شمس النهار وقمر الليل. واجتلت عيناى الخضرة ولألاء الندى. ووجدت لى مأوى .. بيتا ريفيا من غرفتين بلا ماء ولا ضياء مجاورا للنقطة. وكدت أتحسس جدرانه الطينية بيدى لأصدق ناظرى.. أن للغريب أن يريح جنبه العانى إلى جدار وأن يعلوه سقف، ولكننى أدرك الآن بعد سنوات طويلة مضت على تلك التجربة أن إحساسى يومئذ بأننى إذ ضمنى هذا

البيت الذى يشبه الكوخ شاركت أنباء مصر الحقيقيين فى عيشهم، وأكد لى هذا الإحساس أننى حقا من طينتهم، فارتشفت قطرة قطرة رحيق نشوة العائد إلى الجذور والينابيع الأولى.

ولم أكن أعرف أنى أحمل فى أعماقى كل هذا الحب للأرض والوطن وفقراء بلادى حتى نقلت إلينا الإذاعة نبأ العدوان الثلاثى فى ٢٩ أكتوبر ١٩٥٦ وكنت فى بدايات مقامى فى (فيشا الكبرى)، فتفجرت هذه الأعماق فيضانا جارفا، وتمنيت لو كنت فى خط النار. وتحول حرمانى إلى شحنة من الوجد بالوطن العظيم فى ساعات المحنة. ومنذ ذلك التاريخ أصبحت المقاومة والفداء وترين أساسيين أعزف عليهما أحر أنغامى. كتبت كثيرا من القصائد التى جمعتها فى ديوان باسم (من وحى بورسعيد) الذى صدر فى فبراير أو مارس ١٩٥٧ بعد معاناة شديدة فى سبيل البحث عن ناشر.

وقد كان هذا الديوان أول مجموعة شعرية منشورة لى بعد مسيرة طويلة فى الشعر العمودى كتبت خلالها ما لو نشر لملأ ديوانين أوثلاثة، فهو حصيلة أكثر من عشرة أعوام. وكانت فرحتى بالوليد الأول أشد مما عانيت كيما يرى النور وقد راوحت قصائده بين القديم والجديد، ولكن النقلة إلى الشعر الحر كما كان النقاد يطلقون على قصيدة (التفعيلة) لم تجاوز الفترة بين بداية معركة بورسعيد وجلاء المعتدين.

لم أقبع خلف (مكتب) أو (مائدة) لأكتب قصائد بورسعيد، فلم تعرف الغرفة الريفية التى قبلتنى ضيفا عليها هذا الترف. بل كانت الأشعار تواتينى عفوية أتنفس بها أو أنفس عما يضطرم فى صدرى من عاطفة وطنية. كانت صدى للمد الوطنى العارم الذى أشعل مصر كلها وأشعل العالم العربى حولها حين انطلق من (القمقم) مارد القومية والحقد على الاستعمار، وكأن المصريين كانوا يثأرون لهزيمة البطل أحمد عرابى بتحدى أعدائه القدامى الجدد وحلفائهم وانزاح الصدأ المتراكم عبر العصور فوق معدن الشعب المصرى الأصيل. وعرف كل رجل وامرأة وطفل روعة الانتماء للوطن والتضحية فى سبيلة. انصهر الجميع ومعهم الإحرار فى العالم كله فى بوتقة واحدة.

فلم تكن معركة بورسعيد معركة مصر ولا العرب وحدهم، ولكنها كانت معركة الشعوب جميعا ضد الاستعمار القديم، معركة مصير الإنسان المغتصب الحقوق فى القرن العشرين، معركة الشباب فى مدن القنال وضواحيها وقراها من فلاحين وعمال ومثقفين وأبناء الطبقة الصغيرة بفتيانها وفتياتها والشباب فى كل بلدان مصر. وكانت صيحة عبد الناصر من الجامع الأزهر (سنحارب. سنحارب) صيحة ك مصرى وكل عربى، بل صيحة افريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية التى تضامنت مع المقاتلين لاسترداد أرضهم فى منطقة القنال، ورأت فيهم تجسيدا للضمير الإنسانى الذى يقاوم شريعة الغاب.

وعرف الاقتصاد والاجتماع والسياسة والثقافة الطريق الحقيقى الوحيد للتقدم، واندفعت عجلة التاريخ للأمام مكتسحة الأعشاب السامة التى خلفها الوحش الاستعمارى وأذنا به على أرض الوطن. فاستخفت الفئة التى ارتبطت مصالحها بالرأسمال الأجنبى وعاشت طويلا فى ظله، وأحنى بقايا الإقطاعيين رءوسهم للعاصفة، وركب الموجة الصاعدة بعضهم. ولاحت على الأفق تباشير عالم جديد، وبداية انكسار الاستعمار القديم، الاستعمار القائم على الغزو بالجيوش البرية والأساطيل والطائرات. فلم يكن خطر الاستعمار المقنع الجديد قد عرف لدى الشعوب، ولا ظهرت الولايات المتحدة الأمريكية بوجهها القبيح الذى كشفت عنه حين عرضت على ثورة ٢٣ يوليو مشروع أيزنهاور فى ظل سياسة الهيمنة على العالم من طريق فرض الأهداف العسكرية.

(١٢)
في قرية كمشوش

من الصعب أن تحتفظ الذاكرة بتفاصيل أحداث وقعت منذ نحو ثلاثين عاما، غير أن ثمة أشياء صغيرة حلوة أو مرة لاتمحى أبدا، بل تنبلج فجأة كلما استثارها مثير فانتفضت حية كما كانت بالأمس البعيد. وهكذا مازلت أذكر التماعات عيون الشبان الريفيين الذين تلقوا حظا من العلم وهم متحلقون حول مذياع صغير فى دار عمدة كمشوش السيد/ رشدى صقر مهندس الزراعة الذى تفرغ لعمدية القرية خلفا لوالده وكثيرا ما كنت أتردد عليه فى أثناء قيامى بالدوريات السوارى فنتجاذب مع أقربائه وصحابه أطراف الحديث. وكانت يوميات الكفاح ولاسيما فى الأيام العشرة المجيدة لبورسعيد تستقطب مشاعرنا وأفكارنا... أمانينا وهواجسنا.

وكم تمنيت أن أتخلى عن ردائى وأرتدى الجلباب مثلهم لأتسرب إلى عمال الأرض فأستمع اليهم فى الحقول وبين البيادر تحت القمر وعند الساقية وفى دورهم التى يسقفونها بالحطب فوق جذوع النخيل. مصغيا إلى دقات قلوبهم الكبيرة الدافئة بحب الأرض وعبادة من عليها من الأحباب ومن تحتها من الآباء والأجداد، متحسسا صدى الملحمة المشتعلة على ضفاف القناة فى وجدانهم. هل أماتت عاطفتهم الوطنية الفاقة ونبش التراب لاستخراج قطرة حياة وحبة قمح تحيى الجسد الذاوى وترضع الوليد الجائع؟ أم أن حب الوطن وهم أصحابه البؤساء يبعث الميت حيا؟ هل يملك الوعى ذلك الأمى الذى حرمه الظالمون من أدنى شروط الإنسانية.

عجزت عن فتح ثغرة فى الجدار الصلد الأصم الذى يحول بينى وبين من أحب. كنت غريبا فى زى غريب. ولكنى كنت موقنا أن أولئك البسطاء صناع الوطن هم أعرق عشاقه.. وأخلصهم، وأن الوعى بالخطر المحدق به لم يكن ينقصهم. فقد سمعوا وعرفوا منذ أربع سنوات أن ريحا عاتية أطلقوا عليها اسم ثورة ٢٣ يولية قد أطاحت بدولة الظلم وسوف تقيم العدل والحق فى الأرض، فتطعم الناس من جوع،

وتؤمنهم من خوف، وتعزهم من مذلة. وهم آمنوا بهذه الثورة حين ردت إليهم بعض حقوقهم وجعلت لدمائهم قيمة ومن عرقهم عائدا من الغلة، وبشرتهم بالمزيد من أمانيهم الصغيرة التى مات أسلافهم دون أن يحققوا أدناها. عادت ٢٣ يوليو أعداءهم التقليديين. ولكن كثيرا منهم ولاسيما كهولهم وشيوخهم ظلوا بين مصدقين ومكذبين، لأن الأيام والليالى قد علمتهم الدرس المشئوم: (أن المياه لا تجرى فى العالى) وأن الريح تدفع شراع الأقوياء.

علمتهم أن الشيطان قد يخلى الميدان إلى حين اذا اشتم رائحة دم الضحية يسرى من جديد فى الضلوع المنهكة من طول الصراع معه، وأرمد عيونه زيت حقدها الذى لاتخمد ناره. وعلمتهم أن التنين له ألف رأس وملايين الأذرعة، وأن قطع ذيل الأفعى لم يغن قط عن قطع رأسها. ومازال يقبع فى صدورهم شبح انكسار (هوجة) عرابى والحصاد الهزيل لثورة سنة ١٩١٩ وقصور الإقطاع مازالت ماثلة أمام أعينهم، والذى يجرى فى الداخل سر مطلسم عليهم، ولأن يوم ٢٣ يوليو قد فاجأهم (من فوق)، وحملت نبأه إليهم أبواق المدينه، وقد هب إعصاره من (الثكنات) البعيدة، فقد ظلوا يتابعون مسيرتهم التى لم يعرفوا غيرها من آلاف السنين ريثما يأتى النبى الجديد. والذين تعلموا من أبنائهم تصيدتهم العاصمة، فحين كانوا يزورون قراهم كانوا يحملون جلودا غير جلودهم، وبهرتهم الأقنعه الملونة، فتقززوا من الجلابيب الزرقاء ولفظوا ما بقى فى عروقهم من حليب الأثداء العجفاء.

ولكن الذين التقيت بهم فى (كمشوش) تلك القرية التابعة لنقطة (فيشا الكبرى) والتى نقلت إليها من نقطة (طوخ دلكه) كانوا شبابا تعلموا فى القرية والبندر ولم يلقفهم بعد وحش القاهرة فكانوا مايزالون أبرياء لايخادعون. وكانوا مسكونين بأحلام الثورة والوطن، ومنهم من كان يتطلع إلى أن يكون مناضلا وفدائيا فى القناة، كانوا بسطاء شرفاء، ولا أدرى اليوم مواقعهم من أهلهم الذين حرموا على أنفسهم القوت ليغذوهم والرداء ليكسوهم وكأس الحليب ليدفعوا لهم من ثمن بيعه أجر القطار الذى يقلهم إلى مدارسهم بالبندر ثم إلى جامعاتهم فى العاصمة. ولكن الذى أعلمه أن (كمشوش) مازالت كما خلفتها منذ ثلاثين عاما، هكذا حدثنى اليوم

أحد أبناء البلدان المجاورة لها وأضاف: «ومثلها قريتا فيشا الكبرى وكفر فيشا، الفقر هو الفقر، والبيوت هي البيوت، والذي قفز قفز!! لم يتغير شيء، إلا رصف الطريق الموصل إلى القرية الأولى». ولم أسأله عما إذا كان جيل اليوم هو جيل الأمس أيضا!!

لكنني كنت حينئذ في دوامتي أتابع أخبار مدن القناة، أهل البحر المعروفين في الثغور المصرية بصلابة المقاومة وبالوعي الوطني مثلهم مثل عمال البحار في سائر أقطار العالم بحكم تفتحهم الناشئ من مخالطة شتى الأجناس وامتصاص الثقافات العالمية دون ذوبان فيها، واكتساب الحس الواقعي وسعة الأفق، فهم في تحد مستمر للطبيعة المتمثلة في البحر المتقلب وحيواناته المائية الوحشية. شخصيات دينامية لاتنظر إلى الخلف كما ينظر العمال الزراعيون الذين يعبدون تراث الأجداد فتتسم حياتهم بالجمود، حتى يأتي من يحركهم ويخرجهم من إسار أهل الكهف ويخلص رقابهم وأقدامهم من سلاسل العبودية.

لذلك كان سكان السواحل أهل مرح وسخرية يصبونها على حاكم البلد الطاغية أو الفاسد، وكان (السواحلي) (ابن نكته) وصاحب موسيقى ورقصة تعبران عن قوة الحياة الجياشة في خلاياه، وعن ثقة بالذات ونزعة إلى التحرر والانطلاق والإبداع على خلاف في ذلك مع الريفي الذي يعشق المواويل الحزينة الرتيبة الإيقاع، والتي تقطر حنينا إلى الفردوس الموهوم والزمن الضائع الذي لن يعود، ومواقف الوداع والبكاء على الأطلال في ذكرى الأبطال والأحباب الراحلين أو الغائبين، ولكن كليهما يصدر عن روح جماعية في السراء والضراء بحكم وحدة الانتماء والصراع والاعتبار بأحداث التاريخ.

لقد انعكست في قصائد ديواني الأول (من وحي بورسعيد) معاني النضال وقوة المقاومة والتضحية حتى الموت، فكانت أصداء المناخ زاخرة باللعنات المدوية في وجوه المعتدين ورجم المظليين الهابطين كالجراد من سماء بورسعيد ومن ثم لم تكن شفيفة ولا مكثفة بالضرورة، لأن الصدى لايكون من غير معدن الأصل. وقد كنت في أوائل عهدي بالشعر الجديد. وكان الوطن كله يصرخ فصرخت، يهتف فهتفت، ويحارب فحاربت. ألست حفيد طرفه بن العبد ذلك الفارس العربي الذي قال:

وهل أنا الا من (غزية) ان غوت
غويت وإن ترشد (غزية) أرشد؟

ولكن ذلك لم يدر فى خلد أستاذ جامعى كان يهيئ نفسه لدراسة النقد، فكتب عن ديوانى (من وحى بورسعيد) بعد صدوره بنحو عشر سنوات كان فيها الشعر الحر قد تخطى نفسه ودخل فى مرحلة أكثر تطورا، وكان شعرى بالتالى على هذا الطريق، كتب عنه مقالا غاضبا مستفزا ليتخذ منه نموذجا للشعر الخطابى أو التقريرى، غير واع ببديهية يعرفها كل الدراسين والنقاد، هى خطر تطبيق أفكار أو نظريات نشأت فى مرحلة متقدمة على أدب كتب فى ظل مرحلة سابقة. شبع لطما على ضياع الشعر الحر، وأشبع الديوان هجوا وتمزيقا للفريسة التى وقعت أو أوقعها مغرضون بين يديه استرضاء لهم. وكأنما خلت حركة الشعر والأدب عامة من نماذج أخرى على هذه الوتيرة. كان يعالج القصائد بمقاييس جاهزة، فلوى عنق الديوان ليضعه فى القالب الذى يريد. ولم يسأل نفسه مرة واحدة عما كتبه من وحى المعركة هذا الشاعر أو ذاك ممن خلبوا لبه وأوحوا إليه بتجربة قوته وفحولته فى النقد.

والعجيب أنه عد الديوان من شعر المناسبات. وهكذا نظر إلى معركة تاريخية شبهوها بمعركة ستالينجراد التى كتبت فيها الملاحم وغيرها من المعارك الكبرى التى غيرت مجرى التاريخ كما ينظر إلى ديوان (الملك) لمحمود حسن اسماعيل، أوقصائد مدح السلطان بمناسبة ذكرى اليوم الأغر الذى اعتلى فيه الأريكة، أو تهنئته بمناسبة عيد الفطر أو الأضحى. إن كل القصائد والروايات والقصص وغيرها من الأعمال الفنية العالمية التى استوحت معارك الصراع البطولى للشعوب هى اذن من أدب المناسبات المرفوض. فماذا يبقى لنا إذن من التراث الادبى الإنسانى إذا نحينا جانبا هذه الاعمال الخالدة التى لاتقع تحت حصر.

أن جريمتى عنده، أننى انفعلت انفعالا فنيا بواقعة إغراق البارجة الفرنسية (جان بارت) التى كانت تحمل المئات من الغزاة بطوربيد سوفيتى زودت به مصر أسطولها البحرى، واستشهد أبطال من قادة الزورق الحربى مثل جلال دسوقى والضابط

البحرى السورى جول جمال رمز الوحدة العربية والإخاء الوطنى بين المسلمين والمسيحيين (٤ نوفمبر ١٩٥٦). فكتبت قصيدتى (قاهر التتار) و(جول جمال) وكأنما كان على أن أخنق مشاعرى أو أنتظر زمنا آخر أختزن فيه تلك المشاعر حتى تختمر ثم أعبر عنها، لقد كانت الكلمة طلقة، ولم نكن نحن الشعراء البعيدين عن مواقع المعارك نملك سلاحا آخر، ولقد كان سلاحا غير مغلول، ويكفى أننا كنا نصور تجربتنا الوطنية فى صدق لاننشد بها غير وجه الوطن والشعب والحقيقة التاريخية وكان نصيبى من ذوى السلطة الخفية المسيطرة فتح ملف قديم من جديد وإدراجى فى قائمة المطرودين من جنتهم، أما الآخرون المحرضون على مثل هذا النقد فكانوا يركبون الموجة العالية، فلما تكسرت وانحسرت بعد أن تقاضوا أجرهم، ركبوا الموجة الجديدة ونالوا فى ظلها الأجر الجديد!! ثم كانت النهاية البائسة.

كانت أبواب المجد والشهرة تفتح على مصاريعها لكل من يرتدى ثوب (المودة) المستحدثة: أن الموضوعات والمضامين النضالية هى بطبعها جهيرة مثل الخطب، فهى إذن لعنة على الأدب كله، وأن الشعراء الوطنيين الذين يكتبون شعر المقاومة قوم ضالون ودخلاء فضوليون على الفن، وأن النزعة (الاليوتية) هى الأقوم والأكثر إبداعا فالفن هو الفن ولا وظيفة اجتماعية للأدب. وقد كان من ضحايا هذا التغرير أدباء ونقاد واعدون، ولكن الجناية التى أصابت الحركة الشعرية كانت أفدح، إذ ضيق الخناق على الشعراء الناشئين فانحرفوا إلى هذا الطريق المصطنع لينالوا الحظوة لدى أجهزة الإعلام التى كان يسيطر عليها ·الاليوتيون بعد الحصول على بركاتهم وصكوكهم. ولم يكن لدى وقلة ممن قرأ لى شك فى زيف تلك الكتابات النقدية التى تناولت ديوان بورسعيد بعد صدوره بأعوام طويلة، وجاء ديوانى الثانى (فارس الأمل) سنه ١٩٦٥، وهو مرحلة أخرى على طريق التطور تخلو من عيوب الديوان الأول الذى صدر فى مرحلة فنية انتقالية، ليمحو أى حسن ظن بهؤلاء النقاد بعد أن شهروا مرة أخرى أسلحتهم لحساب آخرين عن وعى أو عدم وعى، وارتموا على الوليمة أو الذبيحة الجديدة فى شهوة الموتورين المسعورين.



(١٣)

اعتراف

نعمت بالاستقرار والأمن النفسى فى مقامى بنقطة فيشا الكبرى مما عوضنى كثيرا عن معاناتى فى النقطة السابقة التى كانت منفاى، إذ كان عمدة القرية مقر النقطة من أسرة (محاريق) ذات السمعة الطيبة، وتوارث هذا المنصب سلالتها أبا عن جد لاتكاد تنافسهم فى ذلك أسرة أخرى. وقد كان هذا العمدة على نقيض من (الحاج) فى منزعه وفى سلوكه، فهو لم يبتل بعبادة التسلط والجشع والنزعة الاستعراضية، بل كان منصرفا إلى زراعته يكسب منها رزقه حلالا. ولم يتدخل قط فى شئون النقطة أو يصطنع العظمة والجلال فيمد صوته أو يتفيهق مختالا فى عباءته وسبحته وعصاه وزبيبته، كما كان يفعل الآخر، بل كان إلمامه بالنقطة غرارا، وتقديمه مطالبه عند الضرورة القصوى فى صوت هادئ وديع ينبئ عن سمة حضارية وأنه (ابن أصول). كانت الأسرة غنية ولكنها لم تسلك سلوك عتاة الإقطاع، ولذلك لم تعرف القرية ما عرفته بعض القرى الأخرى من صراعات بعد صدور قوانين الإصلاح الزراعى.

ولم تقع بقرية فيشا إلا قلة من الجرائم تعد على أصابع اليدين طوال العام، فكان الأمن مستتبا كما نعبر فى المصطلح الشرطى. وأذكر أننى سلكت أسلوب الصرامة التى تقترب من القسوة أو معالجة الجريمة بالعدوان على المتهم حين وقع حادث سرقة (دقيق)، وضبط الجانى وكان معروفا بسوء السلوك. فحجزته بالنقطة أكثر من المدة التى يسوغها قانون الإجراءات لرجال الشرطة وهى ٤٨ ساعة عقابا له وردعا لغيره من الأشرار، إذ خشيت أن أحوله مباشرة على النيابة فتأمر بإطلاق سراحه بكفالة يسيرة نظرا لتفاهة المسروقات أو لانعدام سوابق إجراميه له، فيطمع ذلك من هو على شاكلته، فيختل الأمن.

ذلك اعتراف أو إفضاء بشئ طالما جثم كالحجر على صدرى وكاد يخنقنى، ولا

أبرئ نفسي من هذا الانحراف عن الجادة فى السلوك المهنى، وأنا الذى كم سهرت فى حفظ أحكام المحاكم وآراء الفقهاء فى جريمة استعمال القسوة، وبطلان الدليل المستمد من الإكراه مهما عظم شأن الجريمة وأثرها فى المجتمع. لقد كان سلوكى هذا مضادا لمواقفى قبله وبعده، ولا استثنى غير حالتين، وربما يقوم دليلا على انقسام فى شخصيتى حينئذ اكثر مما هو دليل على نزعة عدوانية أوسادية، أو انه نضح لأثر الزى فى حامله بحكم جدلية العلاقة بين الشكل والمضمون، ولأحد الأدباء الإنجليز كتاب باسم (فلسفة الملابس) أشار إليه العقاد فى بعض كتاباته.

إننى أشعر إذ اكتب سطور هذا الاعتراف الآن بالخجل والندم. ولن يفارقنى هذا الشعور ما حييت. وليست لدى أية نية فى تبرير مافعلت من شر حين أذكر أن الدافع على ذلك التصرف كان القمع والردع وقاية للمجتمع، وأن ما اقترفت كان من قبيل كبوة الجواد، وأن زملائى الضباط طالما خلعوا على نعتهم لى من باب الثناء أو الإشفاق أننى لست منهم، فقد خلقت لأكون شاعرا لا رجل شرطة مهما اتقنت أصول المهنة فى فنون التحقيق والبحوث العلمية والقانونية فى مكافحة الجريمة وبرعت فيها، لقد كانت هذه البراعة- كما قلت من قبل- درءا لظلم الرؤساء وحفاظا على الكرامة، وقد كلفتنى كثيرا أهونه المشقة فى العلم والعمل، وأشده عدم إشباع ظمئى إلى الارتواء من ينابيع الأدب العالمى، وإحباط حلمى بالتفرغ للشعر وكتابة مسرحية، أو النقل إلى سلك وظيفة مدنية فى وزارة الثقافة والمجلس الأعلى للآداب والفنون، وهو أمنية لم تتحقق أبدا.

كانت الصرامة قناعا مصطنعا كم كرهته وأنكرته حين كتب على أن أرتديه ولكن الطبيعة غلابة، ولذلك سقط منى أحيانا فكشف عن حقيقتى. ولعل هذا هو السبب فى الانفصام الذى ابتليت به حين مارست مثل ذلك التصرف البغيض. فقد كنت أخشى أن ينكشف الغطاء، فأرمى بالضعف أو التهاون فى السيطرة على الجريمة والحفاظ على الأمن فتسقط مهابتى. وقد كان الناس يعرفوننى بالطيبة فى أثناء عملى بمركز أشمون، فخفت أن ينتقل معهم انطباعهم هذا بانتقالى إلى العمل بنقط

الشرطة، فيستغل أشرارهم هذه السمعة. فبالغت فى نفيها عنى باصطناع القسوة أحيانا.

وجاء حادث اجتماعىّ صغير أوائل عهدى بنقطة فيشا الكبرى ليؤكد ما توقعته. فقد كان من عادتى أن أسارع بعد التوقيع على دفتر النقطة فى الصباح الباكر بحضورى ومزاولتى العمل ثم تفقد شئون النقطة ولاسيما (اصطبل الخيول)- كانت هذه النقطة عامرة به على عكس الأخرى- أن أزور المدرسين بالمدرسة الإلزامية المواجهة لمبنى النقطة والتى سبق أن أشرت إليها، فاستمتع بشئ من دفء الاجتماع بالناس مبددا شعورى بالاغتراب، وأتسقط أيضا من ثرثرتهم أخبار الناس فى الليلة السابقة حتى لا أفاجأ بتطور الأحداث وأنا آخر من يعلم.

فى أول أو ثانى زيارة عرفت أن رهانا وقع بينهم فى شأنى، ففريق رأى فى شخص ضابط النقطة الجديد الشاعر الذى تنشر له بعض المجلات والصحف ومن بينها الأهرام- وكنت أسعد كلما نشرت إحدى قصائدى وكانت كلاسيكية بطبيعة الحال-، واستبعد ذلك الفريق الآخر، إذ رأى أن الأمر لايعدو تماثلا فى الاسم بين هذا الضابط وبين الشاعر المذكور، وقد دعاهم إلى ذلك - كما حدثونى- تلك الصرامة التى أبديتها فى التعامل ولاسيما مع المتهمين، الأمر الذى يجافى طبع الشاعر.

كل شئ كان هادئا فى فيشا الكبرى عدا ريح تمر فتحرك صفحة بحيرتها الساكنه بين الحين والآخر فلم تر وجه الرؤساء أو رجال مباحث المركز أو المديرية أو الوزارة لخلوها من الحوادث الجنائية ولحسن حظى أيضا، مما أتاح لى وقتا للتأمل وكتابة الشعر، فكان عام فيشا من أخصب سنوات حياتى. لم تر النقطة فردا ولا ركبا قادما يقطع السكون الغامر غير مرة واحدة كانت لها معقباتها فى الوزارة، فلم أنج من علاتها رغم تفاهة أمرها. ففى ذات صباح إذ أتناول طبق الفول التقليدى فى البيت الذى استأجرته إلى جوار النقطة حضر إلى (جاويش السوارى) مهرولا وكان منوب النقطة ليلا ليبلغنى بأمر هام وخطير ذلك أن (سعادة مفتش الداخلية) قد شرف النقطة فى تلك الساعة.

لم أتم إفطارى وسارعت بقطع الخطوتين اللتين تفصلانى عن مقر عملى

الملاصق، فوجدته جالسا إلى مكتبى وقد فتح أمامه (دفتر الأحوال) التقليدى المخصص لإثبات كل شاردة وواردة فى العمل وكأنه (دفتر الأستاذ) لدى التاجر كما تعلمنا فى القانون التجارى وفى أعمال العهد. كانت الساعة قد تجاوزت الوقت الرسمى للحضور الصباحى وهو الثامنة بعشرين دقيقة. ولمحت عينى سطرا دونه المفتش الكبير يفيد وقت حضوره بالساعة والدقيقة وهو تمام الثامنة صباحا لتفقد العمل بالنقطة. ملاحظة تافهة يرمى سعادته من ورائها إلى مساءلتى عن تأخيرى فى مباشرة شئون العمل عشرين دقيقة. وكان أمامه أيضا ورقة بيضاء كتب عليها عبارة تفيد هذا التأخير.

كدت أصاب بالذهول لفرط المفاجأة والمفارقة أتبلغ (الصورية) هذا الحد من رجل وضع فى منصب لا يؤهل له غير قله من الضباط الكبار الذين اختيروا بعد فرز دقيق أسفر عن تحقق (المواصفات المطلوبة فيهم) وهى النزاهة والكفاءة وسعة الأفق والقدرة على التمييز. هاهو ذا يقطع المسافة الطويلة بين العاصمة حيث مقر عمله بالداخلية وبين هذه النقطة المنعزلة النائية ليتصيد خطأ للضابط يكبر به فى عين رئيسيه مدير التفتيش والوزير فينال ترقية أو حظوة أو يصبح شبحا مخيفا للضباط الصغار من أمثالى، وتلك آية على الكفاءة بل العبقرية.

وكدت أندم على أنى تعجلت فى أداء واجب المجاملة حين طلبت له فنجانا من القهوة بعد أن التقيت به وسلمت، وتبخر فى تلك اللحظة كل الشعور بالاحترام والتقدير، ولكنى لم أعمل بالكلمة المأثورة (إذن فليمدد رجله)، فكتمت غيظى وتذرعت بالحكمة لعلى أرجع به إلى الحق وأنا أهمس لنفسى (يرضى القتيل وليس يرضى القاتل!!). ودار حوار بينى وبينه ذكرنى بحوارى مع الحجاج الذى رمانى به الزمن اللئيم:

– كنت أتوقع أنك تغض النظر عن هذه الملاحظة الصغيرة ولاسيما أنها لا تنبئ عن الواقع، فأنا أعمل بالنقطة ليل نهار ولا أتغيب عنها لحظة واحدة إلا أن أقوم براحتى الأسبوعية. فبيتى لايفترق عن مقر عملى لأنه ملاصق لمبنى النقطة، وعينى على ما يحدث بقرى النقطة أو بداخلها سواء كنت بغرفة مكتبى هذه أو خارجها. وأنا

الوحيد بين الذين تولوا أمر هذه النقطة الذى أقام فى مقرها، ولم يتخذ سكنه فى القاهرة أو فى المركز (مدينه منوف) حرصا على سلامة العمل والتزاما بالتعليمات التى لم ينفذها أحد قبلى. هل ترى أن هذه هى مكافأتى؟

= إنها ملاحظة هينة ولن تضار بها.

– لكنك أثبتها بالدفتر حتى تقطع على فرصة التوقيع وتوقيته فى الساعة الثامنة، إذ دونت فى (خانة) الوقت الساعة الثامنة والثلث، ثم دونت ذلك بمشروع تقريرك الذى ستقدمه للوزارة، فيوقع على جزاء نظير هذه الدقائق.

وكذب الرجل الكبير حين وعد بغض النظر عما كتب، فلم يكد يمضى غير شهر– وأنا بين مؤمل ويائس– حتى جاءنى نائب المأمور ليفتح محضر استجواب فى المخالفة التى وردت بالتقرير الوارد من سعادة مفتش الداخلية. ولما كان الصدق غير منج فى مثل هذه الحالة، ومع مثل هذا النموذج من الرؤساء الذين يتطلعون إلى المجد بظلم الصغار، فقد أحبطت سعيه، إذ تبينت– لحسن حظى أو سوء حظه– أن (البند) الأخير فى الدفتر قبل أن يحضر السيد المفتش ويتصيد غيابى رغم ما أعلمه به (الجاويش المنوب) من موقع إقامتى وذهابه لإخطارى– كان محررا بخط هذا الجندى مثبا فيه أنه قام بعمل (الطومار) أى خدمة الخيول وذلك فى (الخانة) الخاصة بالموضوع، ودون الساعة الثامنة فى (الخانة) الخاصة بالتوقيت، ونسى أن يوقع بإمضائه فى الخانة الخاصة بذلك. فوقعت بإمضائى فيها مما يفيد أننى كنت بالنقطة فى الثامنة صباحا، وكاشفت المحقق بذلك فوافق ولاسيما أننى فى معظم الأحوال كنت أقوم بهذا الإجراء، إذ كنت أشرف فعلا– وان لم يكن ذلك محتما– على (طابور الطومار) إذ يكفى التأكد من قيام رجال السوارى بالنقطة به.

ها أنذا أوالى اعترافاتى بأخطائى أو خطاياى .. فلم يكن ما فعلت غير نوع من التزوير فالجريمة هى الجريمة طالما تكاملت أركانها ولا تبرير لها مهما كان الدافع. ذلك هو منطق القانون الذى تعلمته ومازلت أعلمه بالجامعة. فالظلم لا يغفر الإثم، واسترداد الحق لايكون بالباطل، والغاية والوسيلة لا يتناقضان، وإلا وقعنا فى محظور الماكيافيلية. ومن غرائب المصادفات أن (أقع تحت) يد هذا المفتش فى أواخر

عام ١٩٥٧ أى بعد عام من مغادرتى نقطة فيشا الكبرى- حيث التقيت به- إلى القاهرة، وبدا فى ثوب المتنمر الذى ظفر بفريسة أفلتت منه. ولا أدرى حتى اليوم هل كان يتشفى أم كان يطمح- بإيذائى إذا استطاع- إلى مزيد من الرضا العالى، أو أنه لم يعد أن يكون صوتا لسيده أو سوطا للجلاد ومخلبا للقط؟ وكان الاتهام الذى وجهه إلى خطيرا وهو الاشتراك فى أمسية شعرية بقاعة محظور دخولها على ضابط مثلى، لأن الوزارة- المباحث العامة- لاتعترف بى شاعرا، أو لاتريدنى أن أكون من رواد هذه القاعة المسحورة الملعونه وإن كان قد دخلها وزير الثقافة، ولكن هذه سياسة عليا من أسرار الدولة.

أن للبذور التى استنبتتها مواجهتى الأولى لعالم القرية أن تستوى ثمرة دخلت بها عالم الحداثة الشعرية بعد اختمار طويل، تلك هى قصيدة (ضابط فى القرية) التى مازلت أعدها من أهم قصائدى، إذ عبرت بها لأول مرة عن أشد التجارب التى خضتها وأعمقها أثرا فى مسيرة حياتى وتشكيل اتجاهاتى الفكرية والفنية. كتبتها عام ١٩٥٧ وجاءت كانفجار مفاجئ بعد قصائد بورسعيد لتفوقها فنيا عليها. ولعلها القصيدة الوحيدة التى أحفظها كاملة من بين مطولاتى لكثرة مارددتها على الآخرين وبينى وبين نفسى. وإنى مدين لنقطة فيشا الكبرى. فلولا الحياة الهادئة التى عشتها فيها بعد أحداث سخيفة معوقة لما كانت (ضابط فى القرية). ولكن الفضل يعود فى المقام الأول لمأساة الصدمة فى (النقطة) الأولى، فعانيت أقسى صنوف الاغتراب التى كانت تمزقنى، وأدركت بشاعة التناقض بين الطريق الذى لم أختره بمشيئتى وبين الغاية التى كنت أنشدها بين الهيكل المظهر وبين الحقيقة الجوهر.

عرفت أى عذاب أن يوضع المرء فى المكان الخطأ، وأن يرتاب فى صدقه وبراءته الأبرياء فيعيش منفيا بينهم وهو الذى جاء ليحتمى بهم ويحتموا به فإذا بالمطهر الجحيم. تجربة غير مسبوقة فى تاريخ العذابات البشرية التى كتبت على الأدباء والفنانين والمفكرين: يقول الفيروز بادى: (الشرطة خدم السلطان)، ولكن أهل بلادى يقولون: (إذا كان ذراعك عسكريا فاقطعه) !!

وهكذا (تتعثر الخطوات الأولى مع إطلالة البيوت .. الوجوه البسيطة تبدو، ولكن عيونها تنظر إلى الأرض . وكلمات التحية تقال، ولكن بسمة الود تغيض) ولكنى أشعر أن هذه العيون إذ تنظر إلى الأرض لاتتحاشى نظراتى بل ترفضنى .. تلعننى .. ترجمنى. لم يختلف الأمر هنا وهناك. فالصفاء الذى عرفته فى (فيشا) كان القشرة التى يتحرك تحتها البركان. ومجامله عمدة فيشا الكبرى وأصفيائه من

الشبيبة لى لم تكسبنى ود أهل القرية .. فنحن من عالمين، وكلما اقتربت ممن نالوا قسطا من التعليم واقتربوا منى تراءى لى العالم الآخر ممعنا فى البعاد. لاشئ يوحدنا أو يؤلف بيننا، لأنى الرمز الذى يجسد عدوهم الحقيقى من آلاف السنين: (السلطة) وما تمثله من قهر ليس له من رد فعل إلا الرفض الباطن الخفى وإن نمت عنه الحركات أو السكنات.

عالم محرم تستطيع حوافر جيادى أن تطأ دروبه الضيقة الملتوية بالليل أو النهار، ولكن أصغر أو أضعف فتى من بنيه أقوى منى، لأنى أعجز من أن أملك صك المودة التى يفتح لى بها قلبه .. قوقعة أمنع من القلعة كبرت وصلبت عبر التجربة الشعبية طوال العصور التاريخية .. تجربة الفلاحين مع السلطة .. لقدعجزوا فى معظم تلك العصور عن تحديها والصدام معها، ولكنهم تدرعوا بقوقعتهم دونها ولم يفتحوا لها مغاليقها فلم يعرف الحاكم (كلمة السر) لأنهم وحدهم الذين يتبادلونها.

مقاومة سلبية تتمثل فى الصمت المخيف الذى يحيط بى فى كل مكان وكل وقت. العيون التى تستخفى من طريقى بنادق وسهام مسددة فى وجهى وفى ظهرى ومن حولى .. أسير محاصر أنا دون ذنب جنيت غير أنى (غريب فى زى غريب) .. هؤلاء الضعفاء الأدنون هم الأقوياء الأعلون .. اتجهوا بمحبتهم إلى الأرض وأودعوها سرهم واستنبتوا فيها قوتهم وجلدهم على المقاومة، فأداروا لى ظهورهم وجعلونى رهين ردائى وجوادى. مزيج من الرهبة والكراهية المتوارثتين يقيم سدا عاليا دونى، ويحرمنى أجمل متع الحياة أن نُحِب ونحَب .. فكيف وأنا انحدر من أصلابهم أحس حنينهم وأريد أن أثأر لهم من ظالميهم، أو أن أقيم ما استطعت من عدل فى أرضهم.

وربما ألقى عليهم السلام إذ أقوم (بدورية السوارى) فى ليلات السقيا أو أيام الحصاد، فيردون التحية. وتوسوس لى أحلامى أن أجلس بينهم ساعة أو بعض ساعة وأشاركهم سمرهم وأسمع مواويلهم فلا أستطيع إذ يغضون من أبصارهم فى خجل برئ كأنهم يقولون لى: (العين لاتعلو على الحاجب) ولأنهم فى موسم عشق لايقولون لى ما توارثوه عن الأسلاف حول الذراع المقطوعة.

وكان جفاؤهم فى أيام (التحاريق)– لم يكن السد العالى قد بنى بعد– يزيدنى

حبا لهم وسخطا على سوء طالعى. وربما كان تعسفى فى استعمال سلطتى حيال هذه القلة من المنحرفين التى ابتليت بها بعض قرى النقطة الستة تعبيرا عن ذلك الحب. ولكنهم لايستجيبون لأنهم لايعلمون، وان علموا لايصدقون. الكل فى واحد والواحد فى الكل وأنا أنا الغريب. ولم يغب عن خيالى قط منظر الأشباح العائدة من الحقول فى المساء، وهى محنية فى ظلالها الطويلة خلف ماشيتها أمام (دوار) العمدة الحاج وأيديها مرفوعة حول آذانها تقرئ القوم السلام والإكرام، وأنا قابع بين زمرته اداريه ويدارينى، تعلو رأسى قبعة وكتفى ثلاثة نجوم يطفئ لمعانها ضوء المحبة ويطارد الأمن فى الجفون.

الشقوة قدر وهكذا كان قدرى (ضابط فى القرية)، وكانت عروس قصائد المأساة وموال المقاومة الريفية فى شعرى تحمل هذا العنوان كما نشرت فى ديوان (فارس الأمل)، ومن قبله عنوان (غريب فى القرية) كما نشرت بمجلة الآداب فى بيروت:

«لاتزحم الطريق بالخطا
خطاك ظل طارق كئيب ..!!
وكلما مضيت هاربا من الصدى
لم أنج من عيونهم تطوق الطريق
وألف وجه .. ألف عين
تقول : يا غريب
لاتزحم الطريق بالخطا
يا أيها الغريب .. !!
كأنما تقلب السماء جبهتى
بالقحط بعد نضرة المنى وقلة الجنى
وفى ظلال كل حائط ومئذنه
يواعد الرجال بعضهم ويلتقون
على حنين حائر حزين
ويلعب الصبيان والبنات
وينقضى المساء

والزيت فى السراج لايزال
على مسارب الدروب يسكب الظلال
ويصحب الظلام تابع مريب
ويسكن السهران والخفير
وفى سجو قريتى تَروعنى مطالع الصباح
أخاف أن يجئ
وألف وجه .. ألف عين
تقول: يا غريب
لاتزحم الطريق بالخطا
يا أيها الغريب .. !!

ooo

لكنهم عند الحصاد يرسلون لى
سنابل الوداد مثل حبة الفؤاد
نقية كقطرة من المطر
وفى ليالى الصيف يزهر القمر
ويومض الثمر
وكالندى يرقرق الحديث حلقة السمر
كم شاقنى الهوى لصحبة الرفاق
هنيهة فى السامر الطروب
وكم رجعت فى إهابىَ الغريب
وألف وجه .. ألف عين
تقول : يا غريب
لا تزحم الطريق بالخطا
يا أيها الغريب .. !!

ooo

الأوجه السمراء لوحت بريقها الليال
وطول صحبة الظلال

وكل عام تقبل الحياه
ويولد النهر الخصيب فى الجنوب
لكنما ريح الشمال تنكأ الجروح
فينشد الرواة فى الأرغول
حكاية الأمير والفلاح
والجند تغصب الديار بالسلاح
وتحجب الآباء عن عيون كل أم
ويسرق الحراس طيب الثمار للأمير
ويعول الأرغول فى الوجوه
بلوعه النساء والأطفال
وكلما طلعت من حنية الطريق
تشير لى الأصابع النحيله
ويرتمى فى مسمعى النشيج كاللهيب
بلعنة الحراس سارقى الثمار
وألف وجه .. ألف عين
تقول : ياغريب
لا تزحم الطريق بالخطا
يا أيها الغريب ..

ooo

غرست من محبتى شجيرة خضراء
ضياؤها نوارة الحقول
وقلت للرفاق : يا أحباب
أبوابكم ممدودة الرحاب
لا توصدوها فى الوجوه
فقد سقيت مثلكم شجيرتى
بدمعة الصفاء والحنان
ولست بالغريب

أبى الذى مضى
ولم تشيع نعشه حشود
خطاه ماتزال بينكم على الطريق
وعينه تقلب السماء
لتضمن النماء للبذور
والزاد للصغار
وكان يؤنس الغريب
ويوقد المصباح فى الدرب الطويل
صباحه وداد
وليله سلام
وقد عشقت مثله الصحاب
وحنة الأرغول فى المساء
وجئت بينكم
يضمنا طريق
سماؤه نجوم
وأرضه أطفال
ولست بالغريب يارفاق لست بالغريب

ooo

لكنما رفاقى العناة واجمون
عيونهم على إهابىَ الغريب
ومشية الجواد بى تهيج
لواعج الشجون
وتحمل الأنين عبر كاهل السنين
من مصرع الجدود فى سنابك الجياد

وعولة النساء بين الطين والرياح
وموكب الحراس والأمير
وقد أغنى الفجر للسارين فى الظلام
وأحرس الثمار للفقير
وفى يدى قصيدة السلام
وكلما رمى بىَ الحنين للجموع
لم أنج من عيونهم تطوق الطريق
وألف وجه .. ألف عين
تقول: يا غريب
لا تزحم الطريق بالخطا
يا أيها الغريب .. !!

عيون الفلاحين من أجراء وملاك صغار كانت تتحاشانى رهبة واتقاء للشر الذى يرمز له إهابى ويجسده جوادى، أو تحديا سلبيا ورفضا للمصالحة وكنت الضحية كما كانوا هم منذ سلطت عليهم أعتى القوى. عقدة لن تحل مالم تتغير البنية والعلاقات الاجتماعية تغيرا جذريا. ولكن عيونا أخرى كانت هنالك فى القرية عينها تفسح لى الطريق وتفك عنى الحصار، عيونا ترانى بالبصيرة وحدها إذ كانت غير مبصرة.

ففى الصباح الباكر من كل سبت كنت أغادر مسكنى فى حى شبرا بالقاهرة بعد قضاء العطلة الأسبوعية عائدا إلى مقر عملى بالريف، وسيلتى للانتقال كانت سيارة عامة من سيارات الأقاليم. ظل الركاب يطلقون عليها اسمها القديم (كافورى) نسبة إلى صاحب رأسمال الشركة التى تملك هذه السيارات، والتى أممتها الدولة فى عصر الثورة. تبدأ المسيرة من (الموقف العمومى) عند مدخل القاهرة الشمالى قريبا من (شبرا البلد) وتنتهى بعد ساعتين تقريبا فى (البندر) الذى تتبعه نقطة الشرطة تلك التى عرفت عن طريقها عالم القرية أول مرة.

تعودت فى معظم صباحات السبت أن أشاهد صبيا مكفوف البصر (أسمر الوجه نحيلا كنواة البلح)، كما يصف ناظم حكمت غلاما مصريا سماه «منصور»، يلوح بجلبابه الكابى عندما تغدو الحافلة على مشارف البلدة التى يعقبها البندر، كأنما يصيخ السمع، حتى إذا توقفت تشبثت يداه الصغيرتان بالباب وبأيدى الصاعدين أو الهابطين من الركاب فأعانوه على الدخول. ألمحه حينئذ يقف برهة إلى جانب السائق يواجهنى بعوده الضامر وعينيه المغلقتين ومايلبث أن يخطو فى اتجاهى ويأخذ مكانه إلى جوارى فى المقعد الذى يكون خاليا فى معظم الأحيان. ولا أذكر أنه شغل مرة

مقعدا من المقاعد الأخرى الشاغرة، على حين يقع العكس من القرويين الآخرين إذ يتحاشون جوارى ثم يبدأ فى تلاوة آيات من الذكر الحكيم لاتستغرق دقيقتين أو ثلاثا، وينتظر الإحسان من أهل الجود والخير، وهو قابع فى هدوء إلى جانبى.

ليس من اليسير أن أعبر عن الحالة العاطفية التى كانت تعرونى فى كل مرة. هل هى الشفقة له إذ ضيعه الفقر وأحاله إلى متسول، قيمة إنسانيه عاطلة ومهدرة فى المجتمع، وسلبه الرمد الصديدى المنتشر فى الريف نعمة البصر كما سلب طه حسين والشيخ إمام وآلافا وآلافا من أولاد الريفيين المعدمين والفقراء؟ بل غلب على إشفاقى عليه السخط على الوضع الاجتماعى الذى سحقه، وشعورى بالقهر لعجزى عن تغيير هذا الوضع. ولقد باتت هذه المشاعر تعمل كالحفارة فى أعماق نفسى، وظلت مختزنه مع غيرها من الأحاسيس والصور والتأملات اليومية المتراكمة حتى انبعثت وأملت على بعد ذلك بعام قصيدة (المقرئ الصغير)، التى تعد رافدا للنهر الذى سميته (ضابط فى القرية) وتوالت بعده الروافد. ولقد اختلف كل رافد عن النهر وان كانا من ماء واحد، مثلما تختلف الأحياء المائية فى النهر أو البحر وتختلف صخور الشطآن والقيعان.

فالعيون الناظرة فى القصيدة النهر كانت تجفونى، أما العيون المغمضة فى الرافد (المقرئ الصغير) فكانت تنجذب إلى بقوة خفية كأنها تعرفنى وتلتمس لدى الحمى والأمان، أو تشعر بذراعى الممدودتين وقلبى المفتوح بالوداد والحنان، أتراه الحس الذى يتعارف به الغرباء هو الذى أرشد الصبى الأعمى إلى مجلسى، فانقادت خطاه عن غير وعى إليه (وكل غريب للغريب نسيب)؟ أم هو لقاء الأقربين فكلانا طلْع بذرة واحدة انقسمت فلقتين إحداهما فى الصعيد والأخرى فى الدلتا: ومن يدرى فربما كنت سألقى نفس هذا المصير التعس لولا ضربة حظ اقتلعت أبى من جذوره فى طين (المنيا) ورمت به فى القاهرة حيث وجد عندها رزقا فأنجبنى. على أننى لم أعكس مأساتى الخاصة وأمزجها بمأساة شعبى فى قصيدة (المقرئ الصغير) كما فعلت فى (ضابط القرية)، بل جاءت القصيدة تعبيرا عن نموذج لإحدى الفئات المطحونة من هذا الشعب، وتفجيرا لجرح عميق يمر به القادرون كأنهم ينظرون وهم لا يبصرون كأنما على قلوب أقفالها.

ولاشك أن تكيفى بالحياة فى نقطة فيشا وتنفيسى عن أزمة اغترابى فى قصيدة (ضابط فى القرية) قد كسرا من حدة الإسقاط الذاتى فى قصيدة المقرئ، وإن ظلت بقايا هذه الأزمة مستكنة فى نفسى تنتظر أول عامل مثير للرماد الكامن لتشتعل الجمرة ويتجدد الاحتراق فيكون الشعر. وإذا كانت قصيدة (غريب فى القرية) لوحة أبرز جزئياتها وأكثر مفرداتها ترددا (العيون)، فإن قصيدة المقرئ تتشكل من العيون أيضا، ولكن (الأقدام) هى الصورة الأساسية، لأن بطلها مازال يسير فى طريقه الطويل ولاعيون، ولأن أقدام أهله فى القرية هى التى ترفع أعمدة المدينة الظالمة أو العادلة:

كل صباح ألتقى بطلعته
كالظل تحت خيمة الغروب
كالعود فى بيادر الحصاد
يطل بالجبين .. يضمر الحنين
ويرشق الطريق
لكن بلا عيون
وتقلع السكون خطوته
والقرية العذراء تسمع الخطا
ولا ترى العيون
ويُنشر الضياء كالأمطار
يفيض فى مشارف الآفاق
من ليل قريتى الطويل
بلا عيون

❂❂❂

يا بحر يا طوفان من أقدام
جامدة .. جافية .. صفوف
تشدها لأرضها الشقوق والرياح
وتغرس السواعد الشداد كالرماح

فى الطين والرمال
لتطلق البذور من أظافر التراب
وتلتقى وجوهها .. ألوف
تغالب الفناء .. تشعل الظلام
وتحفر الطريق للأقدام
ويرفع الصبى صوته النحيل
ويبدأ الترتيل
فربما تكشفت مغالق الصدور
ويسكب الوجه الكليل ومضتين
لكن بلا عيون

ooo

فى قريتى بحر من الأقدام يحجب الوجوه
ويفرش الحنان والضياء
أحبابها العشاق حين يحلمون
بالأرض .. بالأكواخ .. بالبنين
وربما يقلبون فى التراب باحثين
عن جوهر كريم
فيبخل التراب
لكنهم لا يبخلون بالعيون
هدية للأفق كى ينير
للأرض كى تدور
للنهر .. للأقدام .. كى تسير

كان الخفير محمود الموكل بمعاونتى بنقطة فيشا الكبرى فى قضاء احتياجات العيش الضرورية بالنظر إلى مقام أسرتى بالقاهرة، عونا لى أيضا على كسر جدار العزلة المنصوب بينى وبين أهل القرية، اذ أتاحت له (العشرة) معى، أن يعرفنى إنسانا له مثل قلبه وشواغله.. إنسانا لم يخرج إلى الدنيا مرتديا زيا مميزا ولا راكبا جوادا وحاملا سلاحا .. وهكذا كان يطلعنى مثل (متولى) الصياد على بعض أسراره وهمومه وإن كان- على خلافه- يؤثر الإشارة على العبارة ويميل إلى الصمت. ولاشك أن طبيعة مهمته - وهى معاونة ضابط النقطة مما يتيح له معرفه شئونه الخاصة- قد علمته هذا الصمت فتمرس به.

من هذه الكوة أطللت على جوانب من العالم النفسى للفلاحين الذين يظنهم الكتاب والشعراء الرومانسيون كتابا مفتوحا ولا يقرأون فيه إلا الهوامش، فيتحدثون عن الطيبة أو السذاجة والبراءة كأنهم - كبارا وأطفالا- ملائكة نورانية، تنعكس زرقة السماء الصافية على جلابيبهم الزرقاء التى لا يعرفون ولا يملكون غيرها، وعلى قسمات وجوههم، صفاء ونقاء، ويتصورونهم يرفلون فى ثياب فضفاضة من القناعة والرضى بالواقع على علاته والتسليم بالمقدور. بل يحسدونهم على هذه السعادة، ويعقدون المقارنة بين حياة المدينة حيث الضجيج والزحام والتلوث والتنافس المحموم على الكسب المادى، وبين حياة الريف حيث السكون والخضرة وضوء القمر والمواويل ونسيم (العصارى) العليل. يتخيلونهم دمى فولكلورية أو قططا سوداء أو بيضاء وديعة بلا مخالب مغمضة العيون فى ضوء الشمس التى تربت على فرائها وتنفث فى شعيراتها الدفء والحنان ومازالت تذاع حتى اليوم أغنية عبد الوهاب مطرب الملوك والأمراء قبل أن تضاف إلى هذا اللقب رتبة اللواء ودرجة الدكتوراه (ما احلاها عيشة الفلاح، مطمن قلبه ومرتاح).

والحق الذى يعترف به لهؤلاء الكتاب أن ادبياتهم ليست كلها من إسقاط النظرة الرومانسية، أو الرؤية الميتافيزيقية والأخيلة الفانتازية (امبيريقية) فهى تصور واقعا معاشاً، ولكن أى واقع؟ أنه واقع الإقطاعيين وبناتهم وأولادهم الذين يقيمون فى العاصمة، ويمضون شهرا من شهور الصيف- ولاسيما فى موسم حصاد الغلال- فى القصور التى ابتنوها فى (عزبهم) بالقرى ليتفيأوا ظلال كرومها، ويسرحوا عيونهم المتمعة فى حقولها الخضراء وجداولها الرقراقة، وليحصلوا الإيجار ممن يبصمون على أوراق العقود البيضاء، ويوقعوا الحجز- على يد المحضرين- على من يعجزون عن السداد، ويشرفوا على تحرير محاضر التبديد لمن عضه الجوع فأكل بعض ماغرس، ثم ينعموا برؤيته مسوقا إلى (النقطة) أو (مركز الشرطة) لحبسه على ذمة التحقيق فى (جنحة التبديد).

أما الشق الثانى للرحا الأدبية المسلطة على الفلاحين الفقراء من بعض الأدباء والفنانيين فهى تصويرهم فى قالب أبطال أشداء لا يضعفون وفرسان لا يخطئون، وإخوة أحباء لايتقاتلون. يرسم القلم أو الفرشاة الأهرام التى حملها الفلاح المصرى القديم فوق كتفة حجرا حجرا، وقناة السويس التى حفرها بأظافرة شبرا شبرا، ولايرسم الأديب أو المصور سوط الجلاد يشوى الظهور المحنية إذا طلبت شربة ماء، واكوام التراب التى انهالت فكفنت البناة والحفارين.

علمنى الخفير محمود بعد متولى الصياد لا واقع الصراع التاريخى والكفاح اليومى فى سبيل الحياة فحسب، بل تعلمت منهما- هذين الفلاحين الأميين- دروسا كثيرة أخرى، درسا تلقننى إياه النظرة الخفيضة الصامتة ودرسا من الحوار القصير حين يفتح لى بابه القلب الكبير الكسير. تعلمت أن الإنسان البطل قد يبكى كالنساء لفراق أصحابه الشهداء، ويخفى دموعه فى قلبه وهو يقبل أطفالهم ويمسح على رؤوسهم، وأن عظمة البطل تكمن فى إنسانيته، فى قوته وضعفه معا. أما الخائن فلا يعرف قلبه البكاء وتعرف عيناه دموع التماسيح. لكم قرأت هذه الصور فى الآداب العالمية، ولكنى لم استوعبها إلا حين عايشت فلاحى فيشا وصيادى كفر فيشا، لم أجدها فى أشعارى عنهم حين رأيتهم أول مرة، ثم وجدتها فى أشعارى فيهم، أشعارى إليهم حين أفضوا إلى بأسرارهم.

كان محمود الخفير حزينا، يرتعش احيانا من الخوف، وهو يحمل سلاحه الأميرى، وكان شباب القرية أنئذ يتدفقون حماسة وهم يصيخون السمع إلى أنباء الجلاء بعد أن ايقظت المعركة فى بورسعيد والمقاومة الشعبية ضمير العالم وحركت الرأى العام فى قلب المسكر الغربى المعتدى. وفى لحظة ضعف أفضى إلى بسره .. استشهد ابن عمه فى المعركة وكان صديقه وحبيبه. واختلط حبة للأرض والوطن وابن عمه لا بالحقد على العدو بل بالخوف من الحرب. كانت البطولة عنده هى الظاهر والمأساة الباطن .. وتحدثت اليه طويلا عن العطاء وزفاف الشهيد الى الخلود ليحمى الوطن ويعيش محمود وأبناد عمه وتستمر الحياة. وضربت له الأمثال واستشهدت بالقرآن لتقر عينه ولا يحزن.

لم يكن محمود واعيا بالفرق بين الحرب الوطنية الدفاعية والحرب الاستعمارية، فكانت مأساتة، لم يكن يميز بين الحرب للسلام والحياة وبين الحرب للهب والعدوان فالحرب عنده هى الحرب، وهى مأساة البشر ولم اكن اعلم فى ذلك الحين أنه سيأتى من بعد ذلك زمن يزين فيه الاستسلام باسم السلام والباطل باسم الحق، ويضفى على (شيلوك) نعت المسيح بالحمل الوديع وصبغة ابن العم الذى حمل عنا عبء بناء الأهرام كما قال بيجن وهو يزورها فى صحبة السلطان، ولم يعترض عليه أحد وفجأة بعد شهور لا أذكر عددها وجدت بين يدى قصيدة "الخوف) عن صديقى محمود القروى الذى يشقيه شبح الحرب، ومأساة الأمهات والآباء الذين كانوا يفدون إلى فى (نقطة الشرطة) مع شيخ البلد واحد الخفراء لأسلمهم الأمانات: ساعة الابن الشهيد ومابقى من نقوده أو أشيائه الصغيرة:

لا ترتجف
محمود ياصديقىَ الوديع
لا ترتجف
جبينك البسام غضنته غيمة القلق
والخوف مارد تغور
خطاه فى فؤادك الأمين
ولاتزال تحت طرقها اللعين

تصفر نضرة العيون والشجر
فيسأل الصغار واجمين:
«إلهنا رحيم
والعفو عنده قريب
فما الذى أثار غضبة السماء
فترسل الرياح والشرر
والجوع والكساد والضياع
والخوف يأكل القلوب ؟»
وقد تجيب حين يلفظ الصغار بالسؤال:
«خطيئة البشر !!»
ولست تخطئ الجواب
فقد عرفت يوم عودة الجنود
ولوعة الذى مضى حبيبه ولن يعود
عرفت كيف يصنع الإنسان بالإنسان

ooo

«سعيد» مايزال قابعا بنصف وجه
وكان وجهه صبوح
يضئ فى مواسم الحصاد
ويفرش الحنان فى الأكواخ والحقول
ويهتف الصبيان: يا أبى
«زكية» العجوز خانها الكلام
لاحرف لا ابتسام لا سلام
وأصبحت تضيق بابن الجار
كأنه غريب
والمقرئ الضرير لا يغيب
عن دارها فى الليل والنهار
من يوم أن طوى رسائله

وسلموها ثوبه وساعته
وكلمتيين : مات
واختاره الإله
وحيدها الحبيب
ولم يكن يحتاج للكفن
فقد روى الرفاق أنه إنتقم
من قبل أن يموت
وحين مات أقبلت غمامة بيضاء
وشاهدوه بعدها كأنه يعانق السماء
وكان يبتسم
وكلنا فدى الوطن

٭٭٭

الخوف تغمر السفوح والوهاد
ظلاله الكئيبه
وتعصر القلوب كفه الخضيبه
والقرية الخضراء فى سواد
ولم يزل صديقىَ الوديع
تصافح التراب قبضته
وغيمة الأسى تظل جبهته
وربما مضى به الصغار يسألون
ويلغطون بالسؤال عن خطيئه البشر
فلا يجيب ... !!

تجربة أخرى فى الضنى والاغتراب فى البلد المحبوب وعانيتها فى قرية فيشا غير بعيد عن فاتحة دلتا النيل، ولم أكن أنا الغريب هذه المرة ولكنهم الصيادون الريفيون أشد الفئات الكادحة التى التقيت بها فى أواخر الخمسينات بؤسا وضنكا بين أهل مصر. فئة سقطت من رؤية الشعراء المصريين عبر المدارس المختلفة فى شتى المراحل التاريخية والأدبية. هذه القرى التى عاش فيها أولئك الصيادون وتناسلوا وماتوا أبا عن جد لايكاد أحد فى العاصمة يعرف مأساتهم ولا أديب يصورها، تشكل عالما آخر مجهولا فى هذا الكوكب الغامض. وإذا كان بعض كتاب الرواية والقصة ومخرجى الأفلام السينمائية قد عالجوا مشكلة الصراع غير المتكافئ بين عمال الصيد البحرى والفئة التى كانت تسيطر عليهم بقوة السلاح ورأس المال والجريمة، فقد اقتصرت معالجتهم على الصيادين فى الموانى والسواحل المصرية على البحر الأبيض، وخاصة الاسكندرية وبلطيم، ولم تمتد لتشمل الفئة الصغيرة التى تكسب لقمتها من الصيد فى النيل أو فروعه تحت قسوة ظروف اقتصادية واجتماعية تهدر كل معانى الإنسانية.

فجأة وجدتنى أواجه الدوامة التى تدور بهذه الفئة وتدور هى بها، فتطفو أو تغوص بين فكى «القرش» الشرس .. ضريبة العيش المر .. من أجل قطرة دم فى العروق المنهكة .. لقيمة شعير جافة .. نقطة حليب فى ثدى أم لوليد عار .. طاحونة تفترس الضلوع، ساقية أو محراث تجره مرة رقبة ثور عجوز ومرة رقبة امرأة ضامرة أو غلام جائع إشفاقا على الحيوان الهزيل أو مخافة أن ينفق وربما لاتملك الأسرة الفقيرة غيره، أو لعلها تستأجرة بقروش لاتملك غيرها.

كانت تجاور بلدة (فيشا الكبرى) حيث أقيم قرية صغيرة تسمى (كفر فيشا)

تفصل بين الاثنتين بحيرة تمتد عبر عدة قرى ويبلغ عرضها نحو نصف كيلو متر، وتربط بين شاطئيها مركب تسمى (معدية) تتبع المجلس القروى ويتولى تسييرها عامل من قبله، وهى تنقل الإنسان والحيوان والغلال، وغير ذلك من الأحياء والأشياء كأنها سفينة نوح. وليست هذه البحيرة غير مياه نيلية جوفية طفحت فسقت الأرض كأنها إحدى الترع، ومن ثم فهى بطيئة الجريان، تبدو صفحتها مثل بركة كبيرة.

وفى عودتى ذات ليلة إلى مقر النقطة من دورية ليلية بالخيل تمر على (خط سير) ينتهى بقرية (كفر فيشا) أوقفنا الجياد الثلاثة كان الوقت قبيل الفجر، وصاح خفير من القرية المذكورة بصفارته حينا وبصوته حينا آخر مناديا على عامل المعدية الراسية على شاطئ (فيشا الكبرى) المواجه لنا كى يحملنا إلى مقر عملنا. أما الخيل فيتكفل بها الخفراء حتى الصباح (ولكن لا حياة لمن تنادى).

كنا مرهقين ولاسيما جنديا (السوارى) المرافقان لى إذ كانا فى مرحلة الكهولة فبدا عليهما الإعياء الذى أصابنى أيضا بعد ثلاث أو أربع ساعات من الطواف فوق ظهور الخيول عبر طرق ملتوية غير ممهدة وفى طقس بارد وسكون يقطعه حينا بعد حين عواء الكلاب، فتجفل الجياد مما يقتضينا مزيدا من الجهد للسيطرة عليها. وتستمر المسيرة دون توقف إلا بضع دقائق فى كل بلدة أو (بالنقط الثابتة) عند رؤوس الطرق للتفتيش على مواقع الحراسة التى يتولاها الخفراء النظاميون وعلى أسلحتهم، والتوقيع على الدفاتر التى كانوا يهرعون إلى بها لإثبات انضباطم حتى إذا انصرفت أخلدوا إلى الرقاد بعد عناء السهر. كنت أعرف هذه الحقيقة ولا حيلة لى فى اتقائها رغم علمى أن من المجرمين من يستغل هذا الفراغ الأمنى لارتكاب جرائمهم، ورغم تحذيرى الخفراء من مغبة التقاعس عن اليقظة فى أثناء نوبة الحراسة.

لمح الخفير قاربا يسرى على وجه البحيرة فى غبش الظمة، وسرعان مالوى صاحبه وجهته شطرنا ملبيا النداء. ولم تكد قدماى تطأن أرضية ذلك التجويف الخشبى حتى صكت سمعى آهة تتصاعد منه وما كنت أتوقع أن أجد فى هذا البرد القارس غير صاحب القارب الذى ناداه الخفراء وقتئذ باسم (متولى) فإذا بالمفاجأة المذهلة.. كانت الآهة من وقع وطء قدمى على كومة صغيرة من اللحم تجاور كومة

أخرى لتستدفئ بها أو لضيق القارب وفى أحد طرفيه (خن) فراغ نصف مسقوف تكورت فيه امرأة هى زوجة (متولى) تحتضن طفلا .. لم أكد أصدق عينى .. وتماسكت فما ينبغى أن تخوننى شجاعتى المفترضة حتى لا أسقط فى عيون المرؤوسين، وربما فى عينى (متولى) نفسه. ولكنى أحسست فى داخلى بوقع كارثة تجتاح العالم كله وفى فمى طعم الصبار، ثم تصاغر الوجود .. حتى ضاق وأوشك على التلاشى.

وكانت هذه اللحظات منعطفا حادا فى فكرى وفى شعرى، فقد نذرت نفسى منذئذ أن أكون صوت الفقراء المقهورين حتى الموت، وبدأ إيمانى بثورة ٢٣ يولية يتزعزع، وأدركت أن طريقى طويل، وقد أسقط قبل أن أبلغ نهايته، ولكن المقاومة كانت قدرى واختيارى معا.

كانت إجابات متولى هادئة، نعم تلك هى أسرته، وهذا هو مسكنه وأداة عيشه ... وهى مهنته .. قدره .. أبوه هبط يوما غاطسا تحت الماء وأدخل رأسه ويديه فى كهف بقاع البحيرة ليلقف السمك ولم يعد بعدها .. ومتولى يواصل الطريق ولكن على السطح الساكن .. وصية تتوارثها الأجيال: «العيش مرار والرزق شحيح، ولكن الله لاينسى عبده الصابر فتوكل على الحى الباقى»:

☆ ماذا تفعل ياعم متولى إذا جفاك الحظ فقل الصيد ؟

☆ ☆ أغطس تحت الماء حتى أقترب من القاع فلا أعدم سمكة.

☆ لكن أين الشبكة ؟

☆ ☆ منذ قديم صارت مزقا مهترئة !!

☆ فى سوق الصيادين شباك فوق الحصر

☆ ☆ الشبكة بجنيه كامل وأنا لا أملك شيئا

كانت فى القرية وحدة للضمان الاجتماعى فسألت متولى:

☆ والوحدة يا متولى لم لا تتوجه تطلب عونا .. ثمنا للشبكة ؟

☆ ☆ يحتاج جنيه الشبكة طلبا، والطلب الرسمى يقدم مكتوبا لا شفهيا والكاتب يحتاج نقودا.

☆ هذا أمر يمكن تدبيره .. يتولى هذا الجندى كتابة طلبك يا متولى.

☆ ☆ لكن هذا لا يكفى .. لابد من (التمغة)

☆ هذا أمر سهل مكفول أيضا .. بعض قروش

☆ ☆ يبقى أن يعتمد الطلب الشيخ، شيخ البلدة.

☆ هذا من واجبه

☆ ☆ بل من سلطته أن يتقاضى ربع جنيه ثمنا للتوقيع. أما من لايملك مثلى أن يعطى أجر الخدمة فليشرب من طين البركة وأنا أفعل!! ماذا أملك إلا الطاعة تحتى امرأة .. أطفال أربعة .. فوقى شيخ البلدة، فوق الشيخ العمدة، والضابط فوقهما، والمأمور على رأس الضابط والعمدة.. وهناك مدير نسمع عنه فى البندر لكنّا لانعرفه حتى المأمور هنالك مامر علينا يوما. لم يهبط أرض القرية.

☆ أنا فى خدمتكم يامتولى .. لا تحزن .. إنى أكفل لك شبكة أو ثمن الشبكة. بعنى فى الغد شيئا من سمكك، وسترزق من أجل صغارك .. فالرجل الكادح يرزق حتى من جوف الصخر، والدودة ترزق فى الحجر الأسود.

☆ ☆ أولادى جوعى حتى الديدان يحنون إليها كى يقتاتوا شيئا إن ضن البحر بسمكة، يحتاجون إلى شوكة .. فالشوكه قد تحييهم حتى يشملنا المولى برعايته والله بلطفه .. يا ألطاف الله.

☆ لا تيأس يا متولى

☆ ☆ الله رحيم بعباده .. هأنذا عشت وشفت الحاكم لا يأنف أن يركب معى القارب ويحدثنى .. يتحدث مع رجل صياد لا يملك حتى قاربه.

☆ حتى هذا القارب لا تملكه يا متولى ؟

☆ ☆ أستأجره وإذا لم ادفع للمالك بعض الأجر المتبقى يأخذ ما أعطى. وأنا أستسمحه أن يمنحنى مهلة ليلين لعل البحر يجود فيرحمنا من طرد ومبيت تحت الطل، وامرأتى تشكو داء الصدر.

وتعاهدنا ألا يخذلنى متولى .. فأنا إنسان وأب مثله .. فليمنحنى ثقته .. هو

يحتاج الزاد، كسرة خبز، وأنا أحتاج الحب، قطرة حب .. أنا نقتسم الغربة والمحنة .. لكن ردائى يفصل مابين يدينا .. وجوادى يعلو بى عن عينيه، يخفضنى فى عينى نفسى. يرفضنى عمال الأرض يطاردهم ظلى مقرورا يسألهم قبسا من نار .. جذوة حطب تحت الكانون، أن أشركهم مجلس سمر .. موال «شاى أسود» يرفضنى عمال البر، فهل يقبلنى عمال البحر؟

هأنذا أستجدى المتولى إذ يستجدينى الشفقة .. هل يخذلنى لم يكذب ظنى، فتحاببنا .. والتمعت عيناه الغائمتان وأمطر صدر بحيرته عشقا واخضرت شجرته هذى المنخورة: أن أصبح صدِّيقا وحواريا للحاكم، والحاكم لايظلم أهل القرية ويحب الفقراء، والخير سيأتى من بين يديه ليعم العالم، هذا الحاكم مبعوث للمتولى من عند الله لكل الناس، فليحفظه الرحمن. أضحى الضابط منذ الليلة بطلا فى عينى (متولى) وعيون الصيادين الفقراء .. وأضحى متولى فى عين الشاعر وبصيرته رؤيا .. وبحيرة، أضحى بطلا للبؤساء الموعودين ..

تعوّد (متولى) أن يبيعنى قدر وجبة من السمك كلما جادت عليه السماء ورضى البحر. وكان يلم بالدار الصغيرة التى اكتريتها بقرية كفر فيشا على شط البحيرة عوضا عن تلك المجاورة لنقطة الشرطة. وقد طابت لى سكنا بالليل ومقيلا فى ساعتى العصر بعد إنجازى العمل بالنقطة من الثامنة صباحا إلى الثانية بعد الظهر، مالم يقع حادث- وهو أمر نادر- يستغرق ضبطه وتحقيقه طوال النهار، ثم أعود إلى مكتبى فى السادسة مساء لقضاء ساعتين أو ثلاث أو أكثر وفقا لحجم العمل: استكمال محاضر تحقيق، كتابة تقارير وغيرهما من الإجراءات الإدارية أو أداء دوريات المرور النهارية مع الجنود السوارى للرقابة وإجراء المعاينات. ولم أكن أدع (لبلوكامين) النقطة غير دور ضئيل من العمل لايتجاوز القيد بإشرافى فى دفترى الوارد والصادر وغيرهما من دفاتر النقطة، شأنه فى ذلك شأن نظيره فى النقطة السابقة. ورغم ما كان يشكله ذلك من عبء إضافى على كاهلى، فقد كان يزيح عن ضميرى هما ثقيلا.

تأملاتى الليلية عبر الإطلال على البحيرة من مجلس وحدتى أمام منزلى أو من الشرفة الأمامية للدار التى تشبه (المصطبة) إذ تعلو الأرض قليلا، أتاحت لى إرهاف الوتر الشعرى الجديد الذى ولد يوم كتبت قصيدة (ضابط فى القرية). وتحت ضوء ذبالة المصباح الزيتى- كلما تركت مجلسى استعدادا للرقاد- قرأت بعض الكتب والدواوين التى تزودت بها من القاهرة فى أثناء الراحة الأسبوعية. وكان زادى قليلا من الثقافة بأنواعها من قبل إذا قورن بما كنت أتطلع إليه من معرفة واسعة عميقة إذ امتص العمل والصراع الهامشى والقلق بسبب التشتت العائلى كل وقتى. زارنى فى تلك النقطة الشاعر عبد المعطى وأقام معى كما شاء بضعة أيام فى البيت الريفى. كانت أوقاتا ندية بعطر الشباب والشعر والأحباب، ولست أدرى هل يذكر اليوم بعد

أن تفرقت بنا الطرق، أم ماتت الذكرى مع كثير مما دفناه بأيدينا خلف صناديق الصدور؟ التقينا بعدها فى أثناء ترددى مثل ريفى خجول على بعض المجلات والصحف بالعاصمة لنشر أشعارى، ولكنه كان منشغلا دائما فلم نتبادل غير كلمات قليلة، وبدا أن هذه الذكرى الباردة الصغيرة قد وئدت إلى الأبد فى عالم المدينة الكبيرة ذات القلب الدافئ بالأمانى الحسان والشجون الحرار .. ولم يكن لى مكان.. ولماذا أشفق عليه من الإفصاح عن طبعه وأسلوبه؟ لقد أكدت لى الأيام ولغيرى أنه انتهازى مخادع لا أمان له ولا عهد، وأنه المولع بالأكل على كل الموائد والذيل اللصيق بالسلطة أيا كانت إذا الريح مالت مال حيث تميلُ، فلا يتورع عن عقد أية صفقة فى سبيل أطماعه وأحقاده.

وفى تلك الدار المطلة على البحيرة، والتى مازلت أذكرها كحلم جميل برغم أنها لم تعد أن تكون كوخا صغيرا من الآجر (الطين النئ المحترق) .. أمضيت مع أسرتى لأول مرة شهرين والوقت كان صيفا مما أتاح لزوجتى التى تعمل بالقاهرة فى سلك التعليم أن تزورنى مع ابنتنا الصغيرة نجلاء .. كانت نجلاء قد استكملت عامها الثانى. ولاتنسى الأم حتى اليوم سعادتها بها إذ تلعب مع الاطفال تحت شجرة الجميز العجوز أمام البيت وكم نعمنا بثمرها. أما أنا فلا أنسى دموع هذه الأم فى أيامها الأولى بالقرية إذ ترى صغارا يقتاتون بالأسماك الصغيرة التى تشويها أمهاتهم البائسات دون أن ينزعوا أشواكها، فلا خبز ولا غموس. كنت أقول لها كلما بكت: عودى إلى القاهرة فلن تحتملى العيش معى هنا.

وكأنما انتزعت أكثر من حقى إذ سرعان ماهبت العاصفة فى أعقاب أيامى الهادئة تطاردها، وتحول البحيرة الراكدة إلى ساحة صراع همجى لا يرحم الضعفاء. إن مهمة الشرطة هى إقرار الأمر الواقع لاتحقيق العدل، فهى مثل القانون- فى الأحوال العادية- وظيفتها أن تمنع بالقوة التغيير، ومن ثم يصبح عملها- حين تكون السلطة غاشمة- أن تحمى الأوضاع التى أقامتها لصالحها الطبقة المسيطرة وتقمع العدل باسم الحفاظ على الحقوق المكتسبة وصون النظام والأمن العام والحفاظ على السكينة والسلام الذى قد يشبه سلام المقابر. فهى سيف السلطان أو هى مخلب

القط حينما تتناقض الغايات بين الحاكم وبين المحكوم، بين الدولة السيدة وبين أغلبية الشعب المسود. هى أداة تنفذ إرادة اليد العليا، ولولا ذلك لفقدت مبرر وجودها واستمرارها. فالطاعة العمياء هى الدرس الأول والأخير فلا عقل ولا عاطفة .. وذلك هو مقياس الكفاءة والأحقية بالمناصب والمكافآت فى ذلك الحين.

حين يثور خلاف على ملكية عقار مثل أرض أو دار أو ملكية منقول، يحمى القانون- ووراء السلطة التنفيذية ممثلة فى الشرطة- الوضع الراهن أى وضع اليد أو الحيازة الظاهرة ولو كانت هذه الحيازة بغير حق، أما رد الحقوق لأصحابها فذلك من شأن القضاء، وقد يدوم الفصل فى الأمر أعواما، ينعم فيها المغتصب بالثمرات ولا يملك المظلوم غير الحسرات ونضوب معين ما قد يملك من بقية مال فى الوفاء برسوم الدعوى وأتعاب المحامى. إن السيف المشرع فى وجه أصحاب الحق المحرومين من الحيازة التى اغتصبت عنوة أو بالحيلة هو القاعدة المرعية التى لا تتزلزل: (يبقى الحال على ما هو عليه، وعلى المتظلم الالتجاء إلى القضاء لإثبات حقه).

ولكن الشرطة إذ تطارد الجريمة والمجرمين من لصوص وقتلة وغيرهم من الخارجين على المجتمع والمعتدين على حرمة القانون الذى ينظم الجريمة والعقاب تقوم بدورها الاجتماعى العظيم فى تأمين الأرواح والأموال، وهى كذلك فى أدائها مختلف الخدمات الإنسانية للجمهور. وفى الاضطلاع بهذا الدور كرست جهدى، وإن افتقدت نفسى إذ يظل التناقض قائما بين الشرطى والشاعر فيما خلق له كل منهما. أما الأزمة التى عشتها فهى تطبيق القانون على الضعفاء فى حين يفلت منه الأقوياء، وهى إقرار الوضع الراهن والحفاظ بالقوة على سلام المقابر، وهذا الدور الذى يعكس طبيعة الوظيفة الشرطية هو الذى حال بينى فى بادئ الأمر وبين رؤية الواقع المفعم بالمظالم فى قريتى فيشا الكبرى وكفر فيشا وأخفاه عن عينى شهرا أو بعض شهر حتى كشفه لى (المتولى) كأنه قطب من الأقطاب فى الميثولوجيا الشعبية وذلك على الرغم من إفنائى عمرى فى تحدى الأمر المفروض قسرا والبحث عن الحقيقة لتغييره، مع استعدادى دائما لأن أدفع الضريبة- إيمانا منى بأن لكل موقف ثمنه وأن المسئولية اختيار- وأن أبدا دائما من جديد كلما منيت بالفشل، وكأنى جندى من جيش العرابيين عاد بعد سبعين عاما ليحارب فى قناة السويس.

كانت البحيرة هى السر المغلق الذى انكشف لى وبؤرة الحدث الكبير الذى فجر الأعاصير بعد صمت القبور الذى خيل لى حينئذ أنه تعبير طبيعى عن الأمن العام فى ظل بقايا تنظيم طبقى لاسبيل إلى مقاومته مالم يفرز جريمة بالمعنى الوارد فى قانون العقوبات، فيكون من حقى حينئذ بل من واجبى أن أتصدى له. ففى تلك الليلة الموعودة أشار لى (المتولى) بيده إلى موقع بعيد من البحيرة قريب من أرض زراعية تستأجرها أسرة يونانية من ملاكها، ومن ثم أطلق عليها اسم تلك الأسرة (عزبة سكتورس)، وقال الصياد العجوز: (هذا هو السد). ولولا ماكان يكنه لى من ود واحترام وما استقر فى وجدان القرويين من الآف السنين من مهابة بل خوف من الحاكم لأضاف المتولى: (وانك لتمر قريبا منه فى دورياتك ولاتراه، لأن السكون السائد يخفى عن عيون الحاكم الجريمة التى ترقد كالأفعى تحته حتى إذا توارى شبح جوادى ليلا أو نهارا أطلت برأسها والتهمت فى أمان أغانى الصغار والكبار العناه الأبرياء، وليس ثمة رجل يجرؤ على الشكوى (للنقطة) أو عند ما تمر بالضابط وعسكره الجياد لتحفظ الأمن للبلاد والعباد:

وهكذا كتبت سنة ١٩٥٧ قصيدة (دم على البحيرة) :

(لا تهبط أدنى الجسر
لا تهبط
ما أشقى صيادا ألقى شبكه
فى بركة دم
وتولى والصيد وفير
لكن الشبكه تنزف دم)

✪ ✪ ✪

(متولى) سأمان الليله
لم يطعم زادا فى يومه
لم يخل إلى أولاده
منذ تبين أول خيط أسود
لم يسلم للظلمة نفسه

ومضى يمشى فوق الماء
صدر عريان وجبين يتشح الهم
والقارب أشلاء عظام منخويه
فوق بحيره
(يا أهل القريه
لا يبرح رجل داره
لا يهبط صياد أدنى الجسر
بئس العيش خضيبا فى بحر دماء
إنى أسمع للريح مناحه
وعويل نساء فى الشاطئ يحملن الأطفال
ورفيقا تحت النجم قتيلا
لم يدع الشبكة تهوى من يده
حتى لفظت جثته الأمواج

ooo

ذهبت أدراج الريح
صيحة (متولى) فى أطباق الليل
لم تجر على شفة القريه
لم تطرق آذان الصيادين
كانوا أدنى الجسر يغوصون
لكن الصيد يحرمه جيران القرية
أدنى الجسر !!

ooo

لم يحك رجال فى عودتهم
عن مصرع فتيان كانوا أصفى
من حبات ندى فوق شراع
لم يحكوا عن عنق تهوى فيسيل الماء
بركة دم

كم نصبت فى قاع الوادى تحت الشمس
تتحدى الصقر على قمته
عن أيدكم شقت بالمجداف طريقا
لتطيلَ حبال العيش
شجت أحناء رفاق من أحباب القريه
كانوا يغشون غمار الموج
من أجل رغيف
لم يحكوا إلا عن أطفال غرقوا
صرعى الآباء
وجدود غرماء فى الصيد
غرسوا أحقاد الأبناء
ooo
مازال على درب القرية صوت يأتى
من جنبات النهر
يعرفه أولاد الصيادين
مازالت صيحة (متولى) عبر الأمواج
(لاتهبط أدنى الجسر
لا تهبط
ما أشقى صيادا ألقى شبكه
فى بركة دم
وتولى والصيد وفير
لكن الشبكة تنزف دم)

(١٩)

البناء الدرامى ورياح النقد التى لم تهب

حين نشرت قصيدة (دم على البحيرة) بمجلة الآداب فى بيروت كان الأمل فى إنصاف النقاد لم يمت بعد فى نفسى. ولكنى كنت واهما فما الذى كان من شأنه أن يؤدى إلى التغيير، والعلل الخفية التى تقف خلف ظاهرة الإهمال أو الاعتراض عن قصد أو غير قصد مازالت قائمة. أستثنى منهم فيما يخص هذه القصيدة الدكتور محمد مندور هذا العالم المفكر والناقد الحر الموضوعى النزيه. كان معلما ورائدا يعرف مسئولية الكلمة ويحارب دفاعا عن الحقيقة دون خوف وكان لذلك أكبر من نظام (الشللية) الذى يحكم المجتمع الأدبى فيحدد قواعده ويوجه مساره بأساليب ذكية ناعمة تقيه عنف رد الفعل، أو اتهامه بالتورط فى مهاترات تخلص هذا المجتمع منها منذ عهد (على السفود) وهو الكتاب الهجائى العنيف الذى ألفه مصطفى صادق الرافعى ردا على أصحاب مدرسة الديوان (شكرى والعقاد والمازنى)، والسفود هو سيخ الشواء.

ألح الصديقان الشاعران البخارى ولطفى أن أحضر معهما ندوة شعرية تقيمها الجمعية الأدبية المصرية ولم أكن من أعضائها أو روادها. فى القاعة انتظم شمل شعراء القصيدة الجديدة بمصر وقلة من أصحاب القصيدة الكلاسيكية .. بلغ الجمع حوالى خمسة عشر شاعرا أذكر من بينهم صلاح عبد الصبور وأحمد عبد المعطى والشاعرة ملك عبد العزيز زوجة الدكتور مندور. وألقى كل شاعر إحدى قصائده وحين وقف الناقد الكبير معقبا تعلقت به العيون والأسماع، كنا فى ريعان الشباب، فالوقت هو بداية الستينات والمنافسة ظاهرة طبيعية فى مثل تلك الندوات، انتظرنا كلمة الحكم وشيخ النقاد. قال إن القصيدة التى شدت انتباهه وحظيت أكثر من غيرها بإعجابه هى (دم على البحيرة) لأنها تمثل النموذج المنشود للشعر الجديد

لطابعها الدرامى. وشرع يشرح ويحلل عناصرها تأييدا لرايه. ثم علق على بعض القصائد الأخرى.

ولا أخفى أن هذا الموقف من رائد كبير لم أعرفه ولم ألتق به من قبل قد غمرنى بالبهجة والسلوان رحمه الله .. كان رجل حق بمعنى الكلمة يجهر به فى عقر الدار التى لاتعترف وتجيد القتل بالصمت لانها لا تؤمن بمبدأ ماوتسى تونج (لندع كل الزهور تتفتح)، بل تؤمن بنظرية (القطبية الواحدة) فإن تسامحت (فبالقطبية الثنائية) وتكفر (بالتعدية) طبقا للمصطلحات المتعارف عليها فى السياسة الدولية، يساعدها على إتقان وظيفتها وبلوغ أهدافها ما لديها من اكتفاء ذاتى من سيطرة على معظم وسائل الثقافة والنشر والإعلام، واستاذية جامعية. ولا يغض هذا الاحتكار وأسلوب تحقيقه من الدور العظيم الاهمية الذى لعبته فى الستينات من قبل أن يتمزق الشمل ويدب الخوف والطمع، فيسكت أفواهم نفسا ويسقط أضعفهم سنة جرى بها القضاء من قديم الزمان، وصدقت فى عصر الطوفان والطغيان وموسم عقد الصفقات فى السبعينات وعشق السفارات.

لقد ذهبت (دم على البحيرة) مع الرياح النقدية الأكاديمية التى لم تهب عليها، حين ظننتها لفرط سذاجتى من مأثورات الشعر الحديث كما قال عنها د. مندور كنت مثاليا وتلك هى الفجيعة، فانتظرت الذى لم يأت قط وخيل لى كلما قرات كتابا، أو دراسة فى ذلك الشعر أنها كسائر شعرى من المحظورات مثل صاحبها. كان الطيبون مثل الناقد السحرتى يتذكرونها أحيانا بكلمة هنا أو هناك فى مؤلفاتهم أو فى المجلات الأدبية وخاصة (الآداب). وجاءت الدراسة التى كتبها أحمد لطفى ومحمد البخارى وتضمنتها مقدمة ديوان (فارس الأمل) ١٩٦٥ لتؤكد حقيقة وجودى الشعرى غير المعترف به من الكبار وأصحاب السلطة الأدبية والمنابر النقدية أو المتنازع عليه فى أحسن الاحوال لأهواء فى نفوس أبناء يعقوب. بيد أن نقادا من سورية ولبنان وفلسطين كانوا يفاجئوننى بمقالات يشيدون فيها بتلك القصيدة على غير معرفة بصاحبها، لا أنسى منهم الشاعر الناقد الفلسطينى يوسف الخطيب الذى اعتبرها مع قصيدة لنازك الملائكة وأخرى للسياب من عيون الشعر الحر. وذلك

فى مقاله نشرتها مجله الأديب البيروتية فى صدارة صفحاتها بعنوان (ثلاث قصائد من الشعر الحديث).

يقول الشاعر إن الناقدان أحمد لطفى ومحمد البخارى فى المقدمة المشار إليها:

يتميز البناء الشعرى فى قصائده بقسمات واضحة، فهو عنده دائما بناء درامى فيه تفاعل وحركة ونبض، يأخذ طابع الملحمة العاصفة، أو القصة القصيرة الوادعة، ويزخر بالحوار وبالترديدات، وتقطيع المشاهد، أو المزج الانتقالى فيما بينها إذا استعرنا لغة سينمائيه فى الحديث عن الشعر.

تبدأ قصيدته بشحنة درامية مركزة تشيع التوتر والإيحاء وتتخطى باهتزازتها الموسيقية مجال الفكر لتلمس الأعماق، على نمط ماتراه فى قصيدة «دم على البحيرة».

وتظل تثير فى نفوسنا الأسى على نمط الشاعر المسرحى الإغريقى، فيذكرنا بهؤلاء الذى مضوا وحماقة المعركة التى راحوا ضحاياها:

(كانوا يغشون غمار الموج- من أجل رغيف- لم يحكوا إلا عن أطفال غرقوا- صرعى الآباء- وجدود غرماء فى الصيد- غرسوا أحقاد الأبناء).

هكذا مضى «متولى» صريع الحقد الأعمى والأنانية والجشع، كما ذهب رفاق أخرون لم يكونوا يعملون ويكدون بالمجداف على سطح الماء إلا لكى يطيلوا حبال العيش وينتزعوا من فم النهر لقمة لصغارهم، ذهبوا لأن جيران القرية الأغنياء كانوا يحيلون ريف مصر بقوة سلاحهم إلى غابة يسود فيها الوحوش.

لكن دم هؤلاء الضحايا تشربته تربه الريف المصرى ثم نبتت منها أسطورة تحكى عن ماض لم يبق منه إلا حكاياه، وأسماء ضحاياه محفورة فى ذاكرة الأبناء الذين أشرقت عليهم شمس الحب:

(مازال على درب القرية صوت يأتى- من جنبات النهر- يعرفه أولاد الصيادين- مازالت صيحة «متولى» عبر الأمواج: لاتهبط أدنى الجسر- لاتهبط).

بهذه الشاعرية الرقراقة استطاع الشاعر أن يشكل أسطورة مصرية من عناصر الريف الأصيل، من البركة والجسر والنهر والشباك والقارب والمجداف، والصيادين

وصراعهم وأحزانهم، وظلمة الليل ونواح الريف. كما اختار لبطله اسما أسطوريا أيضا هو «متولى» بكل مايحمل من شحنات ايحائية حيث يعنى الراحل. كما يشير إلى الولى الشهير «سيدى المتولى» ثم إنه أطلق الصرخة أولا على لسان متولى محذرا وحاكيا، ثم يفاجئنا بأن متولى هو نفسه القتيل، فنحس عودة الروح التى يؤمن بها الريفيون وترددها على مكان القتيل ومحادثتها للمارة. ونحس وفاء أهل الريف لموتاهم، وحديثهم عنهم الطويل المتكرر فى الليل، وبقاء ذكراهم محفورة فى قلوبهم، بل إن عيونهم لتظل ترى صورة بحيرة الدم الكبيرة على وجه الماء، كما تظل أسماعهم أسيرة هذا اللحن الحزين:

(ما أشقى صيادا ألقى شبكة– فى بركة دم– وتولى والصيد وفير .. لكن الشبكة تنزف دم).

(لاتهبط أدنى الجسر– لاتهبط– ما أشقى صيادا ألقى شبكة– فى بركة دم– وتولى والصيد وفير– لكن الشبكة تنزف دم).

بهذه الصرخة الملتاعة المتموجة التى تتعدد فيها الأنغام وتتداخل كما تتداخل أمواج النهر، وتتصارع الأسماك مع الشباك، والموت مع الحياة، والقدر مع الكفاح، نحس المأساة كلها، مأساة غائمة لاتلبث القصيدة أن تبدأ تبسط أحداثها بإيجاز شعرى، بلقطات كاميرا سريعة لاهثة خلف إنسان صياد (لم يطعم زادا فى يومه) (أو يخل إلى أولاده)، ولم تقف الظلمة بينه وبين الاندفاع فوق الماء ساريا وراء السمك الهارب .. حتى إذا اقتربنا من الصورة لم نجد فى القارب غير أشلاء عظام وبقع دماء، وعصفت الموسيقى بنواح الريح وعواء النساء على الشاطئ.

وتنتقل «الكاميرا» فجأة من وجوه النساء وتستقر– بعد ضيعة صيحة «متولى» وسط الريح والظلام– على وجوه الرجال وقد غاصوا تحت الجسر. ويصعد الشاعر إلى قمة المأساة حين يعلن فى تمزق:

لكن الصيد يحرمه جيران القرية
أدنى الجسر

لقد حشد الشاعر عناصر المأساة حشدا يشيع التوتر والقلق، وتكاد أنفاس القارئ

تتمزق وهو يتلهف على معرفة مصير هذا اللقاء المحموم بين جثة الرفيق القتيل، والأمهات النائحات، وأبناء القرية الذين يتحدون الموت ويغوصون إلى الأعماق لينتزعوا رزقهم، وجيران القرية الذين يترصدون بالموت هؤلاء الصيادين.

ويلجأ شاعرنا إلى نهج المسرح الإغريقى القديم الذى يحرص على إخفاء الأحداث الهائلة البشعة وإبعادها عن خشبة المسرح ثم يحكيها بعد وقوعها على لسان ملتاع، بل ويحكى هو بدلا من الذين شهدوا المعركة فخرجوا منها وقد أعجزهم الصمت وثقل عليهم الأسى ..

واذا كنا قد اخترنا هذه القصيدة فلأنها تتضمن اكبر قسمات البناء الشعرى فى شعره: هذه البداية المتوترة وهذا النسيج الدرامى المشدود على نمط سينمائى أحيانا تتقطع فيه المشاهد وتتداخل كما تتعدد فيه الأنغام الموسيقية وتتعانق أو تتمايز وتتكرر منفردة، وترتقى فيها الشحنة الدرامية على نمط مسرحى حتى تبلغ الذروة ثم تعود تفرغ شحناتها فى جو نفسى هادئ، وان اختتمت دائما تقريبا بهذه الخاتمة المشرقة العاصفة كنهاية السيمفونية الكلاسيكية فنحن نرى اكثر قصائد هذه المجموعة تمضى على هذا النسق، وتتلون بنفس القسمات، وإن تكن رائعتا الديوان: «ضابط فى القرية» و«الصياد اليابانى» هما اللتان تمثلان أعظم تمثيل ذلك البناء الملحمى الشامخ العملاق.

حين أستعرض اليوم شريط التجارب الفنية التى مررت بها والتى كانت انعكاسا لأحداث حياتى وتحولاتها ثم تشكلت هذه الأحداث وتلك التجارب مع تعمق الوعى الاجتماعى وتطور البناء الفنى حتى غدت نسيجا واحدا متعدد الألوان والسمات من خيوط مجدولة تتحقق فيها العلاقة العضوية بين الشكل والمضمون، أتبين أن أهم مغامراتى فى القصيد الشعرى الحديث هى قصيدة: (دم على البحيرة). ويخيل إلى- بعد انقضاء نحو ربع قرن- على كتابتها أننى لو عشت هذه المغامرة وصغتها اليوم لما تغيرت كثيرا عنها بالأمس البعيد. إنه مجرد افتراض لأن الماضى لايعود وكل شئ فى تغير، ولكنه مع ذلك افتراض ممكن التحقيق، لأن روح (متولى) مازالت قابعة فى صدور الذين جاءوا من بعده، والشباك مازالت متهرئة، وكفر فيشا كالعهد بها، وربما رصف الطريق الموصل إليها مثلما رصف طيق كمشوش، أما (المتولون) فمازالوا عراة يقتات أطفالهم بالأسماك الصغيرة ويضنون بشوكها أن يلقوا به فى التراب، ويغوص الرجل حتى قاع البحيرة ليصطاد سمكة قد يدفع حياته ثمنا لها.

يوم ٢٣ يولية كان قصيرا والليل كان طويلا فى سيناء، والأيام العشرة المجيدة لبورسعيد كانت حلما لم يستعد. فلم تتغير الشرائح الاجتماعية إلا قليلا، تزعزعت دولة الإقطاع بعد ضربات يولية، ولكن الفئران الصفراء تسربت إلى البذور التى غرست فى التربة الجديدة، وأعملت فيها امتصاصا ونهشا بخراطيمها الدقيقة بعد أن تحولت إلى جراد، ولكن قاعدة التغيرات الاجتماعية ظلت متماسكة، ورغم الفساد الذى دب فى بعض مواضعها فقد وقف القطاع العام عملاقا يصد غائلة الجوع ويمول الحروب التى فرضت على ٢٣ يولية، حتى إذا ماجاء الطوفان فى السبعينات وظهرت الطبقة الرأسمالية الطفيلية بدأت القواعد تميد و(متولى) يعود من جديد وإن لم يكن قد غاب إلا قليلا. فلا واقع العلاقات الاجتماعية الذى كتب هذه القصيدة قد

تغير إلى الافضل. بل لعله ارتد وأصبح فوضى، ولا الشكل الفنى للقصيدة الحديثة قطع شوطا أبعد مما بلغته (دم على البحيرة) على الأقل بالنسبة لى، حتى أبدع اليوم تجربتها فى صورة أكثر تقدما.

وإنى لأشعر بالندم أو الأسى كلما تذكرت أنه كان ينبغى على أن التقط راس الخيط من تلك القصيدة الدرامية لأكتب فى المسرح الشعرى الذى طالما حلمت به، وإن كان ذلك أقرب إلى الوهم منه إلى الحلم بالنظر إلى استحالة تحقيقه فى ظل الظروف المعقدة المعوقة التى اكتنفت مسيرتى، والإحباط الذى كاد أن يصيبنى وكان يجثم على أنفاسى من ممارسات أصحاب الحركة النقدية .. وطالما صاح بى فى ذلك الزمن البعيد صديقى أحمد لطفى هذا الشاعر الناقد الفنان المتواضع الذى لايمارس قدراته النقدية النادرة قائلا: (اكتب فى المسرح .. أكتب اكتب، فأنت تملك الحاسة الدرامية) .. ولكن السؤال الذى كان ينبغى أن يطرح أيضا هو (متى؟) لقد كنت كثيرا ما أخمد صوت الشاعر حينما يأتينى ليلا كى أنام بضع ساعات تتيح لى الاستيقاظ مبكرا لاستئناف العمل الشاق فى اليوم الجديد، ولاجديد تحت الشمس، فمازالت الساقية والطاحون.

أما إذا عجزت عن إغلاق النافذة فى وجه العصفور الطيف، وهرب منى النوم، فقد كان العقل الباطن يدفعنى إلى محاولة الجمع بين النقيضين، فتأتى قصائدى قصارا .. شحنات تتفجر شظايا حتى يدرك شهرزاد الصباح، فأستقل المركبة إلى (قسم الشرطة) أو(ديوان الوزارة) العتيد، وقد أحسست بالراحة بعد أن نفضت عن القلب ما أثقله وتطهرت روحى فلم أمت غما ولا قهرا.

التقيت بنماذج أخرى من الصيادين فى بورسعيد وفى كفر الشيخ وفى الإسكندرية، كما قرأت عنهم أعمالا أدبية عربية وأجنبية وشهدت أفلاما سينمائية محلية وعالمية، ولكن نموذج (متولى) ظل نسيج وحده إذ يختلف عنهم جميعا لأنه لايعدو أن يكون رجلا ريفيا بائسا ينحدر من أصلاب الفلاح المصرى القديم. وقد يغير مهنته ولاتتغير طبيعته إلا قليلا فهو أرض مصر ونيلها، وهو خالقها وضحيتها هو المتولى المنذور للبناء للآخرين وللشقاء لنفسه مثلما صوره بيرم

التونسى وأحمد فؤاد نجم. والبحيرة أو البركة التى ورثها واحتضنها حتى الموت هى جزء من هذا النيل وتلك الأرض.

نموذج يختلف كل الاختلاف عن نموذج الصياد البحرى الذى نعرفه فى الموانى والسواحل. هو مقاوم عنيد ولكن مقاومته ليست وجودية، بل قدرية .. مقاوم بالغريزة مثل الكائنات الدنيا لايتغير حتى تنضج الظروف التى ترد إليه إنسانيته من طريق تزويده بالكلمة والوعى فمتولى ليس هو شيخ همنجواى فى (العجوز والبحر) ذلك الإنسان المسكون بالتحدى والذى يبحر فوق البحر لاتحته. ليكن الفشل حليفه فى نهاية المطاف، ولكنه يجعل لحياته بهذه المغامرة معنى مهما تكن النهاية .. لقد تحقق مشروع هذه الحياة فى البحر قبل وصوله إلى الشاطئ؛ وتحول السمكه القرشية التى عاد بها كاملة إلى هيكل عظمى !!

أصبح (متولى) والصيادون من رفاقه عالمى. فكنت أراهم أينما وليت وجهى فى القرية، ثم عادوا معى إلى المدينة، ومازالوا فى ثيابى حتى اليوم. لأن القرية التى تسكنهم ويسكنونها وتسكننى معهم لم تتغير. وقد أمدنى واقعهم بأخصب وأغرب من الخيال حين استلهمتهم أشعارى. فالواقع غنى لمن يراه ويعرفه، ولقد رأيتهم وعرفتهم. ولايعنى ذلك أننى حملت كاميرا شعرية وصورت الإنسان والمكان والزمان، فحسب الواقع أنه كان يمدنى بخيط رفيع أو عدة خيوط لأنسج منها شبكتى الشعرية، أحذف بعضها. أعدل بعضها الآخر أو أضيف إليه أو أمزج بينهما وفقا للعملية الإبداعية التى تتم بين حالتى الوعى واللاوعى.

لقد وقعت الأحداث التى رويتها فى (دم على البحيرة) ولكنها لم تنته بالمذبحة التى جاءت فى القصيدة، فالأداء الفنى هو الذى اقتضى تدخلى لوضع هذه النهاية التى لم تحدث فى الواقع. وكانت البداية حينما عاينت الموقع الذى أرشدنى إليه متولى بالإشارة دون أن يصحبنى حتى لا أعرضه للضرر أو الخطر وقد أفهمته أن يبقى الأمر سرا بيننا. ولكنه لم يعرف كيف يكتم السر، فقد طفحت نفسه وربما لأول مرة بثورة عارمة من النشوة والأمل وكأنه رأى السلطة ثمرة تسقط فى سلة الشعب أو عصا موسى التى تقتل كل الأفاعى التى تملأ السلة. وقد كان المتولى مثل كل رفقائه يحب سماع الترتيل القرآنى.

كان هنالك عائق من الحجارة والتراب والشنابر والسيارات التالفة أقامته جماعة من الأقوياء على البحيرة عند أضيق موقع فى مجراها كى ترتطم به الأسماك فى حركتها جيئة وذهابا ومن القاع إلى السطح وبالعكس، فيسهل عليهم صيدها فى شباك كبيرة متينة، على حين يضار الصيادون الريفيون الفقراء من نقص الثروة السمكية فى سائر نواحى البحيرة، ولا يجرءون على هدم هذا السد المحظور قانونا مخافة بطش أصحاب هذا الإقطاع الريفى فى عالم الصيد النيلى.

توترت الحاسة عندى وأدركت أن أيام صفو (فيشا الكبرى) آذنت بمغيب. فها هو ذا أمر واقع بشع أشارك مع الجميع- إلا النموذج المتولى الضحية- فى حمايته وإقراره. أعرف أننى مثل كل مرة سأحارب وحيدا وربما أغدو مثل بطل سرفانتيس ولكن لا بأس فربما أمسى مثل بطل همنجواى، فقد طالما كنته إذ تعودت أن أجد نفسى فى مثل هذا الموقف فأحققها، أعنى أحقق ذاتى ووجودى أن ولم أقل وظيفتى الاجتماعية.

لقد أنشأت وزارة الداخلية فى تنظيمها الحديث مصلحة جديدة أسمتها (شرطة المسطحات المائية) وعهدت إليها مكافحة الجرائم التى تقع فى البحر أو النيل كالتهريب بأنواعه المختلفة: النقد، السلع، المخدرات. ومن هذه الجرائم أيضا اقامة سدود تعوق مجارى المياه. ولكن هذا الإختصاص كان معقودا فى زمنى لمصلحة المصايد التابعة للجيش، وكان لها فرع فى مدينة (القناطر الخيرية) حيث يتفرع النيل. وتتبع هذا الفرع المنطقة التى تضم بلدان نقطة الشرطة (نقطة فيشا). وحين سألت المتولى علمت أن دورية من الأفراد المسلحين برئاسه صول (مساعد ضابط) يجيئون من القناطر حينا بعد حين، ويحررون (محاضر مخالفات) له ولرفقائه لانتهاكهم حرمات القانون كلما ضبطوا فى القارب واحدا أو اثنين أكثر من العدد المقرر، أو وجدوه مستخدما فى غير الغرض الذى شرع له (مثل حالة متولى). ويعاقب على هذه الجريمة بغرامة مالية !!!

ولم يكد يمضى يوم حتى أبلغنى (جاويش النقطة المنوب) بناء على أمر سابق أصدرته إلى قوة النقطة من عساكر وخفراء- بقدوم دورية من مصلحة المصايد للمرور بالمنطقة وأن رئيسها قد حضر لمقابلتى كما طلبت.

☆ إنى ألقاكم فى هذه القرية أول مرة .. ماذا تعمل ؟

☆☆ أعمل ما يمليه القانون الأعلى ويحتمه الواجب.

☆ زدنى علما

☆☆ نجرى تفتيشا حتى نستوثق أن القارب لايحمل أكثر مما قرره القانون.

☆ فإذا أوى فيه الصياد امرأة وبنين صغارا هم أسرته ليس لهم سقف غير سماء القارب؟

☆☆ إن القانون هو القانون كما تعلم

☆ هل طفتم من قبل بهذى القرية وبحيرتها؟

☆☆ حسب خطوط الدوريات نمر، وهذى الدوريات كعلمك ترسم سرا فى الميقات فلا يعلم بالأمر الصيادون الأشرار، وقد طفنا مرات فى العام الماضى، ونوالى هذه السنة العمل، وها أنت ترانا بالأزياء الرسمية والأسلحة (الميرى).

☆ هل تعرف (عزبة سكتورس) ؟

☆☆ أعرف هذى المنطقة وبركتها شبرا شبرا تحت الماء وفوق الماء.

☆ أو لم تلحظ أن هنالك محظورا تنهى عنه لائحة الصيد؟

☆☆ (الكل تمام) حسب تقارير الدوريات

☆ بل تعرف أن هنالك سدا قرب العزبة يعترض مسيل الماء الجارى، فلماذا لاتضبط سيده أو سادته المعلومين لديكم، وتهد السد؟

☆☆ عند الله تعالى العلم، وعند الرؤساء، ومثلى يجهل لكنى سأعيد مرورى كى أتحقق من هذا الأمر وأخطركم بعد استئذان قيادتى العليا. أما أنا إلا عبد المأمور يقول فأفعل أو يفعل فأطيع. قد خلق الله العالم درجات.

☆ أنتظر حضورك فى الأسبوع الآتى؟

☆☆ أنظرنى أسبوعين .. خلق الله العالم فى ستة أيام وأنا عبد لا أملك من أمرى شيئا.

☆ بل أسبوعا.

☆☆ أفعل إن شاء الله.

انصرف الرجل مهرولا وهو- فيما بدا- لايكاد يصدق نفسه وكانت المفاجأة أن يأتي- مرة أخرى- بعد أسبوعين أكثر ثقة بنفسه، وادركت أنه تلقى (التعليمات اللازمة) .. سايرني في ضرورة تنفيذ القانون:

☆ سيدى الضابط أمرك عين العقل .. ملعون هذا السد المجحف بحقوق صغار الصيادين، ولائحة الصيد كمثل الميزان المرسوم على رأس القاضين يسوى بين صغير وكبير، بين ضعيف وقوى فى الحكم، والرب الصنمى الإغريقى المعصوب العينيين رمز العدل، وكذلك لائحة الصيد .. فاصدع بالأمر.

☆☆ هل أفهم أنك نفذت القانون العادل وهدمت السد؟

☆ أنّى أهدم هذا البنيان القائم منذ سنين فى أسبوعين؟ لاتقوى أفراد الدورية أن تضطلع بهذا العبء.

☆☆ أفصح

☆ أشركنى وانصرنى برجال من عندك

☆ هذى النقطة لا تتجاوز قوتها نصف رجالك والأسلحة لديكم أوفر

☆☆ تجنيد الخفراء جميعا من كل بلاد النقطة يكفل تنفيذ الحملة فلتأمر وعلينا أن نتعاون معكم.

كان (المساعد) الخبيث يناور، ولم أكن أملك شيئا حياله، يكفينى أن يغرب وجهه عن القرية والبحيرة. فاستدعيت شيخ الخفراء وأفهمته بموافقتى على مطالب المساعد، واتفقنا على يوم محدد للتنفيذ، ولكنه. كما كان متوقعا لم يرنى وجهه بعدها قط غير أن الصيادين جميعا ادركوا أن حرمة السد قد استبيحت منذ تلك الليلة. وكانت تحمى السد والصيد الطالع منه بنادق أخفاها عتاة الصيادين فى أكواخ

(اخصاص) أقاموها على أحد شطى البحيرة. فأطلعت ضابط المباحث على الأمر، وقمت من جانبى بإجراء التحرى عن السلاح المحرم ومكامنه وأصحابه، والتنبيه على الخفراء والجند بالتعاون معا فى هذا الشأن.

ولم تلبث الأمور أن تطورت بل انفجرت فكادت تتمخض عن فتنة، ليست طائفية مثل فتنة نقطة الشرطة الأولى على عهد الحاج العمدة، بل فتنة طبقية طرفاها أغنياء الصيادين الذين يملكون أراض زراعية فى نفس الوقت والفقراء، إذ أشاع متولى بين رفقائه أنى حامى الحمى، وأنى رجلهم القوى، فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون. فأرسل أحدهم شكوى بالبريد وجدتها بين الأوراق يتهم فيها صيادا آخر تبين أنه من شيعة الأقوياء بالاعتداء عليه بالضرب والإهانة، فأرسلت فى طلب المتهم للتحقيق، شأنه شأن غيره ممن تقدم للشرطة شكاوى ينسب فيها إليهم فعل يجرمه القانون ومضت أيام دون أن يحضر، وقرر الخفراء فى محضر التحقيق أنه فر هاربا من بلدته إلى مكان مجهول منذ أن علم بأمر الشكوى وماشاع من أمرى.

وفى ليلة لاتنسى اشتعلت القريتان– الساكنتان منذ قدمت– ضجيجا وصيحات لم أتبين فحواها فى حينها وأيقظنى الخفير (المراسلة) وهو ينبئنى أن قرية فيشا الكبرى مقر النقطة خرج كثير من أهلها، ومنهم أقرباء الصياد المطلوب للتحقيق، يحمل بعضهم سلاحا والبعض الآخر عصيا، وقد تهيأوا لركوب (المعدية) إلى قرية كفر فيشا حيث يعيش معظم الصيادين الفقراء ومنهم الشاكى وحيث يقع مسكنى، يريدون أن ينتقموا من هذا الذى تسبب فى تشريد واحد منهم أعز نسبا وأعلى مقاما وسرعان ماجمعت الخفراء والعسكر وبعض مشايخ البلدين وعمدتيهما فتوافدوا تحت ضوء المصابيح الغازية التى غمرت الشاطئين، حالوا معى دون (الإخلال بالأمن) وذلك بالتفريق بين الجانبين المتنازعين، عن طريق الحيلولة دون استعمال (المعدية) للعبور إلى كفر فيشا، وإفهام الثائرين أن صاحبهم غير متهم بأمر خطير، وله أن يعود آمنا فتتخذ فى شأنه الإجراءات المعتادة فى مثل تلك الحال.

فلم يقع فى الحقيقة ذلك الصدام الدموى،وإنما كان موشكا على الوقوع سواء فى تلك الليلة أو غيرها. لذلك فإنى تصورته دائما ماثلا أمامى، ثم رأيته مشهدا من

مشاهد قصيدة (دم على البحيرة) التى لقى فيها متولى حسبما تخيلت مصرعه وخرجت من القصيدة لأدخل من جديد فى عالم الواقع بعد أن مرت العاصفة بسلام وماتت الفتنة. ولقد نور وجه (المتولى) بالبشر وطابت له أوقات وسمر، فتابعت معه الرحلة، واستوحيته قصائد أخرى جاءت كأنها تنويع على القصيدة الأولى وإن اختلف بعضها عنها فى الجزئيات والمناخ والقيم الفنية، لاختلاف (متولى) عما كان عليه أول مرة نظرا لارتفاع روحه المعنوية، وإيمانه بقدراتى إيمان العجائز.. لم يختلف النموذج بالطبع، وإنما تعددت صوره وتباينت حالاته. أما جميع الصيادين فكانوا يحملون ملامح متولى الأصلية .. ملامحه الأولى.

وهكذا كتبت قصيدة (قصة صيادين) ١٩٥٧، أصور فيها المأساة فى العيش والبطولة فى موقف المقاومة عبر لياليهم وأيامهم الطويلة، ومواويلهم وسخرياتهم الصغيرة بأصحاب مهنة الزراعة، وحظوظهم مع السمك فى الليلات القمرية، وعاداتهم وتقاليدهم فى رحلتهم المضنية، لوحة فى بؤرتها هذه الشريحة من البشر وخلفيتها طبيعة المكان فى تلك المنطقة من دلتا مصر، والماضى والآتى فى الزمان:

كثبوا فوق حوافى الموج
قصة جبارين عناة
تلفظهم ظلمات اللج
أحياء صناع حياه
يطفون على شط العمر
أنفاسا حرّى الأشواق
وقواربهم عبر النهر
مهج ترتاد الأعماق

❂ ❂ ❂

ميراث الأجداد رياح تعزف
ومجاديف على اليم ترفرف
ووجوه فوق الماء تجالدها الأمواج
غاب مشتجر الأرماح

لايحنى جبهته للريح
لا يوهن صخرته الموج
والنوء الشاتى قلب يخفق
وضلوع تتمزق
وشموع من لهب أزرق
يوقدها نجم طاف فى ظلمات الأفق
وحكايا فلاح أخرق
يرويها فى الشط المعتم
صياد معدم

○○○

مازال الركب يعانى الويل
ودروب الماء تغشيها الأشباح
غامت حتى فى عين الملاح
والمد الزاحف منذ الليل
أقدام تنقلها مردة
والشط شجيرات غضة
ووساد صبى ضائع
ونقيق ضفادع
ورياح

○○○

هل ينحسر القمر الرانى
من شرفات الليل الفضى
ويعود الظل إلى الأرض
فالصيد النازح يهوى القمراء على النهر

وعيون الشبك الليلة تغفو
لكن الأطفال عيون تهفو
وشفاه تلعق مر الصبر
ومضى صياد عار يلعن سحر القمراء
ويلملم أحبال شباكه
معتنقا ألواح القارب
حتى الفجر
مرتقبا وجه الرحمن
الطالع صيد هارب
لكن الله ولى الجائع والعريان

❂ ❂ ❂

ماذا ينتظرون؟
ماذا ينتظر الجمع الرابض فوق الموج ؟
وقواربهم تذروها الأنواء
وليالى الصيد مواويل كئيبة
يحكيها ناى فى الشط حزين
وامرأة تقبع فى قارب
كفاها فوق الخشب العانى
تضرب ألحانا للصيد رتيبه
لكن السمك الهارب فى قاع الماء
لا يهفو لنداء

❂ ❂ ❂

لن يفترق الشمل
لن يهوى مجداف من أيدى جبارين عناه

فلتطبق أشباح الليل
لن تعنو للريح وجوه نصبت
فوق الموج تجالد حتى الصخر
ولتعصف ظلمات النوء الشاتى
لن تسكن دقات قلوب صمدت
فى وجه المقدور العاتى
لن يفنى إنسان يصنع أيامه
من ذوب الأنفاس الحرّى
وتضئ على الموج ظلامه
عينان تشعان الفجرا

(٢٢)

ملك الصيادين

أذنت الأيام الطيبة فى قريته فيشا بالرواح مذ صحوت على صمت الصيادين وهم مصففون كالأشباح فى قواربهم عبر البحيرة، لايقطع هذا الصمت إلا صمت الشباك إذ يلقون بها فى الماء، ودقات نسائهم فى بعض الليلات على جدران القوارب حتى إذا اقترب السمك من السطح اقتنصته عيون الشبك المنصوب ... دقات مازالت تتردد فى سمع الذاكرة تحمل من الحزن أكثر مما تحمل من البهجة، أصوات استغاثة ممن تقطعت أنفاسهم، واستعطاف للصيد السارب فى رتابة الموال وأنينه .. هنا تتمثل العلاقة الإنسانية الصحيحة بين الرجل والمرأة صيادين أو أجراء زراعيين، كلاهما شريك حياة الآخر يقتسم معه العمل فى رحلة الحياة أو الموت، والأبناء والبنات الصغار ينتظرون العودة فى جحر الدار، رزق يوم بيوم، فتوكل والأجر على الله.

كفاحهم نزيف فما أقصر رحلة العمر، والصبية يودعون أحضان الأمهات مبكرين لينزلوا إلى البحر دون أن يمروا بالطفولة، كى يحملوا عن الآباء المرضى بالبلهارسيا أو «البالاجرا» أو ضيق النفس عبء العيش المرير وإتاوة الحكام فى قرية بعيدة عن المدينة، فلا إسعاف أو مستشفى، وليس غير طبيب الصحة الذى يظهر أحيانا كى يحرر شهادة الوفاة عند موت إنسان دون أن ينتقل فى معظم الأحيان من مكتبه الحكومى إلى دار المتوفى ليفحص الجثة. إذا اشتعلت نار من (كانون) فأمسكت بالأحطاب على الأسقف- وهى ذخر الفلاحين- استدعيت فرقة المطافئ من (البندر) وكثيرا ماكانت تصل بعد احتراق كثير من الدور والغلال لأن المهم هو إثبات قيامها بدفتر الأحوال محملة بطاقمها ثم إثبات عودتها بالسلامة، سلامة هذا الطاقم البشرى وما فى ذمته من (عهدة رسمية): السيارة .. السلم .. الخرطوم والخوذات، وفى الجعبة مع العائد تقرير أولى عن الخسائر البشرية والمادية والسبب المحتمل للحريق: أهو من (فعل فاعل) أم هو (قضاء وقدر) .. رجال شرطة بواسل يقتحمون

الدخان والنار ولكنهم يصلون غالبا بعد فوات الأوان لسوء وسائل الاتصال والانتقال.

فى تلك القرية شهدت الحريق أول مرة باستثناء حادث غامض يرجع إلى أيام الطفولة ويحتاج الى شحذ الذكرى لاستنطاقها، فلم أعد أحتفظ إلا بخيال ألسنة اللهب و«الفرن البلدى» الذى كان مبنيا فى ركن من غرفة بيت الجيران فى شبرا إذا لم تخنى الذاكرة، وكانت النساء ومنهن أمى يخبزن. يضعن العجين بعد أن يشكلنه أرغفة فى فم الفرن عبر «مطرحة» خشبية طويلة لإنضاجه. وكم كان يلذ لنا أن نأكل الرغيف ساخنا بعد ان تضع عليه الأم بعض السكر (السنترفيش) أو السمن، وأولادها فى انتظار يدها على أحر من الجمر .. كان هذا المشهد يجرى ليلا مرة كل أسبوع أو أسبوعين .. كان عيدا لنا ولاسيما فى ليلات الشتاء حيث يسرى الدفء فى الأبدان الصغيرة المقرورة، وتتوهج العيون وظلال النار المنبعثة من الفرن تتراقص فى جو الغرفة وعلى جدرانها. وتتحول الأمهات والأخوات الكبريات إلى (كورس هارمونى) من التعاون والمحبة والرضى.

ولكن حريق فيشا كان مفاجأة مفزعة، إذ كنت فى طريقى إلى محطة السكة الحديدية لألحق بالقطار من محطة كمشوش إلى القاهرة لقضاء عطلتى الأسبوعية مساء الخميس، حين لحق بى الخفراء أو الجنود ليبلغونى باندلاع النار فى بيت بالقرية وامتدادها إلى الأسطح المجاورة. وأدركت أى خطر فادح يتهدد البلدة كلها. فمن عادات الريفيين التى يصعب القضاء عليها وضع روث البهائم والأحطاب على أسطح منازلهم المبنية باللبن (الطوب النيئ) ليتخذوا من الروث سمادا للزراعة إذ كان السماد الكيماوى نادرا وغالى الثمن. ومن المناظر اليومية المألوفة أن يسير الصبيان والبنات خلف الجواميس والأبقار ليتلقوا ما تفرزه وتلقى به فى الطريق مثلما يجمعون ثمار الحصاد، ثم تشكله القرويات على صورة أقراص ليدخرنه فوق الأسقف فى سبيل استخدامه وقودا للتنور (الفرن) وسمادا للأرض بعد أن تجففه الشمس. كنز من عطاء سرمدى.

أسطح البيوت التى تشبه الأكواخ الطينية معظمها متلاصق محمل بالأحطاب

الجافة، فإذا وجد طريق ضيق يقسم بعضها صفين متعرجين، فإن المسافة الفاصلة لا تتجاوز مترين. ومن ثم كان المشهد رهيبا، إذ تحولت كومة الأكواخ إلى شعلة من النار يئز فيها الحطب وتزيدها الريح اشتعالا. وتحولت القرية كلها إلى خلية نحل تتقاسم العمل. وكان دورى مع الجنود والخفراء هو التنظيم والحث على أن يؤدى كل دوره، ومنع الصراخ والولولة وكنا نشارك بأنفسنا أيضا وأنا أضع نفسى فى المقدمة ليقتدى بى الآخرون .. نسيت فى تلك اللحظات المتوترة هندامى ومظهرى إذ كنا فى سباق مع الريح والنار والزمن .. النساء والفتيات والصبيان يسارعون بملء الجرار ماء .. لم تكن سيارات الإطفاء التى طلبناها تلفونيا من (البندر) قد حضرت بعد .. كان الجهد كله مركزا على الفصل بين صف البيوت التى اشتعلت والصف المواجه المعرض للاحتراق .... والأخشاب الطويلة التى أدركتها النار على السطح تكاد تمس الناحية المقابلة، فلم يكن بد من إسقاطها على أرض الطريق. لانسمع إلا الأصوات المختلطة وأزيز النار مع الحطب والريح، والوجوه تبدو مع الأجسام كالاشباح المتحركة.

حرمت الراحة الأسبوعية، لكنى دخلت فى قلوب الفقراء حين قمت بواجبى، فشعرت بروح من الطمأنينة والسكينة. ولكن الحريق الأكبر الذى لم أستطع إطفاءه أو المشاركة فى اخماده كان عالم البؤس .. عالم الصيادين. حريق فوق الماء لاتقوى أنفاس شبابى الثائر أن تطفئه .. كفى القوية الممدودة أن تحاصره حريق الحرمان والضياع الذى يخلع رداءه الوحشى على المئات والآلاف من أبائى وإخوتى الطيبيين .. هم منى .. من عظمى ولحمى ونطفتى القديمة، وإن لم أكن منهم اليوم بهيكلى اللامع .. بقبعتى الصفراء .. بمهماز ركابى .. بنجومى الثلاثة .. غاب مشتجر الأرماح– كما وصفتهم فى قصيدتى (قصة صيادين)، ولكنه يحترق رويدا رويدا بالسمك الهارب والنوء العاصف والسد والسادة .. ثيابهم رماد يبيض ليصبح أكفانا وهم يحسبون فى عداد الأحياء ..

يتذكرونهم فيبحثون عنهم قبيل الانتخابات ليحصوهم ويعدوهم عدا، وليملأوا بهم صناديق الاقتراع وصندوق المال للمرشح الفائز السعيد. وقد يدرجون موتاهم

فى قوائم الناخبين لترتفع نسبة الذين أدلوا بأصواتهم إلى تسعة وتسعين فى المائة. فالشعب يحب الحاكم، والحاكم محبوب مرغوب مطلوب من عند الله. المجد لله فى الأعالى والحاكم من روح الله، ظل للخالق فى الأرض، وفى الناس الصيادين الفلاحين الأجراء العمال المطحونين الجوعى المضطهدين المنبوذين البركات الدعوات الأنس وريم الجنة، والكوثر يجرى من تحت الأقدام الحافية الأعواد العارية ليزهر (قملا) فى شعر صباياهم، قمحا فى أجران الفئة الباغية وصيدا فى جوف الحيتان.

حين أحيط بى أيام الفتنة والسد، وبلغ الأمر (المأمور) وشيعته ومضى المندوب السامى الموفد فى جمع من جند لحماية أهل السد الصنم المعبود وإرهاب صغار الصيادين مضى كالشيطان الهارب لم يرنى وجهه، أدركنى وسواس من تجربتى الأولى أن مؤامرة لن تلبث أن تحبك حولى لتطيح العصبة سرا بالرأس المتمرد، إذ نسى المهنة والسترة ومسدسه كى يصبح عريانا ملكا للصيادين. فليلق عقاب السلطة هذا المارق حتى يغدو عبرة.

أسرجت جوادى وحدى وعدوت إلى (كمشوش). واستطلعت بمكتب ناظرها رب محطتها معلومات عن هذا الغيث المنهمر من السمك الطازج و(المانجو) من (عزبة سكتورس) فى أقفاص ترسل من عند رجال السد ـ كبار الصيدين وملاكى الأرض- ترسل طردا طردا للحكام المسئولين عن الأمن شمالا والمسئولين عن الصيد جنوبا، من ذا يرفض أن يهدى مما رزق الله الوهاب العاطى، ورسول الله صلوات الله عليه قبل هديته، والسادة أهل الحل العقد، العقد الحل على سيرته ينتظمون وبسنته العصماء هم يتبعون ولايبتدعون.

أطلعنى (الناظر) عما فى جعبته فى دفتره من أسرار السادة، عن رصد طرود لفلان وفلان منهم طول العام فدونت لدى تواريخ الأيام وأرقام الصادر والمحتويات لأحمى ظهرى يوما قد أصبح فيه هدفا لكبار القوم ويتخلى عنى- عن (ملك الصيادين) الناس جميعا إلا الضعفاء، هل يلتحف العارى بالعارى فى زمن الرشوة والإفك الشيطانى المتعالى؟ هل تسترنى يومئذ هذى السترة والقبعة وخيل (النقطة) وجنونى بالحق وإيمانى بالثورة فى زمن تعلو فيه القوة فوق الحق. فإن ضربت

بالثورة تتحول أفعى ماكرة تلدغ ذا الحق بمأمنه، هل تقوى الثورة حقا أن تضرب رأس الأفعى والذنب بأرض لم تنبع منها؟ هل تملك أن تحمينى؟ أن تحمى (متولى)؟ هل تعرف (متولى) الثورة؟ هل تعرفنى؟ هل تسمع عن سد شرك للصيادين الأحياء الموتى وهى تحارب من أجل بناء السد العالى فى أسوان؟

بالأمس انطلق الرأى العام يدين العمدة هذا الحاج المتصابى حتى استخذى واستسلم مذ ناصرنى القسس الأطهار على عصبته إذ تتستر بالنصرانية وهى براء منهم، ترمينى بالعصبية ضد القبط لقاء كئوس العمدة للفجار المخدوعين المأفونين، ولكنا فى يوم أخر فى بلد أخر أمّرنى فيه الحجاج ليقصينى عن بلد الحاج، ولا أملك إلا الإذعان لما شاء ولكنى لن أعدم حيلة. فأنا صياد بالفطرة والشعر وبالحكمة، والصائد لايعدم سمكه. وأنا (المتولى) و(المتولى) قد لايحيا لكن ليس يموت ولايفنى، لن يسلم للباغى الروح ويحنى رقبته للجلاد المتربص .. حملا كان (المتولى) بالأمس، ولكنا فى يوم أخر طلعت فيه الشمس الراية، والأيام تدور فيولد من أحشاء صراع نقيضين اثنين نقيض غيرهما فيعم العدل الناس جميعا، هل يفنى البحر إذا انحسر الموج إلى الشاطى؟ (متولى) البحر؟



ليس من قبيل الاستعارة البيانية أو التشبيه أن أصف قصيدتي (دم على البحيرة) و(قصة صيادين) وماكتبت قبلهما من قصائد القرية بأنها كانت تهدهد كالبلسم روحي الفائرة، وتخفف من عذاباتي وأوجاعي، فأبتلع مرارة الشعور بالإحباط، وأنا أحارب مثل دون كيشوت طواحين الهواء، وأعلم أن العمل الفردي عبث لا طائل وراءه، وتحققت لدي أيضا صحة مقولة أرسطو في وظيفة الشعر والفنون عامة أنها تطهير النفس. أفرغت في كأسة، كأس الشعر، أو شابا وأخلاطا ومقتا كثيرا كان من شأنها إذا لم تفرغ أن أغص بها وأفقد صفائي.

ولم أحطم كأسي، إذ كان احتراقي بالواقع واحتراقي بالشعر زادا جديدا لروحي ونورا لبصيرتي كلما أوشكت على الشحوب. علاقة جدلية سرمدية. أقرأ صباحا ما أجده على فراشي من شعر كتب نفسه ليلا .. أفيق قرير النفس والعين فأسرح طرفي- إذ أغادر غرفتي- في مياه البحيرة، ألمح في غلائل الشمس الفضية الرقيقة الصيادين الذين كانوا أشباحا ليلة الأمس .. أشهد أطفالهم في مزقهم البالية وابتساماتهم المقرورة وأشواكهم وديدانهم فيعتادني همي. أخمد صوت الشعر إذ أطرق باب (النقطة) وأسمع صيحة (انتباه) يجلجل بها الجندي رقم ١ حتى يستيقظ النائمون من أهل الكهف والمتقاعسون من الجند ويستخفي الصيادون وراء الضلوع أو في العقل الباطن، يدقون دقات خافتة تحت خفقات القلب أو مختلطة بها متبادلة معها القوة والضعف كأنها صدى (نواعير) من بعيد أو أنغام (شواديف) أو دقات نساء الصيادين على خشب القارب.

في الغروب يتولاني الحزن .. يبدأ عرسه .. (في الليل ذكرت من تحبه نفسي ذكرته فأنت عليه أحشائي) .. طفلتي وأمها في القاهرة لايعرفان الحرمان .. ينتظران

لقائى الأسبوعى. ولكن هؤلاء الصغار أبناء (المتولية) هم أبنائى وإخوتى من أبى الذى لم يكمل رحلته حتى ينسبهم لاسمه، عدوهم عدوى وأنا لا أملك أن أنصرهم .. يكفى الا أخذلهم .. أن أشركهم بعض طعامى .. أن أفتح لشباكهم المهترئة بابا .. نافذة فى السد .. سكوتهم ونظراتهم الصابرة كانت صرخات تكوينى .. بعد ست وعشرين سنة من الفراق بيننا أراهم يعودون يزورننى حيث أنا الآن بالجزائر بعيدا بعيدا عن (كفر فيشا) .. أربعة آلاف كيلو متر أو أكثر .. يزورونني مع صور المجاعات الإفريقية التى تنقلها الإذاعات المرئية للعالم كله.

منذ بضع سنين تذكرتهم إذ أقرأ (مائة عام من الحنين) لما ركيز .. لكن صيادى كفر فيشا لم ينبت لأحدهم ذيل مثل صاحب قرية ماكندوالكولمبية .. كانوا طيرا داجنا غير مريش .. تجربتى فى ظلهم تصحبنى حتى آخر الأنفاس. لاأعلم أين (المتولى) اليوم؟ فوق الأرض ؟ تحتها؟ تحت البحيرة؟ هل عاد السد الشيطانى الأغبر؟ وعدت الأولاد أن نزور (كفر فيشا) قبل أن تنطفئ ذبالة المصباح .. وجدث بين يدى قصيدة (أحلام صياد صغير) ذات صباح، والعام هو نفسه ١٩٥٧:

أصواتهم فى الليل دامية الأنين
فى الفجر صفراء اللحون
ووميض نجم شاحب تحت السحاب
نجم صغير
عانى الجبين فلاتحس به العيون
والأوجه المشبوبة القسمات يلقفها السكون
مشدودة اللحظات فى وجه المياه
والصيد رحلته تنوء بها السواعد والجباه
أبدا تغور
فى القاع خلف شباكها أبدا تغور
والقاع يطوى جوفه سر المسير
صندوقه المسحور تحرسه الأيادى الجامده
القابضات على المصير

الغارقات بلجة الليل الرهيب
الصاعدات مع الحياه
الصامدات مع الجموع العانيه
فوق الرياح تطارد الرزق السليب
وبحثها سوط الصراع
فتعانق الريح العتية لاتثور على الجراح
وتجالد الظلمات والأنواء لاتدع الجلاد
ليست تضل وللدجى صمت القفار
أو تستبد بها المخاطر فى العبور
مزق من الإنسان فى كف الضياع
بين الفضاء الزاحف المجهول والعيش المرير
٭٭٭
الليل مشتجر بأعلام النخيل
والعشب فى الشطين يتشح السواد
وعواء ذئب فى الحقول يمزق الستر البهيم
أين الطريق إلى الصباح إلى البكور
والشمس من أشجار قريتنا تطل على الدروب
والعائدون من المراسى يخرجون
للسوق والصيد الوفير على السلال
يغدون وحدانا تلاقى فى طريق
الفجر لاح
فمتى يطيب لنا النهار
وتصيب حلقتنا من السوق الكثير ؟
ومضى يغنى حلمه المنشود صياد صغير
لم يكتحل فى ليله غير السهاد
لم يفترش غير القوارب من مهاد
لكنما أحلامه الزرقاء من وشى النجوم

والنجم يجنح للأفول
وعلى حوافى الأفق يحتضن الضياء
طير جسور
هذا الرفيف له نداء
للنهر يحمل ماؤه زاد الرحيل
ودنا يرنق فى الفضاء هنيهة
ورمى العيون الصابرات بنظرة
رشق الشباك بها وغاب
وأتى النهار
وعلى جناح الموج صياد صغير
يتعجل السوق الغنية بالرغاب
لكنه خاوى الوفاض

(شعبان) هو الاسم الحقيقى لصاحبى ورب قصائدى فى الصيادين أما (متولى) فهو الاسم الذى اخترته له فى أشعارى، اسم إسطورى كما يقول الناقد أحمد لطفى (يحمل شحنات إيحائية. اذ يعنى الراحل كما يشير إلى الولى الشهير «سيدى المتولى») وإن لم أتعمد هذا الاختيار بوعيى. ولم يكن يفترق عنى الا فى أثناء عملى، وحين قدمت زوجتى وطفلتى كان يريد أن يسرنى. ولكم كانت السعادة تطل من وجهه- يوم حملهما بقاربه فى نزهة صباحية صيفية على البحيرة- ومن عيونهما ايضا. اشجار الكافور والصفصاف المنسدل الضفائر فوق الماء يمنحه قبلاته ولونه والشمس أكثر ائتلاقا، والبحيرة أصفى وأرق، وبلورات الندى فى بقاياها المعلقة على الغصون. وضربات المجدافين بيدى شعبان.

مازالت زوجتى تتذكر كالحلم تلك السويعات .. الفرح الطفولى لأبناء الصيادين الصغار على الشط، كل بسنارته يغمسها فى الماء، ولمعان السمك، وعيونهم تتلامح إذ تتابع فى فضول جميل انسياب القارب، وتستغرب إذ يستعمل لما ليس لهم به عهد. تتذكر ايضا- كما تروى لى الآن- أمسياتنا فى شرفة ذلك البيت الريفى المطل على البحيرة فى (كفر فيشا) .. نجاوانا وحلمها أن نبنى لنا بيتا فى القاهرة .. ولم تطل إقامتها لأن أوقات السرور كانت قصيرة. فى ظلها تقول: «لن نسافر» ثم تمتلئ العينان بالدموع كلما رأت الوجه الآخر فأقول لها: «لماذا تعذبين نفسك، عودى، فلن تستطيعى». الشقوة قدرهم منذ الأبد، ولنا الله .. الأبد قيد (ولابد للقيد أن ينكسر) .. كل ما فى الأمر أننا قد لانعيش حتى نشهد اليوم العظيم. سيشهده أحفادنا بعدنا، وسيسمع الشاعر وحبيبته فى شرفات الغد زقزقات عصافير تنفذ صادحة من أستار الغيب .. أصوات أطفال الصيادين إذ يعودون فى ثياب نظيفة لامعة من فصول

المدرسة المشتركة يغنون ويرددون الأناشيد. وسنغنى معهم من بين الشرفات ومن خلف الأستار فى (كورس) واحد: ما أجمل الحياة.

يتشكل ويتحول (متولى) فى رؤيتى عبر وجوه شتى .. ألتقط الخيط من قطرات مجدافه وخفقاته على صدر البحيرة، فأتصوره يهجر مهنة الصيد التى شقت على جسده النحيل وضنت بالرزق، ويحترف مهنة(المعداوى) فينقل الناس بين الشطين لقاء دريهمات معدودات تكفيه وأولاده ولاتثقل على الركاب. وتضافرت الخيوط، فكانت قصيدتى (شعبان الصياد):

صياد فوق بحيره
يعرفه أهل القريه
وجه يحكى شبكة صيد
وقميص من زبد الموج
لكن القلب يطل من العينين
بشرا ويرش الفرحة فى الشطين
جمع الصيادين يسد الشمس
يحجب وجه الماء
لكن قاربه لايخفى
خفقة مجدافيه نداء
مسراه على الموج غناء
ورجال ..أطفال .. ونساء
تخرج أفواجا من ليل القريه
لتحيى وجها فى الظلمة يبسم
وتسلم

٭٭٭

الشاطئ وعيون الأطفال

وحديث الأحباب على الباب
تنتظر العائد من سوق البندر
فى قارب شعبان الصياد
ما أغلى إرث الأجداد
لكن الرزق يحب خفيف الخطو
مذ تهرأ نسج الشبكه
لم يهبط تحت الماء يسوى
حلقات الصيد
ومضى يشرع مجدافين
ويطوف بين الشطين
ليدير على الركب حكايا حلوه
عن غوث الملهوف
ودوام المعروف

٭٭٭

الليلة طالعها نجم غارب
وجناح يحكى قصة فجر يولد
وخطا تضرب فى طرقات الغد
وعلى اللجة تنساب إلى الصيد قوارب
ويقل رفاقا للقرية قارب
موكبهم لايحدوه غناء
لا بشر يطل من العينين
ويرش الفرحة فى الشطين
ووجوه كانت بالأمس تحيى
ضحكات الشمس

فوق جبين يبسم فى الظلمة
كانت بالأمس
تعتد لقاه زادا للأيام الجهمه
أضحت لا تفتقده
شغلتها عنه رياح العيش !!
من يذكر شعبان الصياد
من يذكر بسمته الرطبه
وحكاياه العذبه
من يذكره فى الغربه

٭٭٭

منذ تخرق قاربه الأوحد
وطواه الشط عن الأعين
مال على الخشب العانى يدفع مد الماء
بذراعى صياد شب مع الأنواء
وبصدر يبكى نسيان الأحباب
إلا أطفالا مازالوا حوله
كالطير المنثور على شط القريه
جاءوا من بيت الجار
من حلقات السمار
كانوا ظله:
«لا تحمل هما ياشعبان
لا تَخلُ إلى الأشجان
القرية مازالت تنتظرك
والشط حزين من أجلك»

وتلاقت أيد كالأعواد الغضه
توقف دفق الماء العاتى
تدعو شعبان إلى العوده
تشعل روحا داجى الوحده

ooo

ما أحلى عون الأحباب
شعبان يعود إلى لحنه
وتضئ البسمة فى عينه
وعلى الموج نسيمات رطبه
وحكايات عذبه
عن غوث الملهوف
ودوام المعروف

كان طموحى الفنى دائما- ومايزال- أن اكتب شعرا يحسه ويتذوقه ويدرك مضمونه فيتأثر المثقفون وأنصافهم، ولايحرم من أثره الأميون الذين ألهمونى قصائدى فى القرية وعلى البحيرة وسدها. طموح لايقل عن لهفتى إلى إبداع شعر فى المقاومة لاعنها، شعر ثورى لا شعر فى الثورة أو عن الثورة وكانت قصيدة (شعبان الصياد) أول تجربه لى أحاول عن طريقها النفاذ إلى قلوب الريفيين وأذهانهم وتحريك وجدانهم، يقينا منى أن الفلاح المصرى بما يكتنز فى أعماقة من تاريخ حضارى طويل، وما يحفظه من مواويل وحكم وأدب شعبى شفاهى عريق مثل سير الأبطال الحقيقيين والأسطوريين التى كتهبا شعراء. مجهولون (ملاحم أبى زيد الهلالى والزير سالم وعزيزة ويونس وعنترة بن شداد وأدهم الشرقاوى)، هذا الفلاح الأمى قادر على تفتيت صخرة اللغة الشعرية الفصيحة كما يفتت بفأسه التربة الجافة المتصلبة ويجرى فيها الماء من الترع والسواقى، إذا تعاونا معه واقتربنا منه لغة وفكرا دون أن يفقد الشعر جوهره الكامن فى قيمه الجمالية.

لقد أردت أن أحقق تلك المعادلة الصعبة- إذا جاز هذا التعبير- فى صياغة (شعبان الصياد) باختيار موسيقى قريبة من الحس الشعبى ومفردات سهلة غير قاموسية تتضمن- ما أمكن- الألفاظ التى يُظَن أنها عامية وهى فصيحة كما كان يفعل المازنى، وتراكيب بسيطة، وجمل قصيرة. وكنت أتعمد أن أقرأ هذه القصيدة وغيرها مما يقترب منها أو يختلف عنها على أسماع من يتاح لى الالتقاء بهم خارج دائرة العمل من معلمين بالمدارس الأولية ومن ريفيين بسطاء يعرفون بالكاد الأبجدية أو لايعرفونها، لأعرف رد الفعل وأقارن. ولقد تحققت أن شيئا من القصيدة ينفذ إليهم وربما روحها كله، أعرف ذلك من ملامحهم ومن إجاباتهم عن استفسارى عما

فهموه. كل كان يتلقى قليلا أو كثيرا حسب قدراته. ولاشك أن طريقه إلقائى ومحبتى وتفتح قلوبهم لى كانت تلعب دورا فى التوصيل، ولكن البساطه فى اللغة والوضوح فى المعنى كان لهما الدور الأصيل.

ولم يقدر لتلك التجربة الأولى أن تثنى وإن تركت أثرها فى قصائد أخرى لحرصى دائما على إبلاغ كلمتى إلى أوسع دائرة وأكبر جمع من الناس انطلاقا من إيمانى بوظيفة الفن الاجتماعية، ورفضى لنظرية الفن للفن. وبعد سنوات من نشر قصيدة (شعبان الصياد) سألنى صديق: «لماذا لم تستمر فى هذا النهج .. لقد كانت قصيدة جميلة؟ فقلت: «لو قلتها من قبل !! أما الآن فقد فات الأوان!». كان الصديق فنانا يملك حسا إبداعيا ونقديا مرهفا، يعيش حياته ولايعنى بإبلاغ صوته. أما النقاد المعروفون فقد رحل رائدهم قبل أن يكتب كلمته ورحلت معه الرسالة والنزاهة .. وسكت معظم الآخرين إلا عن أنفسهم وأصدقائهم. فلم أكرر التجربة إذ تنازعنى الاقتناع والشك حين استقبلت- مثل جل ما كتبت- بالصمت:

غزلت لهم غزلا رقيقا فلم أجد
لغزلى نساجاً فكسّرت مغزلى !!

نساج فنان آخر ظهر فجأة ليقول كلمة تحمل المعنى نفسه الذى أشار إليه الصديق ولكن بعد فوات الأوان أيضا، وكانت عن قصيدة أخرى نشرتها بمجلة (الآداب) منذ أكثر من عشرين عاما ولما يمض على نشر (شعبان الصياد) غير عام أو بعض عام .. فقد كتب الشاعر السورى على كنعان فى عدد من سلسلة (كتب عربية- مراجعات نقدية) مقالا عن ديوانى (معزوفات الحارس السجين) الذى أصدره اتحاد الكتاب العرب بدمشق عام ١٩٨٠، يقول فى نهايته ما معناه: (حسبى أن أروى للشاعر الشريد واقعة صغيرة لعلها تحمل إلى نفسه بعض العزاء. فقد التقيت برجل من عامة الناس فى بادية الشام، فسألته عما إذا كان قد سمع أو قرأ شيئا من الشعر الحديث، فإذا هو يقول لى إنه لا يحفظ منه إلا أبياتا أو سطورا ثلاثة هى:

الليل خيمت ظلاله ولم يعد
وعاد كل غائب لأهله ولم يعد
وغلق الجيران بابهم ولم يعد

وبيتين أو سطرين أخرين من قصيدة لعبد الوهاب البياتى). ولقد كان ما قاله كنعان عزاء حقا لى إذ ادخل على قلبى سرورا وإن كان ممزوجا بالأسى. وتذكرت قول سليمان الحكيم فى (نشيد الإنشاد): (بالأمس طلبت من تحبه نفسى، طلبته فما وجدته). وربما تذكرت قصيدة كتبها الشاعر الأمريكى هاوسمان وترجمها العقاد فى كتابه المتضمن مختارات من الشعر العربى والشعر العالمى وعنوانه (عرائس وشياطين) يقول فيها:

بالأمس كانت الأشياء الجميلة ملء السوق
ولكن الكيس كان فارغا من النقود
واليوم ها هى أشياء السوق كما كانت بالأمس
والكيس عامر بالنقود
ولكن أين ذلك الفتى القديم؟

والأبيات الثلاثة التى اختزنتها ذاكرة البدوى الذى أشار اليه الشاعر كنعان وردت فى قصيدتى المطولة (الصياد اليابانى) التى كتبتها بالقاهرة سنة ١٩٥٧. وكأن كنعان يريد أن يقول: إذا كانت الحركة النقدية لم تنصف هذه القصيدة وشاعرها، فإن عزاءه أن شعره قد بلغ الناس البسطاء الذين يكتب من أجلهم، وفى ذلك ما يتأسى به أيضا فى منفاه بعيدا عن الوطن الذى يحب حتى الموت.

ولا شك أن رحلتى القصيرة العاصفة والمثقلة بالهم الإنسانى قد عمقت رؤيتى لعالم الصيادين كما كان لها الفضل فى تطورى الفنى، مما انعكس على تلك القصيدة وهى من وحى مأساة صياد يابانى من ميناء «يازو» سقط ضحية التجربة الذرية الأمريكية فى جزر بيكينى بالمحيط الهادى عام ١٩٥٧. لقد شغف قلبى هذا العالم عشقا إذ يمثل قيمة إنسانية عليا، وهى تحدى المستحيل وقهر اليأس والغوص فى لجة المأساة تشبثا بالحياة حتى أخر قطرة أو أخر جرح. وحين يأتى الصياد الموت الداهم يسلم الراية فى غير ضجيج ولا منّ بالتضحية. إنه البطل المجهول الذى يمنح

البشرية معناها الحقيقى، ويجسد انتصار الإنسان على الطبيعة القاسية، وانتصاره بالجسارة على مخاوفه، وانتصاره- بالصراع- على أعداء الحياة:

الأفق يحصب الفضاء بالشرر
بالهول والدمار والفناء
والنار مارد يطوق البشر
وتغتلى البحار بالدماء
يأيها الرفاق
لاتنشروا فى اللجة الشراع
لا تنصبوا الشباك للضياع
الريح تعدو خلفنا محمومة الهزيم
وفوقنا توهجت سحابة
سوداء كالهموم
والعاصف الذرى ينفث الجحيم
دجاه تقهر النهار
تطويه فى غياهب الصراع
ويفغر المحيط قاعه الرهيب
يميد بالرعود واللهيب
فتختفى الضفاف والتلال والتخوم
وتسقط الحياة فى أقدام غائل رجيم

✪✪✪

تفتحت أزهار «يازو» فى غلائل الشروق
والورد فى الميناء ينشر العبير كالمطر
والشمس تحضن البيوت والشجر
ويلتقى الرفيق بالرفيق
على تحية الصباح فى الطريق
وغَيَّب العباب وجه قارب عن العيون
يقِلُّ صيادين يرتادون مائج الحصون

قد زودتهم طيبها عيون زوجة وطفل
ورطبت حباههم أنامل البنات بالقبل
وحين صاح حارس الرياح: «فلنعد»
ودوت الآفاق بالرجام والشهب
لم يبق فوق الموج غير لاهب الرماد
وثار فى المحيط مرجل غضوب
يمد أذرع القتام والخطوب
ولعنة مشبوبة الأحقاد تزرع الكلوم

***

ياويلتا لصائد يجالد الرياح
يمضى على وجه العباب عانى الجراح
وصاحباه يضربان فى مجاهل الخضم
والموج عارم أشم
تذرو عليه السحب جاحم الحمم
وزوجه هناك ترقب الغروب
ويرمق الصغار بالحنان لحظها الكئيب:
الليل خيمت ظلاله ولم يعد
وعاد كل غائب لأهله ولم يعد
وغلق الجيران بابهم ولم يعد
أطفاله أغفوا على انتظار
ولم يحن مآبه للدار
وكان لا يطيل غيبته
ولا يضل فى الظلام رحلته
كم عاصف أذل كاهل الرجال
وما هوى شراعه ولم تهن
شباكه وعاد يحمل السلال
عيناه توقدان عتمة الظلال

وتسكبان فى دمى الحنين والسلام
وساعداه يحملان طيِّب الطعام
والعطر والشعاع والصفاء
على مشارف المساء
ترف من جدار عشنا الصغير
وكان دافق الوداد ساعة اللقاء
لكنما لقياه هذا الليل لم تحن

***

يا رفقتى ولم يحن عود الحبيب
أسرت به الرياح للمغيب
لم يحتضن بناته الثلاث منذ ذلك الصباح
لم يشجنا هتافه الطروب فى الغروب
وخلف العذاب والدموع
وجمرة الأوجاع فى الضلوع
ثيابه على الصوان ماتزال
شباكه على الجدار ماتزال
وهمس خطوته
فى ردهة الكوخ الوديع وقعها
وخفقة اليدين فى يدى رجعها
وطيب نظرته
فى أعين الصغار ماتزال
وكان حينما هوى يحن للبقاء
يجالد الجراح يغلب الفناء
كأنما تَشُوقه الرياح والأنواء
والعود بالصيد الوفير فى المساء
كأنما يستاف نفحة البحار
وينشر الشراع فوق قمة التيار

وأودعوه بين صحبه العناة فى المدينة
والموت ظله الكئيب رابض على السكينه
وما خبت أنفاسه الحرار
وما انتهى عذابه بالنار
ويلاه ذاب شعره ولم يمت
وغاض ماء وجهه ولم يمت
وأطفئت عيونه ولم يمت
وحين مات لم يكن به رمق
يصد عنه غائل الحريق
واساقطت قبل الوداع منه كلمتان:
«لا موت بعد اليوم بالغبار»
وكان آخر الضحايا فى تجارب الدمار

۞۞۞

يا أصدقاء الشمس يا طلائع النهار
ياأيها العمال فى شواطئ البحار
لترتطم تجارب الدمار
بصخرة الإصرار
لن يسقط الآباء فى محارق الرماد
لن يرجع الأبناء شائهى الوجوه
لن يطفئ الجلاد نضرة العيون
لتنحطم على جداركم يداه
من قبل أن يحطم الحياه
ويغصب الأطفال بسمة الشفاه
يا أيها الأعلون بالسواعد الشداد
الزاحفون بالجوانح المضيئة الحرار
يا أصدقاء الشمس يا طلائع النهار



(شعبان) كفر فيشا تناسخ فيما كتبت من قصائد الصيادين، فكان (متولى)، ثم هاجر من البحيرة النيلية فى الدلتا المصرية طائرا بشباكه حتى بلغ المحيط الهادى فى نفس العام، وهناك لقى مصره محترقا فى شراك الشيطان الذرى الأمريكى. ثم انبعث من بعد ذلك حيا كأنه طائر الفينيق، وعاد إلى وطنه مؤثرا (بورسعيد) مقاما له إلى حين، وفيها رأيته فى جمع من (البمبوطية) هذه الفئة من الصيادين التى تعيش على بيع التحف إلى ركاب البواخر وشاحنات النفط البحرية الوافدة من مختلف بلدان العالم فى أثناء رسوها بميناء بورسعيد.

وقد سجل هؤلاء الصيادون فى معركة قناة السويس أروع صفحات التضحية لوطنهم والفخار لشعبهم. وجاءت قصيدتى فيهم بعنوان (أغنية من بورسعيد) قريبة من المنهج الفنى لقصيدة (شعبان الصياد). (فالمعداوى) الذى صورته إذ يعمل بين شطى البحيرة يستعير بعض سماته من (البمبوطى)، فهو سريع الحركة خفيف الخطو، يستعين فى طلب الرزق واحتمال المشقة بالغناء وهو محب ومحبوب، ولقد لقيت تلك القصيدة نفس المصير إذ غرقت فى بحر الصمت. ثم قيض لها أن ينتشلها أديب من الجزائر هو القاص مرزاق بقطاش مثلما انتشل الشاعر السورى على كنعان (الصياد اليابانى)

ففى مؤتمر الأدباء السادس عشر الذى انعقد بالجزائر العاصمة فى مارس ١٩٨٤ تعرفت أول مرة على مرزاق بقطاش وإن كنت قد تابعت من قبل كتاباته فى المجلات الثقافية الجزائرية وقرأت له (طيور فى الظهيرة)، وإذا هو يحدثنى أنه عرفنى على صفحات مجلة (الآداب) فى أواخر الخمسينات وكان فى مطلع صباه أنئذ، وأنه ما يزال يذكر قصيدة (البمبوطية)، إذ انطبعت فى ذهنه الصورة التى رسمتها لهم وهم

فى قواربهم يتبادلون السلع الصغيرة مع البحارة والسائحين: دمية فولكلورية بورسعيدية أو طربوش أحمر يقايضها (البمبوطى) بأشياء ثمينة.

منظر هؤلاء السائحين- وهم مصطفون فى شرفة السفينة العملاقة من الجانب المواجه للمدينه يصيحون متدافعين بالأكتاف والسواعد مبهورين بجمال الدمى فى أيدى البمبوطية- يمتع العين .. يخلع الرجل منهم ساعته ليتلقفها عبر (حبل الاستقبال) الفتى البورسعيدى فى قاربه المترنح كالنشوان مع الموج، ثم يعلق الجمل الخرافى المرغوب فى (حبل الإرسال) الصاعد إلى السائح أو البحار ... سوق بشرية وسلعية ما أعجبها، تشتبك فيها الأيدى وتتلاقى الوجوه التى لم تلتق قط من قبل .. تتلاقى مرة واحدة وأخيرة .. برج بابل المسحور يعود فى القرن العشرين إلى عروس القناة. ملتقى القارات الثلاث وسقف العالم وضحية العدوان منذ (ديليسبس) الأفاق الذى خدع العرابيين حتى (جى موليه) و(إيدن) و(بن جوريون) السيد والخادم فى جسد واحد، الذيل والرأس، والبقية تأتى.

(شعب بوّان) على أبواب فارس فى القرن الرابع الهجرى خلب لب أبى الطيب بسحر أمواجه ونسائمه وأشجاره الربيعية، وأثار كوامن غربته تعدد أصوات إنسانه وطيره وحيوانه.

ملاعب جنة لو سار فيها
سليمان لسار بترجمان !!

فماذا كان يقول المتنبى لو تأخر به الزمن فلحق بقطار عالمنا وشهد بمصر عصرا غير عصر كافور، وعاش حينا مع صيادى بورسعيد فى سوق البمبوطية على القناة بين غرائب المخلوقات ومهرجان اللغات. لقد أتيح لى أن أمضى مع أسرتى بعض أيام الإجازة الصيفية على شاطئ تلك المدينة الجميلة فى أوائل الستينات. مدينة تنبض صباحاتها وأمسياتها بفرحة الحياة التى تتجدد كأمواج بحرها، وتتلون مثل ظلال السفن والقوارب على القناة .. وطالما أوحت إلى بقصائد تمتزج فيها الواقعية بأخيلة رومانسية. ومازلت أذكر حتى اليوم فى حنين دافق تلك الليلة التى استضاف فيها

الكاتب المسرحى نعمان عاشر جمعا من الأصدقاء الصحفيين والأدباء على سهرة غنائية لفرقة تعزف أغانى ساحلية على أنغام آلة (السمسمية). ومازالت خفقاتها تتردد فى مسعى. أتذكر من بين هذا الجمع الكاتب الصحفى سامى داود، وكان مثلى من عشاق بورسعيد:

حننت إلى ريا ونفسك باعدت

مزارك من ريا وشعبا كما معا

بنفسىَ تلك الأرض ما أطيب الربى

وما أحسن المصطاف والمتربعا

ولكن صورة (البمبوطية) على القناة تبقى وحدها طافية فوق صفحة الذكريات منفردة بها، أستعيد تفاصيلها كلما رجعت إلى قصيدتى (أغنية من بورسعيد):

أيديهم مازالت تمتد

تنقض نسورا .. ترتد

لكن لا تهوى

✪✪✪

أيد وحبال تعلو .. تهوى

إنا ندرى مكر القوم

والشرق يلاقى الغرب

قد تُغبن حينا

لكنا نحمل سر العالم

لا يقهرنا الطوفان

ومثلما ترددت أصداء من (دم على البحيرة) فى (الصياد اليابانى) تتمثل فى الصوت الذى يحذر من عاقبة نشر الأشرعة على الموج ونصب الشباك، فقد ظهر شبح (متولى) أيضا فى (أغنية من بورسعيد).

عادوا مضمومى الأيدى والسفن تسير

والأولاد انطلقوا فى ترنيمة حب
تشجى أختا وقفت فى باب الدرب
والخطو يطير حنينا يسبق طير المغرب
جفت أحزان القلب
منذ استخفى القرصان
أشلاء فى القاع المعتم
لم يطف على وجه الأمواج قتيل
لم يغلق بيت
عادوا أفواجا تطرق باب الغد
والشرق يلاقى الغرب

حيان شعبيان في القاهرة أمداني بنار الشعر، ووجدت في واقعهما الاجتماعي المتقد بالصراع ما يغنيني عن توظيف الأساطير الإغريقية ورموزها التي طالما استهوت أبناء جيلي من شعراء القصيدة الحديثة. فما حاجتي إلى إستعارة (بروميثيوس) الذي سرق جذوة النار من الشمس كرمز ميتافيزيقي للتحدي والمقاومة والصبر، وفي شبرا- حيث ولدت- وبولاق- حيث ترددت- تشتعل زهرة البركان الملتهبة طوال الليل والنهار لإذابة الأصفاد التي تغل الأيدي والأقدام، وتدور عجلة الكفاح اليومي المستعر لانتزاع رغيف العيش من براثن القوى المستغلة.

رفقائي على درب الشعر منذ عبد الرحمن شكري حتى بدر شاكر السياب، التمسوا الريادة في البحث عن وسائل وأساليب جديدة يطورون بها القصيدة العربية من طريق تلقيحها بالأدب الغربي ذي الجذور الإغريقية، ويعبرون من خلال الرموز الميثولوجية عن أزمة إنسان العصر بين الوجود والفناء والحقيقة والوهم والمعرفة والخطيئة. وعلى الرغم من اطلاعي على الإلياذة والأوديسة في مطلع الصبا أيام مجلتي الرسالة والرواية للزيات بفضل الترجمة التي قدمها لنا دريني خشبة وقراءتي كثيرا من الشعر الانجليزي في أثناء العام الذي قضيته بكلية الآداب، وحرصي على الإلمام بأهم آثار الأدب العالمي بقدر ما يسعفني الوقت والجهد، وذلك في السنوات التي عشتها في القاهرة، فإن تلك الأساطير والرموز لم تنعكس على قصائدي، وكأنما هي أعضاء غريبة يلفظها الجسم كلما أدخلت عليه .. أكان استيعابي لها ضئيلا؟ أهي طبيعتي الفنية التي تؤثر الإفصاح على الإيماء، والواقعي على الخرافي أو الميتافيزيقي؟ أم تراه تشبثي بالتربة والجذور هو الذي حال بيني وبين الاقتباس من الينابيع الأوربية في صورها واستعاراتها؟

على أن هذا الرفض العفوي لم يقتصر على بروميثيوس وسيزيف وزيوس

وديانا وأبولو، بل تعدى هؤلاء إلى أرباب الأساطير الفرعونية بعد أن كنت مولعا بها موظفا إياها فى شعرى قبل تحولى إلى كتابة القصيدة الحديثة. إنه لاشك عندى الآن أن تجربة حياتى بين غمار الناس وتغلغلى إلى حد كبير فى واقعهم إحساسا وفهما ومشاركة، وتطورى الفكرى هى التى أملت على النهج الفنى الذى التزمته فى قصائدى، والذى ينأى عن توظيف الأساطير والرموز الإغريقية أو الفرعونية أو البابلية فيما عدا قصائد قليلة مثل (طيبة) و(منف) والتغنى بمجد (أحمس) طارد الهكسوس. لقد وجدتنى أغترف من الواقع المصرى ومن رموزه وأساطيره. ولعل الظروف التى قضت بمولد قصيدتى الحديثة فى عالم (متولى) و(محمود) و(شعبان) بعيدا عن جو المثقفين والأدباء فى القاهرة حيث تتوافر مصادر الأدب الغربى وتتصارع المدارس الأدبية والفلسفية، هى التى جعلت الشكل عندى يطابق الموضوع والمضمون.

وجدتنى غريقا فى هذا الموقع بل محترقا به، فجاء شعرى من لهيبه، ولم يكن على طراز ذلك الأدب الذى وصفه ناقد إنجليزى حديث بأنه من نتاج زيت المصباح، قاصدا بذلك أنه من أدب (المكتب) أو البرج العاجى المنفصل عن حركة الحياة. ولقد عوضنى انغماسى فى الواقع وما حصلته من تجارب عن بعض ما فاتنى الاطلاع عليه من الآثار الأدبية والدراسات النقدية المتطورة. وحين أتذكر أن قصائد ناظم حكمت الرائعة جاءت خلوا من الأساطير والرموز الإغريقية يزداد يقينى أن الشاعر الذى يستطيع بوعيه أن يسبر أغوار الواقع، كما يستطيع أيضا أن يدرك ثراء تراثه، فى غنى عن الاقتباس من الينابيع الأخرى.

ويذهب بى الظن أحيانا أن الإغراق فى ذلك الاقتباس لدى بعض الشعراء وغيرهم من الفنانين منشؤه قلة التجارب أو انعدامها، إذ تنحصر حياة الشاعر فى أوراقه وحبيباته وبين جدران غرفة الوحى أو فى الدار الصحفية أو الثقافية أو السفارة التى يعمل فيها، والحديقة التى يتنزه بها لاستجلاء جمال الطبيعة والترفيه عن نفسه. فلا يجد عالمه الشعرى إلا فى الميثولوجيا الإغريقية وأشباهها. وقد يكون إنتاجه نموذجا للبراعة الحرفية، ولكنه كالرخام المزخرف البارد.

ولعل هذا النهج الفنى الذى يغرى به بعض الشعراء والنقاد العرب هو الذى يجعلنا نحس إذ نقرأ قصائد هؤلاء الشعراء- أننا نقرأ شعرا مترجما، وإن كان كثير من الناس يكتمون هذه الحقيقة التى يحسونها فى أنفسهم مخافة أن يتهموا بانعدام الوعى الثقافى والتذوق الأدبى، وبالتخلف عن ركب الحداثة أو المعاصرة، بالنظر إلى شهرة أصحاب الشعر الشبية بالمترجم، واتساع نفوذهم فى الدوائر الإعلامية والأدبية، والناس على دين ملوكهم.

فى (بولاق) ذلك الحى الشعبى الذى خرجت من أحشائه نار الثورة الأولى والثورة الثانية على نابليون وجنوده سنة ١٧٩٨ قبل أن تستقر أقدامهم وسنابكهم الغازية على أرض مصر، وهو مخزن الانتقاضات والمظاهرات التى تشتعل كلما استفحل البغى والإفك، وظن الضعفاء والظالمون أن قلب مصر قد وقف عن النبض .. أيامه التاريخية مع سائر الأحياء الشعبية لا تنسى: (٩، ١٠ يونيه ١٩٦٧، ٢٨ سبتمبر ١٩٧٠، ١٨، ١٩ يناير ١٩٧٧. فى (بولاق) كانت الشرارة التى تحولت إلى جذوة من الحريق سميتها (صابر- حكاية صياد من السويس) سنة ١٩٦٧، واستمر الحى الأسطورى العظيم بأبطاله الفقراء المغمورين يسكننى أو يتابعنى حتى المنفى، فوجدته يوم ١٦ يونيه ١٩٧٩ فى قصيدتى (استطرادات فى ليل وهران) التى كتبتها فى الجزائر:

أراعيك طيفا يمد ذراعيه
أجفل كالجاهلية .. بيتى حريق
حرام علينا المضاجع
إن الدخان الذى يتحجر
فوق جباه الأحبّاء
أطفال (رملة بولاقَ) ترجمنا
والشوارع ترفضنا
وكل العرائس فى النيل موءوودةٌ
فى انتظار النشور
وهذا النشور على عهد فى انتظار الدماء

✪ ✪ ✪

هو الحب يطفئه صمتنا
ويحييه حقد على قاتله
فثورى لنسترجع الأغنية
فقد أورق الجرح شمسا وقمحا
وثورى على السيف فوق الرقاب
ولا تجزعى .. نصله من خشب
ومقبضه من ورق
و(رملة بولاق) تختزن الصيف
أكواخها ما اشتكت مرة نقص أموالها
إنما تشتهى خبزنا
ويدفئنا زيتها المغتصب

ووجدت (بولاق) مرة أخرى فى قصيدتى (الجذور) يوم أول مايو ١٩٨٢ بوهران:

لك العشق يا وطنى أيها الأبد المتحول
بالموت فينا خلايا وبالنيل أنداء جرح
على وجنتى بائع الفل طار على غيمة
من ضلوع الأزقة بين «صحارى الإمام»
و«رملة بولاق»- آه مشاعل كانت
وتبقى وقودا- إلى الأمسيات المرايا
على الشاطئ الآخر المخملى
لك العشق يا أيها الوطن المتجول بالليل
مركبة تحت عمال «أسيوط»
آه رفيقا لكم كنت فى زمن الحق والزيف
والمقت والخوف
حربا على الحرف كان الجنود
رفيقا لكم كنت فى وطن الراتعين المطايا

فى السنين البعيدة مررت على حى (بولاق) وكان لى ذكريات، ولكننى لم أعرف أسراره، إذ كنت أسير على هامشه فى طريقى من بيتنا القديم فى (جزيرة بدران) إلى (قصر النيل) أيام العطلة الصيفية للمدارس الثانوية، مرورا بشارع بولاق الجديد وجامع سيدى أبو العلا بشارع فؤاد (٢٦ يولية) حتى الكورنيش الذى يحده شرقا (كوبرى أبو العلا) الفاصل بين الحيين النقيضين (بولاق والزمالك). وما من مرة قادتنى خطاى عبر هذه المسيرة فى مختلف مراحل العمر إلا تذكرت حديث أمى القديم عن شارع بولاق.

كانت فى أوائل الصبا أو نهايات الطفولة حين حكوا لها عن الدم الحى الذى يسيل من أجساد الموتى كلما ارتطمت بها معاول العمال القائمين بشق الأرض لإنشاء طريق جديد. إنهم الصحابة من جنود عمرو بن العاص الذين فتحوا مصر فى عهد الخليفة عمر بن الخطاب. وتلك هى أجسام الذين سقطوا منهم شهداء فى المعركة التى دارت فى هذا المكان. وهم أحياء كما وصفهم القرآن الكريم، وآيه حياتهم هى تلك الدماء التى خضبت المعاول.

هكذا كانت أمى ومازالت تفسر الآية القرآنية، إذ يقصر وعيها عن التجريد ولاتدرك إلا المحسوس المجسد، ولعلى كنت مثلها فى تلك المرحلة من طفولتى. وتحول المكان من ساحة للمقابر إلى طريق عام أطلقت عليه الحكومة اسم (شارع بولاق) وسماه الناس (شارع الشهداء) وظل فى وجدانهم الجمعى محفوفا بالمهابة والقداسة، فى حين نقل الرفات- وإن أكدت جدتى لإبنتها أن الأجسام كانت كاملة لم يمسها البلى طوال أكثر من ألف وثلاثمائة عام- إلى مقبرة عامة فى بعض الأطراف النائية للمدينة.

وتراءى الشهداء مرة أخرى بعد أن قطعت شوطا أبعد من العمر. ففى هذا الطريق ذاته، والزمن مطالع العقد الرابع، ورفيق الطريق هو صديق الصبا الأديب الشاعر محمد محمود حمدان، كنا عائدين من نزهة عصرية صيفية فى (قصر النيل) حين لاح ضريح على يسارنا وقد بدأ غبش المساء يغشى ماحولنا ... أفضت بنا شجون الحديث إلى الخوض فى المسافة الفاصلة بين الدين والخرافة وكنت متأثرا فى ذلك الحين بآراء المستشرقين وطه حسين، فأشرت لصاحبى إلى الضريح وقلت قولا سخيفا يحمل معنى التشكيك فى نزيل القبر وينبئ عن غرور الشباب المتعالم حين يتفلسف. فإذا بنا نحس بوقع حجارة صغيرة دقيقة كالحصى ترجمنا، اضطربنا من شدة المفاجأة وعدونا كمجنونين فى الطريق.

لم يمنعنى العدو من التلفت خلفى- فى حالة من الوعى الكامل الذى لم تذهب به أو تهزمه روعة الذى جرى- للوقوف على حقيقة الأمر. ووجدت أن الفرصة تسنح لى أول مرة كى أخوض تجربة شخصية فى عالم الغيبيات .. قلت لنفسى: لعل حارس الضريح الذى طالما رأيته بقامته الطويلة ولحيته الكثة الحمراء ووجهه المشرب الاحمرار بالبياض والذى كان يهوديا وأسلم كما حدثتنى أمى، أن يكون قد سمعنى فصب على جام سخطه، أو لعله شخص آخر من المارة. هواجس كثيرة انتابتنى ولكنى لم أتخل عن الرغبة فى الافادة من تلك التجربة. وظل الحصى المتقاطر يقل- إذ نعدو بعيدا رويدا رويدا، وعجبى يزداد كلما وجدت الحافلة رقم ١٥ تسير بركابها والمشاة على الطريق والأضواء تبدأ احتفالها الليلى..

لم يظهر الحارس فى تلك الليلة .. كل شئ كان طبيعيا إلا أنا وصاحبى، فمن الذى يحصبنا بالحجارة، وجدتنى وحدى إذ كان صديقى قد تسرب عدوا فى الزحام، كما تسرب هم البحث عن الحقيقة فى ذهنى الشتيت. كان الضريح كما علمت بعدئذ لولى من أولياء الله فيما يعتقد أهل الحى، وهو معروف عندهم باسمه فقط (سيدى الخضر) وإن لم يحقق أحد سيرته وعصره. وقد تعودت منذ ذلك الحين أن أقرأ الفاتحة على روحه كلما مررت بضريحه وكثيرا ما عادت بى الذكرى إلى حكايات الشباب فى الريف كلما اقتربنا ليلا من المقابر، وإلى بيت أبى العلاء المعرى:

لا تظلموا الموتى وإن طال المدى
إنى أخاف عليكموأن تلتقوا

وقصيدته الخالدة فى رثاء فقية حنفى:

صـاح هــذى قـبــورنـا تمــلأ الـرح
ب فأين القبور من عهد عاد ؟
خـــفـف الــوطء مـــا أظـــن أديم الـــ
أرض إلا من هـذه الأجـسـاد
وقـبـيـح بـنـا وإن قـدم الـعـهــــ
ــــد هـوان الآبـاء والأجـداد
سـر إن اسـطـعـت فى الـهـواء رويـدا
لا اختيالا على رفات العباد
رب لحـــد قـــد صـــار لحــدا مـــرارا
ضاحكا من تزاحم الأضداد
ودفـــين عـــلـــى بـــقـــايـــا دفـــين
فـى قـديم الأزمـان والآبـاد

سرعان ما غمرنى بعدئذ نهر الحياة اليومية، فنسيت الأمر كله، لا أذكره إلا فى التداعيات عبر أحلام اليقظة أو حين أجد صداه يتردد فجأة فى إحدى قصائدى مستثارا من كوامن الأحداث المتوارية فى مخزن اللاشعور حتى إذا زرت حى بولاق ذات ليلة فى أعقاب نكسة ١٩٦٧، مؤديا واجب العزاء لرجل طيب مات صهره فى السويس، تقمصنى روح (متولى) الصياد من جديد، وانسابت كلمات منغمومة فى خاطرى وأنا بمجلسى فى المأتم (الصيوان) أستمع إلى ترتيل المقرئ. ولاشك أن الجو الشعبى المحيط بى هو الذى حرك حاسة الشعر عندى. كما أثار مخيلتى منظر أهل الحى صغارا وكبارا .. وهم جميعا فقراء من قاع المدينة مثل (أهل الصفة) على عهد النبى ﷺ يروحون ويجيئون كالأطياف النورانية حينا والأشباح الكابية حينا آخر.

وفجّر الترتيل القرآنى النغم الشعرى، كما فجر موت الرجل فى السويس ذكريات الهزيمة التى منى بها الشعب البرئ وتجرع كأس مرارتها سكان منطقة القناة.

فتصورت الفقيد صيادا مثل (المتولى) وكتبت فيه قصيدتى(حكاية صياد من السويس) وقد أسميته (صابر) لما يحمله هذا الاسم من دلالات شعبية، ونسجت الأسطورة من خيوط الواقع القديم فى كفر فيشا وفى بولاق والسويس:

حين مضى آخر مره
أقبل صياد من رفقته
يحمله عبر دروب صفراء
وبحيرات مره
«صابر» كان على وجه الدنيا
نور عيون الخلان
فارسهم يوم تدق الأحزان
أبواب الفقراء
حلم بنات الحى
كان رهيفا كالسيف
رقاقا وعميقا كالبحر
رقراقا كمياه النيل

٭٭٭

كان ندى الكف
يحتشد الشارع كل مساء
فى ليلات الصيف
حول الوجه البسام العينين
والضحكات من المقهى الخشبى
تغزو الشاطئ والليل
وتضئ بيوت الأحباب
كل الأحباب

٭٭٭

الضفة تهتز على وقع الأصداء
حتى الموج يغنى

يعزف أحلام الفجر
وحكايا الصيادين مع البحر
يعزفها كل مساء تحت المقهى الخشبى
لصبايا الحى

ooo

لما قالت أم الأولاد:
«صابر» يدفن فى «باب النصر»
يرقد فى مثوى الأجداد
نصبوا مأتمه فى «مصر»
ما أطيب ريح الأجداد
وجوار حفيد رسول الله
فى «باب الخلق»
بعد صلاة المغرب
جاء الخلق حيارى محزونين
يستمعون القرآن
يرحمه الله

ooo

«صابر» عود أخضر
أورق ست سنابل
من يسقيها بعده
غير امرأة فى فجر العمر
تشرب ناره

ooo

«صابر» مات من القهر
لما قالوا بعثرها الريح هشيما
فى ليلة غاره
ست سنابل خضر

فمضى يلهث فى طرقات الحى
بصدر عريان وجبين أغبر
ورأى بين حطام المقهى الخشبى
«محمودا» مشطهورا نصفين
كان رفيق البحر
غاصت أضلاع فرت دمعه
من عينى صياد عبر دروب صفراء
وبحيرات مره
أقبل فى صحبته
كيف أقمتم مأتمه؟
«صابر» قصته لم تختم بعد
وأدار الوجه الجامد نحو الأفق الشرقى

○ ○ ○

ودنا شيخ من أهل الحاره
أمسك كتفيه
وأسى العينين الدامعتين:
لا قوة إلا بالله
ما أطيب ريح الجنة
ومقام الشهداء
أمتنا تغلب بالصبر

مرة أخرى أقترب فى قصيدة (صابر) من صياغة تكوين شعرى يوافق فيه الشكل المضمون. فمثل قصيدة (شعبان) جاء القالب واللغة والإيقاع فى (حكاية صياد من السويس) قصيدا شعبيا، إذ وظفت فيها تراكيب وجملا من اللغة المتداولة التى لاتختلف عاميتها عن الفصحى: (صابر كان على وجه الدنيا نور عيون الخلان) (لما قالت أم الأولاد)، (تشرب ناره) (وجوار حفيد رسول الله)، (يرحمه الله)، (فرت دمعه)، (لاقوة إلا بالله). وتجاورت فى القصيدة الأمكنة دلالة على وحدة الطابع الشعبى فى مختلف أنحاء مصر: (بحيرات مره) التى تلعب التورية فيها دورا فنيا، (البحر ومياه النيل)، (مقبرة باب النصر) حيث يوظف فن الطباق أو التضاد، (باب الخلق)، و(الحارة والمقهى الخشبى على الشاطئ)، (الأفق الشرقى) الذى يرمز إلى سيناء نقطة وثوب الأعداء على مصر قديما وحديثا دون أن تتعلم الأنظمة الدرس وتعتبر وتميز بين العدو والصديق.

وفى تلك القصيدة أيضا بدا أننى تقدمت شوطا على طريق كتابة القصيدة القصة أو الحكاية، والقصيدة الدراما، والقصيدة الواقع التى تخلو من الترهل والضبابية و«الطرطشة» حسب اصطلاح الدكتور محمد مندور، أو الانفلات الذى تتسم به القصيدة الرومانسية الخيالية، فالأماكن والأوقات والأحداث كلها معينة ومحددة. فمن الإجحاف بفن الشعر العظيم أن نعرف القصيدة بأنها تعبير فنى عن حالة وجدانية أو لحظة شعورية، فنقصرها أو نسجنها فى هذا النطاق الضيق المفترض، ذلك أن الشعر هو أبو الفنون حتى المسرح الذى يعرف بهذا اللقب، وهو أقدرها على استيعاب كل الأشكال والقيم التعبيرية والجمالية.

وواقعية الشعر عندى تتمثل فى القدرة على تصوير الجزئيات والملامح الأساسية

والارتعاشات النفسية لبطل القصيدة أو أبطالها. وقد حاولت فى قصيدة (صابر) أن أرصد بالتعبير الفنى طباع الطبقة الشعبية وعاداتها، معتمدا فى ذلك على معايشتى لها أكثر مما ارتكزت على حصيلتى من علم الاجتماع وعلم التاريخ وغيرها من العلوم الإنسانية المساعدة، وحصيلتى من مطالعاتى فى الآداب العربية والأجنبية. فلا تكاد توجد شخصية ابتدعتها فى شعرى ليس لها شبيه فى الواقع الذى عشته أو هى مزيج من عدة أشخاص. وأحسبنى رغم ذلك كله لم أصب إلا قدرا محدودا من التوفيق، لأن الحياة عندى أغنى من الفن.

ورغم كل ماقرأته أو درسته حول التقنيات الحديثة للقصيدة المعاصرة فإنى لم أتعمد توظيفها فى شعرى، بل رأيتنى أتطور من خلال الممارسة. فالقصيدة التى أكتبها تحدد مسارها وتختار منهجها، فتدع ما تدع من تلك التقنيات وتأخذ ما تأخذ، وتضيف إليه، وهى تشكل واقعها الفنى انعكاسا للواقع الاجتماعى ثم توازيا معه أو تخطيا له، فتتبدى لى حين أنتهى منها كأنها عالم قائم بذاته، لاهو بالواقعى وإن بدا كذلك، ولا هو بالخيالى أيضا.

وقد شاءت الظروف أن تكون فئة الصيادين أكثر الفئات التى عرفتها ظهورا وتأثيرا فى حياتى، ومن ثم أكثرها شيوعا فى عالمى الشعرى. ولاشك أن الطابع الحيوى الذى يميز هذه الفئة قد جعلها أقرب إلى قلبى وفكرى من القرويين العاملين فى الزراعة والذين نطلق عليهم فى مصر اسم الفلاحين.

وربما كان عشقى للبحار من أسباب هذا الاقتراب، وهو عشق يمزج بين واقعية التحدى، ورومانسية الحب والجمال فى البحر والشاطئ، ومأساوية المصير الفردى واستمرار الحياة وتجددها بالنسبة للجماعة. وعمق هذا النزوع النفسى والفنى وقع المعارك الوطنية التى خاضتها الجماهير ومعظمها من الصيادين على ضفاف القناة ومشاهداتى لهم ولآثار الحروب.

وهكذا كتبت قصائد أو مقاطع فى قصائد، صورت فيها نماذج بشرية أو مشاهد من (الواقع) تنويعا على اللحن الذى ألهمنى إياه (متولى) أول مرة. وكان الصيد والصيادون يتسربان إلى موضوعاتى ومضامينى وصورى الفنية. وكأن العلة فى

ذلك أن الحياة بالنسبة للفرد الكادح أو الجمع الذى يبنى الحياة رحلة صيد مهما اختلفت الشباك وتباينت البحار، وتناءت البدايات والنهايات، يتجلى فيها صراع النقائض كاشفا لجوهر الحياة والطبيعة والإنسان مثيرا للشاعرية والإبداع. وقديما قال شاعر عربى:

كل من فى الوجود ينشد صيدا
غير أن الشباك مختلفـــات

كانت العدسة الشعرية – إذا جاز أن نشبه البصيرة الفنية لدى الشاعر بآلة التصوير – تتوقف عند فئة الصيادين وعمال البحر حيثما تلتقطهم مسيرتى فى البلاد المختلفة ووقفاتى على البحار والأنهار، لما لهم فى تاريخ حياتى من جاذبية خاصة ترجع إلى المدلول الاجتماعى والمصير الإنسانى اللذين توحى بهما هذه الفئة الشعبية أنى وجدت.

ففى زيارة إلى بيروت عام ١٩٦٩ مع وفد من المحامين المصريين خلعت عنى رداء السائح المبهور بالطبيعة والتاريخ وبالتحف الأثرية المصنعة والمشغولات التقليدية، وأفضيت إلى المقدم/ مصطفى الجعفرى رفيق المهنة الراحل، وكان يعمل سكرتيرا بالسفارة المصرية فى لبنان وإن كانت مهمته الحقيقية هى التنسيق مع الحكومة اللبنانية فى مكافحة عصابات الاتجار بالمخدرات وتهريبها دوليا، أفضيت إليه برغبتى فى التعرف على أهل البلد البسطاء أو واحد منهم، فاصطحبنى مع صديق لبنانى إلى موقع مرتفع يطل على البحر فى بقعة صخرية منعزلة.

من بعيد لاح مايشبه كوخا كبيرا بلغناه بعد مشقة السير عبر (مدق) يتصاعد فى ضيق والتواء. وبدا لى الأمر مغامرة ماذهب إليها القصد، مغامرة مأمونة على أية حال فقد عرفت الرفيق قبل الطريق. وفى شرفة من الحديد والخشب المتشابك المتعرج فوق هوة تنتهى إلى البحر الأبيض منيت الخاطر باستجلاء المنظر الرائع عبر الأفق والموج، ولكن العين تشبثت على جدار الشرفة بلوحة زيتية ملونة لجمال عبد الناصر بالحجم الطبيعى.. كيف بلغ الرائد العربى – وكان الزمن فى أعقاب الهزيمة المنكرة – هذا المكان الغامض المجهول؟

أخذت أحرك اللوحة لأتملاها من مختلف جوانبها كأنى أستكشف سرها أو أحدثها حتى نبهنى الرفيقان فى رفق إلى الكف عن هذا العبث. ولم أكد التفت إليهما حتى راعنى شبح قادم من داخل الكوخ مصوبا إلى نظرات غاضبة.. لحية كثة سوداء مسترسلة تكاد تخفى معالم وجهه وبنية ضخمة.

أقلقتنى نظراته وخيل إلى أن شررا يقدح فيهما إذ مسست مقدسا لديه من المحرمات. ثقته فى الصديقين وحديثهما إليه عنى رطبت وجهه بالقبول وأقام مراسم الضيافة على النسق العربى.. (وليمة من الأسماك وشراب العرق). وشرع يدندن ثم يتصاعد صوته بالغناء حين استخفه الشراب والطرب.. مازلت أتذكر من الأغنية الشعبية الملحمية التى ترنم بها عبارة (والمشنقة ياصاحبى ارجوحة الأبطال) على لسان بطل شعبى قاوم العدو المغتصب فى عصر الاحتلال العثمانى أو الفرنسى حتى قبض عليه فأعدم وخلد فى ضمير الشعب.

قادنى أحد الرفيقين إلى الداخل ملتمسا غسل اليدين.. هنالك راعتنى مفاجأة أخرى.. سيدة حسناء تجلس فى سكون تغزل أو تنسج كأنها بنيلوب الإغريقية الأسطورية... لن تنتهى عجائب هذا المساء، فالمكان موحش لايصلح لامرأة بل ولاظلها. وعرفت انها حواؤة ولاغرابة فهو يشبه الرجل الأول على ظهر البسيطة. آدم فى غابة القرن العشرين. كانت المرأة كما حدثنى الصديق همسا عاشقة مسلوبة العقل، ولم يدخر عاشقها وسعا فى سبيل علاجها والوفاء لها.

اكثر من ساعة مرت وهو يحكى لنا بالحديث الشائق والغناء عن عنترياته.. مغامراته مع رجال الدرك.. سجنه أحيانا.. ومقاومته الوحشية لهم. كان يرتكب جريمة الصيد بالمفرقعات التى تقضى على الذرية السمكية. ولايخرج من السجن حتى يعود إلى جريمته فيعود إليه. غمغمت بأبيات تبلورت فيما بعد حتى انتظمت فى قصيدة الصياد اللبنانى الأسطورى سميتها (الكنز) ونشرتها فى ديوانى (عيون منار) ١٩٧١ :

تحت مهاوى الصخر
بين العباب والنجوم

كان يغنى الموج والشباك
يقتلع الأشواك
فى غبش السكون
لا غيم.. لا تخوم
تحجب دورة الزمان
وتطفئ الأشواق
كان يغنى الموت للحياه
كان يغنى للرجال :
« والمشنقه
ياقاتلى الجبان
أرجوحة الأبطال »
سمعته هذا المساء
رأيته.. قاسمته كسرته
شرابه .. غناءه.. عالمه الصغير
وكان كنزه معلقا على الجدار
يشدو به فى أول النهار
وآخر النهار
يحمله سيفا على الكفار
يلقى به الإعصار
ويركب البحار
وكان كنزه وسيفه ولحنهُ
صورة إنسان على الجدار
القلب واللوحة والإطار
تضمه.. لن يقهر العرب

ووجه فارس الأمل
فى فجوة من الجبل
تُقر عينى عاشق قديم
يحيى على ذكرى صلاح الدين
ويرقب الأضواء فى (حطين)
على مدى العيون
مهوّما على ذرى لبنان
معلقا بين العباب والنجوم
تحت مهاوى الصخر
مغنيا : « والمشنقه
أرجوحة الأبطال »

حين خلعت عنى إهاب (الضابط الغريب) بعد عامين فى القرى، وجدت جلد (الصياد) يكسو لحمى وروحه تسرى فى كيانى حتى العظم، لم يبق لى غير وجهى وقلمى. وجه لايحكى شبكة صيد، وقميص لم يعد من زبد الموج، أدركنى (المتولى) فى المدينة وسمعته يدق فى صدرى. صرنا واحدا، روحا حلت فى بدنين، فإذا أبصرتنى أبصرته، وإذا أبصرته أبصرتنى كما تقول رابعة العدوية. اغترابى بين مطرقة النظام وسندان المثقفين من شعراء ونقاد فى المدينة، هو اغتراب صياد (كفر فيشا) فى وطنه وفى مجتمعه، نصيبه منهما الفاقة والحرمان والسحق تحت طاحونة الاستغلال، ونصيبى مقتهم ونفاقهم وصمت أقلامهم عن معزوفاتى على وتر الفلاحين والصيادين، إذ كنت عنهم بعيدا أو (متباعدا) كما قال لى ذات يوم الدكتور لويس عوض، أولست من شيعتهم كما كان موقف الكتاب اليساريين أعضاء التنظيم السرى منى بناء على أوامر تلقوها من الكهنة الكبار. فلم يكن يكفى فى معتقدهم أن أكون يسارى الاتجاه حياة وفنا ومذهبا، بل يشترط أن أكون عضوا فى التنظيم الذى طالما اخترقه الانتهازيون فأشاد بإنتاجهم أولئك الكتاب والنقاد. وذلك الشرط يمثل عبودية جديدة، هى العبودية الحزبية التى كانت إحدى العوامل الأساسية التى نخرت فى نظام الأحزاب الشيوعية فى العالم، وفى مقدمتها الحزب الشيوعى السوفيتى، مما أدى إلى انهيار الدولة وانتصار أعداء الشعوب أدعياء الديمقراطية.

(شعبان) الجوعان طريدهم. و(المتولى) اللعنة التى يطاردونها، و(صابر) الضحية الجريمة التى يتبرأون منها. مددت نحوهم يدى العائدتين من تراب الحقول الغابرة والبحيرات الطاهرة الآسنة فتجاهلوهما، وود بعضهم لو يقطعون منها الأوردة. حين ينزل الوباء تغلق المدينة أبوابها على من فيها وتصد القادمين إليها.. لامكان لِلأجئ بين أهلها الأصحاء المترفين.. سم زعاف هذا الصوت المسكون بالتحدى.. وجه

غريب كئيب.. يبيع بضاعته بلا مقابل فيسرق منا السوق المنصوبة باسم الجمعيات المتعاونة الأدبية والنقدية ويقاسمنا بعد الرحمن الأرزاق وبعد ضرائب مولانا السلطان، فينازعنا مجدا نحن بنيناه بشق الأنفس أو بخراب الذمة أو بممالأة الحكام.. من أين أتانا هذا المقت عليه اللعنة أبد الدهر، إنا رادوه إلى وادى النسيان كما كان لينعم بالعصيان، ويخلد فى مأوى الشيطان.

نحن الأخشاب مسندة عند الضراء وفى السراء، ومنشار فوق رؤوس الأحرار لأنا لا أحرار سوانا، نحن نهدد بالقلم السلطان إذا أغمد سيفا، ونداجيه نناجيه إذا سل حسام الغضب من الغمد، ونعلم أنى تؤكل كتف أو من أين، فكيف ينازعنا المهنة سجان كان سجينا أو شيطان كان ملاكا، ووظيفتنا أن نجمع بين عدوين، نفرق بين قرينين، قطبا أو قطبين على الأكثر نصبنا، فالمملكة الشعرية تأبى التثليث أو التربيع أو التخميس، وملعون من لا يؤمن بالتوحيد أو الشرك على ألا يتجاوز ربين، وتلك صحافتنا وإذاعتنا والأندية المغلقة علينا وسماسرة النقاد العلماء!! لقد أقسمنا أن نحفظ عهدا أبرمناه فى (البارتى).

فليأذن بالمحق الدخلاء الغاوون، فساحتنا تمتد من القاهرة إلى بيروت وبالعكس، ولسنا تجارا فى السوق السوداء فأوجهنا بيض وأيادينا بيضاء على الشعب، وقد بايعناه على مقهى (ريش)، موصوم هذا «الشيخ إمام» ملعون «نجم» فى الأرض وفى كل سماء، كيف نحلق نحن طيور الحكمة والشعر بلا ريش؟ أنى نغدو نحن خماصا ونعود بطانا مالم نسرح فى الوادى أو فى الغابة ذؤبانا وأفاعى رقطاء كلابا للصيد؟ وعلى الله الحى الباقى نتوكل حق توكله كى يرزقنا مثل جوارح هذا الطير وحيتان البحر وديدان الجيف الميتة، أمر مقضى أبد الدهر وفى البدء الكلمة كانت، والكلمة كلمتنا، كفت أقلام إلا ثرثرة (الشلة)، جفت صحف إلا صحف الجمعيات المتعاونة الأدبية والنقدية والجمعيات الشرعية والخيرية، «وقل جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا» !!

لما كنت الباطل فى شرعتهم، والحق بشرعة (متولى) والصياديـن، شرعت شباكى، لم أملك أن أمشى أو أقف على وجه الماء الجارى، لست مسيح العصر ولكنى

إنسان طين أو صلصال لكنْ أقوى من صخر الجبل النارى، ولا يطفئنى الماء أو الريح العاتى، قد أرسب حتى القاع ولكنى لا ألبث أن أطفو، أخدش أقدام السباحين على الموج العالى، وأطير فأسقط كالقدر الهاوى فوق رؤوس دهاقنة الكلمات الجوفاء.

(متولى) يتناسخ مقتولا لكن ليس يموت.. (متولى) الموت لقاتله.. (متولى) لايملك إلا شبكته وأنا لا أملك إلا الكلمة، والكلمة سيف فى عنق التاجر بالكلمة، مهما طال عليه الأمد وناصره الأفاقون الأفاكون.

(متولى) يغلب بالصبر. تضئ الشبكة والكلمة من زيت الليل، فالليل الأسود نور للصياد العانى الكادح إن يظلم فجر، والقمر غريم الصيادين.

لكنى لم أفقد نفسى.. لم أخسر أجمل ما أعطيت.. كنز الحب ونور القلب «حتى أعدائى دخلوا بيتى، ونثرت لهم حبات القلب». ماجازيت الحاقد حقدا، والخائن غدرا.. كنت صفيا ونقيا يشبهنى (شعبان) أو أشبهه.. عدْوى لا أملك أن أنجو منها، عدوى الجذر الناشب من خوف الموت وخوف الوحدة والغربة والطغيان بأعماق التربة، عدوى جدى المصلوب كنهر النيل من «النوبة» حتى «دمياط» الباسط كالنسر جناحيه فرعين يضمان الدلتا، عدوى جدى الطيب مرهونا فى حبسه :

هذا جناه أبى على وما جنيت على أحد

تبدل الموقع، وما تغير العصر، فارتددت صيادا فى القاهرة بعد صراع غير متكافئ، هيكلا يحمل روح (المتولى). وكان حصاد المرحلة الأولى من المسيرة فيها قصيدتى (كلمة حب) التى تتراءى لى اليوم بعد ربع قرن على كتابتها تنويعا على معزوفة الصيادين :

ملاح فوق عباب الموج
يطفو فى زورقه قبل الفجر
والزورق وجه صغار
فى عمر الورد
الطلعة حلم بالغد
واللحظ شعاع
والصدر العارى

فى وجه الريح الهوجاء
عارٍ إلا من نبض الحب
والنوء العاتى ألف ذراع
لكن لايهوى
لايهوى للقاع
ooo
كل مساء يرجع مكسور القلب
يملأ جعبته قبضِ الريح
وأحاديث رجال جُوف
ألف لسان معسول يدعو
يغرى بالأصداف على القاع
لكن لايهوى
أبدا فوق غمار الأمواج
لايسلو
رغم تهاوى رفقاء فى الركب
بين شباك النوء العاصف
لم يلقفه القاع
لم يجرفه المد الزاحف
ومضى يضرب فى الآفاق
يرثى للعشاق
ويبث الأشواق
هيمان على رؤيا العودة
رفت فى موال أخضر :
كلمة حب تأسو جرحا
تملأ قلب العالم فرحا
ما أحلى تذكار العوده
ooo

العالم يرتقب القمر الصاعد
يهتك ظلمات الغيب
والموجة تنحسر عن الشطآن
ويعود الملاح
يحكى قصة عصفورين
ضلا فى العاصفة الهوجاء
خاضا المحنة بجناحين
فوق الأنواء جريحين
لكن ما افترقا
ماهويا للقاع
هاما فى رؤيا العوده
كلمة حب تأسو جرحا
تملأ قلب العالم فرحا
ما أحلى تذكار العودة



على جناحى خافقى القلق هبطت القاهرة فى العطلة الأسبوعية أقصر الأيام الطويلة الباقية، إذ كنا فى أواخر شهر يولية الذى تصدر فيه حركة التنقلات السنوية للضباط. قصدت (كاتم الأسرار) كما كان يطلق فى ذلك الحين على مدير إدارة شئون الضباط الموكل بتسيير الحياة الوظيفية لرعايا الداخلية من هذه الفئة منذ (التعيين) حتى الإحالة على المعاش، بما يتخلل هذه الفترة من نقل من منصب إلى آخر ومن مديرية إلى أخرى، وما يتخللها من ترق فى الرتب العسكرية وما إلى ذلك من أمور تتعلق بالخدمة وبالموت فى أثناء أدائها.

تظل الأنفاس معلقة بموعد (الحركة العامة) المرتقب كل عام، والعيون على (المفكرة) التى ترصد مرور الشهور والأيام فى عد تنازلى، تزيد به النفوس توجسا وحيرة، إلا من تقرر مصيره فأمن من خوف، وأولئك هم الذين رضى الله عنهم، فأحسن مثواهم فى مراكز القوة بالقاهرة لايتزحزحون عنها بدعوى تخصصهم فيما أحل لهم من مواقع العمل. أما (الشُّغّيلة) من أمثالى فلهم الله : من الجنوب إلى الشمال ومن الغرب إلى الشرق ذهابا وإيابا فى دورة فلكية لاتنتهى إلى آخر العمر الوظيفى، مالم تقع معجزة من السماء تحرك الجبال التى أرستها قواعد التنقلات طبقا لمبادئ العدالة والإنصاف ورعاية الأسرة ولا الضالين.

كم من أسر تشتتت تطبيقا لهذه المبادئ أو القواعد التى كثيرا ماتكون فى ظاهرها حقا ورحمة وفى باطنها باطلا وعذابا. لقد ظلت أسرتى تحلم باجتماع الشمل عشر سنوات تباعا فى المرحلة الأولى. ولم أكد أتنسم ريح القاهرة حتى رددت مرة أخرى إلى الأقاليم عودا على بدء. وكأنما حياة وزارة الداخلية واطراد عجلتها فى الدوران رهينان بهذا التشتيت، أو كأنه العمود الرئيسى الذى ينقص دونه البنيان السامق

الأشم.. عمود الفراهيدى تطور حتى كاد يندثر بعد ألف وثلاثمائة عام ولم تسقط دولة الشعر، فكم مائة أو ألفا من السنين ستمضى قبل أن تسمى الأشياء بأسمائها الحقيقية، فلا يطلق على النقل اسم الاستقرار، وعلى القهر اسم الحق والعدل.

باسم القسمة العادلة لم يكن مفر من الإذعان. فلكل قرار حكمة، وحكمة حركة التنقلات العامة السنوية ألا يمكث الضابط فى أرض ما فترة طويلة من الزمن تمكنه من بسط نفوذه، وعقد صداقات، مما يحتمل معه أن يحكم فيما يعرض له من أمور بهواه مستغلا سلطته (تغيرت القوى المؤثرة ولم تتغير الحكمة). ولكن هذه القاعدة الحكيمة لاينبغى أن تطبق فى حالات الضباط المتخصصين، فلكل قاعدة استثناء، ولاينبغى أن تطبق أيضا فى حالات أخرى علمها عند ربى، وفوق كل ذى علم عليم.

لزملاء المهنة - مثلما لكل فئة - أمثال وعبارات ومصطلحات يتفردون بها، تبين وتفصح حتى يدرك فحواها الناس كافة، أو تدق وتغمض حتى تصبح لغزا أو (شفرة) لايحلها إلا أصحابها أو الراسخون فى العلم. أبناء مهنتى القديمة طالما سمعت منهم تلك المأثورة حين يتندرون فى ضحك كالبكاء : (على الضابط أن يتسلق حتى يبلغ أعلى سطوح المدينة ثم يلقى بنفسه، وحذار أن يموت !!) ولو أخطأ فإن حساب عصيانه لعسير!!). وطالما ترجمت مقولتهم إلى بيت شعر قديم جديد :

ألقاه فى الماء مكتوفا وقال له

إياك إياك أن تبتل بالمــــاء

وهكذا عدت من الغنيمة بالإياب بعد لقائى الموعود بمدير إدارة كاتم أسرار. فقد استأذنت فى مقابلته، فأرجأ سكرتيره الموعد ساعة ريثما يفرغ من زواره. ولولا هذا الإرجاء لما قدر لى أن أرى وجه القاهرة، إذ قصدت موظفا بالوزارة يمت لى بصلة مصاهرة، شغلا لتلك الساعة. وعرج بنا الحديث إلى الأمر الشفهى الذى أصدره الوزير متلطفا متعطفا بنقلى إلى القاهرة تقديرا لديوانى (من وحى بورسعيد). ولما كان ذا خبرة وصلات، فقد تركنى بمكتبه ليعلم من مصادره الخاصة نوع العمل الذى ألحقت به فى مشروع حركة التنقلات المعد للاعتماد والتوقيع من مجلس الشرطة الأعلى.

وما لبث الرجل أن عاد مكتئبا وألقى بين يدى المفاجأة : «الحركة على وشك الصدور، وهى خلو من اسمك» . كدت لا أصدق أذنى. فلو أفلتت منى هذه الفرصة، فليس ثمة شعاع من الأمل فى رحمة القوم بعد اليوم. إن قضم الحجر أهون من لقاء آخر مع الوزير يسفر عن وعد بنقلى إلى القاهرة. أضاف محدثى ليجلو عنى الشك : ((لم أكتف بمراجعة أسماء المنقولين من أقرانك حاملى رتبة (اليوزباشى) وقلت : ربما أدرج اسمك خطأ فى قائمة أصحاب الرتبة التالية، ولكن عبثا إذ وجدتها كالأولى، فانظر ماذا ترى؟))

رجعت إلى صاحب الحل والعقد كاتم الأسرار.. ذكرته بأمر الوزير وقد تأكدت أنه تعمد عدم تنفيذه ولاخوف عليه إذ طال على الأمر الزمن. فمن ذا الذى يشفع لى؟ من يتيح لى أن أجدد اللقاء والوعد؟ فليأخذ مكانى بالعاصمة من هو أنفع منى لشخص الكاتم؟. أجابنى : (وهل نسيت حتى تذكرنى؟ أنت منقول إلى القاهرة بناء على المذكرة الصادرة من مكتب الوزير، فاطمئن وعد إلى عملك بنقطة الشرطة قرير العين، فما هى إلا ساعات معدودات حتى تصبح هنا معنا) . ووقف ليصافحنى إيذانا منه بانتهاء المقابلة. وكان انصرافى يعنى نهاية كل شئ. وحرت ماذا أفعل، وتشبثت بالبقاء وأنا أشهد ممثلا مفضوحا يعرض فصلا من الخداع والمراوغة والكلمات الكاذبة المعسولة.

أسعفتنى القريحة فى الخروج من هذا المأزق كشأنها غالبا كلما أحيط بى سألته عن الجهة التى سأنقل اليها : أهى محافظة القاهرة (مديرية الأمن) أم ديوان الوزارة؟ أردت أن أطيل حبل الحديث حتى أجد لى مخرجا من جحر الثعلب. فتظاهر بالغضب إتقانا للدور المرسوم وهو يقول: (دعك من هذا واحمد ربنا على النقل إلى القاهرة فى أى مكان) . استأنفت الجولة وأنا محام فقلت له: (قلبى يحدثنى أنك نسيت أن تدرج اسمى فى قوائم المنقولين لكثرة عددهم وزحمة شواغلك. وبودى أن أعرف من أين وإلى أين نقلت ليطمئن قلبى) بدا كما لو كان هو المحاصر هذه المرة فاصطنع ضحكة حنجرية وهو يقول: (إنه الوسواس والشعراء يتبعهم الغاوون فانصرف على بركة الله) . يريد أن يحول مصير أسرة إلى نكتة سخيفة.

وزادنى الخوف من عقبى مكره معاندة، ومنحنى الحق قوة أدفع بها الباطل الشيطانى فقلت : (قلبى لا يكذبنى ولن أبرح مكتبك حتى تخبرنى). وأضفت إذ أدركت أنه ضعيف فى داخله رغم مظهره كما علمتنى تجربة التعامل مع أمثاله : (هل أصعد إلى مكتب الوزير لآتيك بمذكرة أخرى؟). وفجر تساؤلى تناقضه فقال: (ألست تعمل فى المنيا يا أخى؟) أنقذتنى الكذبة فصحت: (ها أنت ترى أنك نسيتنى. فأنا لم أعمل قط بالمنيا.. ومكانى هو مديرية المنوفية التى تضم النقطة التى أرأسها. أرجو أن تدرج اسمى الآن فى الحركة تحقيقا لما تلقيت من وعد).

خفض من صوته، ورسم على وجهه سمة الجد ومسحة من الصرامة قائلا: (لتعد إلى بعد غد). قلت: (إنه يوم الجمعة وقد يحال بينى وبين لقائك بالنظر إلى سرية الحركة ياسيدى كاتم الأسرار). قال: (سأصدر أمرى لشرطة البوابة بدخولك). وعدت فى صبيحة اليوم الموعود وأنا أحدث نفسى: (لتصحبه حتى باب الدار). كان جو الوزارة خلوا من الحركة المعتادة، يخيم عليه سكون يذكر منذرا بالهدوء الذى يسبق العاصفة أو الملحمة، إذ لم يبق غير ساعات على نزول المحنة التى يسمونها حركة التنقلات السنوية وتنحبس فى انتظارها الأنفاس. والويل لمن لا يملك مثلى إلا نفسه وأطفاله وديوان شعر يتيما لايغنى من أمره شيئاً بعد اليوم. وتذكرت فى طريقى (الحجاج) فقد كان أرحم بوضوحه القاسى. وربما استرجعت فى أذنى صدى عواء الذئاب والثعالب فى ليالى الدوريات الريفية.

حين أذن لى بالدخول رأيت مع الكاتم شخصية من الرؤساء تشغل مركزا مرموقا، وقد بسطت بينهما قوائم خرائط معركة حربية مقبلة فاصلة. صافحنى فى عجلة واستمر واقفا إيماء منه إلى خطورة كل لحظة تمر وعدم رغبته فى جلوسى حتى لا أضيع ثانية من وقته الثمين. جملة واحدة أو جملتان ألقى بهما فى وجهى ليرتاح منه: (لقد رجعت إلى السيد الوزير فى شأنك وهو عند وعده، وستنقل فى الحركة إلى القاهرة). قلت: (إلى أى موقع؟) قال فى لهجه آمره لائمة مختتما أقصر مقابلة: (ستنقل إلى القاهرة والسلام. يكفى هذا فلا تزد).

عجبت لأمر هذا الأفعوان وتتلذذه بازدراد أعضاء الفريسة قضمة قضمة،

وامتصاص قواها حتى آخر نفس. ففى المقابلة الأولى، وقبل أن نتحدث فى شأن تنفيذ أمر الوزير بنقلى إلى القاهرة، أجلسنى على أحد مقاعد منضدة الاجتماعات المجاورة لمكتبه، وطلب إلىّ أن أراجع وأصحح ما أجد من أخطاء فى مقالة كان قد كتبها وأعدها للنشر بمجلة الأمن العام التى كنت بعد ذلك سكرتير تحريرها. وأمطرنى بسم ابتساماته حتى أقدم إليه المقالة بعد تنقيحها رحيقا خالصا ليكون من الباحثين المشار إليهم بالبنان كأنما لم تكفه أبهة السلطة.

بين مكذب ومصدق رجعت القهقرى إلى حيث تنتظرنى بقية مشيئة القدر ودورة الفلك السيار بالعباد والعبيد. لم أتوقف وما كان لى.. سيزيف بل أيوب بل هو صابر والمتولى فى المقاومة ولكن أشد تمردا.. لايعرف مثلى محطات على الطريق.. يعدو وكأن سياطا تلهب ظهره أو حصوات يرجمه بها الشيخ الولى.. يحرق المراحل.. حين يبلغ نهاية الصعود يجد نفسه فى القاع.. يطفو مثل سمك البحيرة التى عاد إليها من الراحة الأسبوعية ومن الشبكة الأخطبوطية، وتطفو معه قصائد جديدة يبدأ بها صفحة أخرى من تاريخ الحارس السجين، ويستأنف رحلة السندباد على ضفاف الحلم والحقيقة، ذلك الشاعر المعاند الحزين والملك المضيع الضليل.



أسلمنى كاتم السر الهلامى المريب إلى الأركان المهيب فى رحلة الدوار من القرية والنقطة والدّوّار (مقر العمدية) إلى ضفاف الحلم والحقيقة فى مدينتى. فقد مضت الأيام الصيفية ولياليها ثقيلة رتيبة فى وجدانى منتظرا إعلان حركة التنقلات السنوية يتنازعنى الشك واليقين بعد أن رميت آخر سهم فى جعبة المحارب بغير سلاح إلا الكلمة والإصرار. خشيت أن يكون صيفى مثل صيف مجنون بنى عامر :

ونبأ تمانى أن تيماء منـــــــزل
لليلى إذا ما الصيف ألقى المراسيـــا
فهذى شهور الصيف عنا قد انقضت
فما للنوى ترمى بليلى المراميـــا

وابتسم القمر الريفى يودعنى إلى القاهرة الشمس التى نقلت إليها وقد عزّ علىّ فراق أحبائى على البحيرة وإن لم يعز على المكان إذ حملته معى فى حقيبتى.. فى صدرى.. ولم أكن أدرى أن إنسانه لن يفارقنى. ولكن أين موقعى الوظيفى فى القاهرة ذات المحافظة فى باب الخلق (قبل أن تسمى مديرية الأمن فى ظل نظام الإدارة المحلية) حيث الشرطة المركزية، والاثنين والعشرين قسما للشرطة وفقا لعدد الأحياء فى ذلك الوقت؟ كنت أتطلع إلى العمل بالمحافظة لأن إلحاقى بأحد الأقسام يعنى الاستمرار فى نفس العمل الذى توليته فى نقط الشرطة ولا خلاف سوى وسيلة الدوريات - السيارة بدلا من الجواد - ومن ثم لن يفيدنى النقل من الأقاليم إلى العاصمة فى تحقيق طموحى إلى شميم أنفاس الجو الأدبى الذى خلته من عبق الجنة، ولاسيما بعد أن استروحت نسيما مواتيا من الصحافة على اثر صدور ديوانى الأول (من وحى بورسعيد) ١٩٥٧.

مفعما بالثقة والأمل طرقت باب (أركان حرب) محافظة القاهرة فى محاولة

لإقناعه بحقى فى العمل بالمحافظة قبل أن تصدر حركة التنقلات المحلية التى يتولى هو إعداد مشروعها فأجدنى مثلما كنت لم يتغير غير المكان. ودار أعجب حوار منذ عهد كهان بيزنطة والسلطان الفاتح. ولو كان الرجل نموذجا مكررا لغيره لما علقت على لقائه أملا ولا وهما، فلقد اكتويت من قبل بالحجاج وكاتم السر المريب وتكفينى نار واحدة أو ناران. ولكنه كان ينتسب إلى عالم الصحافة. كان اسمه يتصدر مجلة للشرطة بوصفة أحد اثنين يرأسان تحريرها. فأردت أن أنفذ إلى عقله من الرابطة الثقافية التى تجمع بيننا أو تجعلنى من رعايا مملكته. فأفضيت إليه بالحلم المرتجى مستشفعا بحق الكلمة وأصرة الأبوة الأدبية التى تضمنا تحت جناحيها مكا عبر عنها أبو تمام منذ أكثر من ألف عام :

إن يختلف نسب، يؤلف بيننا

أدب أقمناه مقام الوالـــــــــد

* اكتب لنا أولا بعض الموضوعات للمجلة وسوف انتظرها معك حين تفرغ منها.

** تلك هى غايتى من القدوم إليك، أن يتاح لى عمل هنا أستطيع الجمع بينه وبين الكتابة شعرا ومقالا ودراسة. لهذا نقلنى الوزير إلى القاهرة.

* اكتب لنا موضوعين أو ثلاثة ثم تعال

** أنت تعلم أنى شاعر وكاتب متمرس.

وعجبت حين أصر على شرطه، وكأنه معلم لغة عربية يطلب من تلميذه كتابة «موضوع إنشاء». إنه يضعنى موضع الاختبار كأنى أديب مبتدئ، وهو يعلم أنه نشرت لى قصائد بالأهرام وغيرها من الصحف والمجلات، كما نشرت لى مقالات ودراسات. وهو لم يكن يساومنى، بل كان يناور ليظهرنى بمظهر العاجز واليائس فأرتضى الأمر الواقع وأحمد الله عليه، فليس لأشباهى من «الشغيلة» أن يتطلعوا إلى ما قسم الله لأشباهه.

أكد لى مراوغا أنه سيلبى مطلبى إذا قبلت شرطه، قلت : أخشى أن تصدر الحركة قبل أن أنفذ المشيئة السامية، أو ترى أن الحركة ستتأخر؟ ولم يعد بشئ، وحثنى

على أن أضع عربتى الفقيرة أمام جواده المطهم. وهكذا أسلمنى الكاتم الأريب إلى الأركان الأديب المهيب، وأسلمنى المهيب الأديب إلى (قسم بوليس الساحل) فى منطقة شبرا. والحق أنه كان رءوفا مستحقا لدعائى وثنائى إذ ألحقنى بقسم أقيم فى دائرته لأكون قريبا من مسكنى، وكان قد بدأ حواره معى بالسؤال عن عنوانى بالقاهرة، وحاول أن يقنعنى أن أكون قنوعا، فإن رغبتى أن أعمل فى حماه عمل أشعبى لايليق بى راجيا ولا به مرتجى، ضعف الطالب والمطلوب.

لاأنسى يوم استقبلتنى بالدهشة رفيقة الحياة، وقد عدت إليها من (القسم) فى منتصف الليل فى ردائى الذى تعبت هى فى إعداده وتلميع زرايره ونجومه فإذا بى أبدو فيه كأنى جزار لكثرة ماشاع فيه من بقع وبصمات أكف كاد يطغى لونها الأحمر على نسيجه الناصع البياض (كان الكاكى ومازال لباس شرطة الأقاليم، والأبيض صيفا والأسود شتاء لباس شرطة العواصم الحضرية). وكان ذلك فاتحة عملى بقسم الساحل. فليهنأ الأركان ويضحك فى كمه أو سره.

أتذكر الآن مارواه بعض أدبائنا المؤرخين القدامى عن ابن الرومى – واقعا أو خيالا– من أن الوزير الذى دس له السم فى الحلوى – وكان الشاعر العظيم معروفا بتهافته على اللوزينج وغيره من صنوف الحلوى وطالما شبب بها فى قصائدة – قال له هازئا متشفيا وقد سرى الداء فى أعضاء الشاعر وبدأ يتلوى من شدة الألم : (إلى أين؟) فكان الجواب : (إلى حيث أرسلتنى) وازداد القاتل الدنئ رغبة فى التشفى فألقى فى وجه الضحية بجملته المسمومة : (سلم لى على أبى !!) فقال ابن الرومى : (ليس طريقى إلى النار). وهى رواية تختلف عما قد يحتمل من موت الشاعر بداء السكرى بعد أن أودت به مضاعفاته، هذا الداء الذى يصحبنى أيضا منذ عهد الشباب ومن المصادفات أن ثمة وجوه شبه أخرى بينى وبين هذا المبدع العبقرى الذى أرى شعره هو وأبو تمام والمتنبى والمعرى ذروة ما بلغه الشعر العربى من إبداع طوال العصور. وكنت أحفظ كثيرا من قصائده عن ظهر قلب وأرى كتاب العقاد عنه من أهم مؤلفاته وأعظمها أثرا فى الحركة النقدية الحديثة، وقد وصفه بأنه طائر غريد فى غير جنسه.

كنت ضابط القسم المسئول عن (الفترة) فى ذلك اليوم، إذ كان نظام العمل يقضى بتغطية معاون الضبط وهو برتبة (يوزباشى) الفترة الزمنية من الثانية إلى السادسة مساء، وهى الساعات التى يخلو فيها القسم من المأمور والضباط، ويتولى (معاون البوليس) تغطية الساعات الأربعة الواقعة بين الثامنة مساء إلى منتصف الليل وتسمى (السهرة)، ويتناوب المعاونان ساعات الظهيرة وساعات المساء واحدا بعد الآخر. وقد تمتد (الفترة) حتى منتصف الليل أو مطلع الفجر إذا وقع حادث خلالها يقتضى من إجراءات الضبط والمعاينة والتفتيش وغيرها ما يستغرق أضعاف ساعات العمل المقررة، وكذلك الشأن بالنسبة (للسهرة).

وكانت (الفترة) على وشك الانقضاء، والعين تتابع عقربى الساعة فى لهفة، أملا فى أن تحين الساعة دون إخطار بوقوع حادث يحول بينى وبين الانصراف إلى بيتى بعد عمل متواصل من الصباح الباكر. لكن الطالع لم يسعد، فكان ما خفت أن يكون. وهكذا انتقلت مع نفر من جنود القسم المعينين فى (قوة الاحتياطى) المعدة للطوارئ إلى شارع العسكر بحى الترعة البولاقية فى شبرا (أطلقت عليه هذه التسمية لكثرة جنود الشرطة بين سكانه) لضبط واقعة مشاجرة استخدمت فيها الأسلحة النارية والأسلحة البيضاء (السكاكين وأشباهها) وسقط صرعى وجرحى كما ورد فى تقرير ضابط بوليس (النجدة) الذى كان أول من تلقى نبأ الحادث، وأخطر به قسم الشرطة المختص.

بشعة كانت صورة الفوضى الدموية بهذا الشارع الواقع فى قاع المدينة حيث تفرخ مرارة الكدح والصراع فى سبيل لقمة العيش تحت ظروف التخلف شتى صنوف الانحراف والإجرام من عدوان على النفس والمال وإخفاء الأشياء المسروقة والاتجار بالمخدرات. ونظرا لأزمة المساكن فى تلك المنطقة وضيقها مما نشأ عن ظاهرة الهجرة الريفية إلى المدينة وإقامة عدة أسر بمسكن مشترك فى مرافقه، فقد كثرت المنازعات بين أهل الحى ذوى المنابت والمشارب المتباينة ونجم أغلبها عن شجار الصغار، ومعظم النار من مستصغر الشرر.

تصدرت سيارة النجدة الطريق الذى كان يغص بخلق الله ويردد الصرخات

الملتاعة تطلقها نسوة وبنات خارج الدور وداخلها والأطفال فى ذهول. وشرع الجنود يخلون الشارع لتهيئة منفذ بين الأمواج لعلنا نعثر على ضابط النجدة الذى ابتلعته الدوامة المأساوية، ونستجلى ما حدث لضبط الواقعة، وتحرير محضر جمع الاستدلالات الذى تقوم به الشرطة بوصفها من أعوان الضبطية القضائية وهى النيابة العامة، وما يقتضيه هذا من ضبط الجناة أو المشتبه فيهم وأدوات الجريمة وإجراء المعاينة وندب الطبيب الشرعى فى حالة سقوط ضحايا قتلى أو جرحى وخبراء البصمة وغير ذلك من الإجراءات.

وقد كان من الصعب أن أتعرف على ظروف الواقعة وضحاياها من قتلى أو جرحى وأماكنهم فى غيبة الضابط الذى كان أول من انتقل إلى الموقع وأبلغ به، وفى غيبة شهود محددين من أهل الحى نظرا للفوضى التى كانت مستشرية. واستطعت أخيرا أن أبلغ المنازل التى سقط بها صرعى حادث المشاجرة تهدينى إليها ولولة ثكلى أو صرخات أخت أو ابنة. وحين عدت إلى بيتى فى ذلك اليوم كانت أيدى النساء المخضبة بالدم – وهن يتشبثن بى ويقدننى من ثيابى إلى أفنية المنازل حيث حصاد المأساة والجريمة – قد تركت على ملابسى بصماتها وفى قلبى جراحها.

شبرا - هذا الحى القديم الذى يمثل أول محطة يبلغها الريفى النازح إلى القاهرة من الدلتا - أتاح لى رؤية قاع المدينة - حيث يأوى الذين يعيشون يوما بيوم - فى همومه وجرائمه وفى أفراحه الصغيرة، كما عرفت فيه بعض أسرار المنعمين، إذ كان قبل عقدين أو ثلاث من السنين مقاما للطبقة المتوسطة وأسر من علية القوم، وقد ضم قصرا من قصور الأمير محمد على توفيق الذى كان ولى عهد الملك فاروق. وقد رحل معظمهم عنه بعد أن غزته جحافل من الأجراء الزراعيين الباحثين عن فرصة عمل أفضل أو عمال التراحيل الذين يعانون البطالة فى قراهم وهم معدمون، فأرسوا فى الحى رحلهم إلى غير عودة، فلم يعد مقاما طيبا للطبقة الراقية كما كان يطلق على سراة ذلك الزمان وكل زمان.

بكاء وخمر ليس يتفقــــان
سبيلاهما فى القلب مختلفان !!

وكان القسم الذى أعمل فيه - ومازال - أحد أقسام شرطة ثلاث ترعى الأمن فى ذلك الحى الكبير المحتشد بالسكان. وقد خص كلا منها نصيب من العمارات التى تقطنها فلول ذوى المستوى الاقتصادى المرتفع، جنبا إلى جنب مع أبناء الموظفين الذين نالوا حظهم من الدراسة الجامعية بفضل مجانية التعليم، فتقلدوا مناصب مرموقة فى الدولة. وقد شهدت الواقع السرى لأسرة من هذه الطبقة تمثل نموذجا لاشك لعديد من الأسر، وتكشف عن الوجه البغيض للمدينة والنقيض فى قيمه وسلوكه للذين فى القاع. فجرائمهم جرائم رفاهية شبعت حتى أتخمت، وملت من فراغها فبحثت عن وسائل جديدة للإمتاع والمؤانسة، وابتدعت لفجورها قوانين تحميها وتجد من يسارع إلى نجدتها إذا تعارض تطبيق القوانين مع المدونات التشريعية الرسمية للدولة فى روائها المظهرى.

كانت الكثرة الغالبة من زملائى الضباط فى أواخر الخمسينات ممن تخرجوا فى كلية الشرطة قبل نظامها الحالى القائم على تخريج ضباط حاصلين على (ليسانس حقوق). وقد ترتب على ذلك كثرة الوقائع الجنائية التى كان وكيل نيابة قسم الساحل ينتدبنى لتحقيقها.

وعلى كثرة الحوادث التى ضبطتها خلال حياتى الوظيفية مما أسقطته الذاكرة، فإن حادث (شارع خلوصى) بذلك القسم مازال محفورا فى تلك الذاكرة، إذ مس وترا مشدودا فى أعماقى لم يزده مر السنين إلا رهافة، وأرّث رمادا لم تنطفئ جمراته ولن.

مثل عديد من (الفترات) شاء طالعى الميمون أن يدق الهاتف بمكتبى قبل دقائق من انتهاء (الخدمة). وقدم لى المتحدث نفسه قبل أن يبلغنى أن طباخ الأسرة قد شرع فى هتك عرض زوجته وفر هاربا بعد استغاثتها، وأن علىّ أن أبادر بالحضور إلى مسكنه لضبط الواقعة و(اتخاذ اللازم) للقبض على الجانى الهارب. إنه يبلغنى بجناية خطيرة إذن، فالواقعة إذا صحت يستوى فيها الشروع وإتمام الفعل من حيث التجريم والعقاب، ومن ثم كان مصطلح (لاشروع فى جريمة هتك العرض). كان الرجل كما حدثنى يشغل وظيفة فى الجهاز المنوط به إقامة العدل بين الناس، وإن كنت قد عرفت بعد ذلك من اطلاعى على بطاقة إثبات شخصيته عندما أجريت التحقيق أنه فى (المعاش) بعد أن بلغ السن القانونية، وأنه لم يعمل فى سلك القضاء الجنائى أو المدنى، وإنما فى القضاء الشرعى، ومن ثم غاب عنه التكييف القانونى الصحيح للواقعة التى أبلغنى بها.

عرضت عليه أن يحضر إلى القسم حتى أتحقق من شخصية محدثى وجدية بلاغه، ولاسيما أن المسافة بينى وبينه قليلة، ولكنه أصر على حضورى، فبادلته الإصرار محتجا باستحالة مغادرتى القسم بناء على بلاغ من مجهول. ولكن الدافع الحقيقى كان شيئا آخر، إذ تذكرت أنه قبل وقت قصير من تلك المكالمة الهاتفية اطلعت على (دفتر الأحوال)، لمتابعة مجريات العمل بالقسم من خلال المذكرات التى دونها (ضابط الصف) المكلف بتلقى الشكاوى ورصد المنازعات التى لا تشكل جرائم

ومحاولة الإصلاح بين أطرافها، وكان مما أثبته مذكرة فى شأن شكوى شفهية يقول صاحبها إنه يعمل طباخا لدى أسرة بشارع خلوصى، وأنه لم يحصل على أجره منذ عدة أشهر، وقد استولت مخدومته على بطاقته الشخصية لتحول بينه وبين التخلى عن عمله والبحث عن مورد رزق لدى أسرة أخرى.

كان واضحا أنه الطباخ المتهم بارتكاب الجناية الخطيرة. ولكنه كان قد انصرف فأمرت بالبحث عنه فى الشوارع المحيطة بالقسم. ومالبث أحد الجنود أن اقتاده إلى مكتبى بعد أن ضبطه يحوم حول المكان. كان نموذجا بشريا يجسد البؤس والهوان. جسد كالعود الذاوى.. والرأس والوجه جمجمة ذات ثقبين شحب فيهما البريق.. بدا مثل شبح يتضور جوعا. تساءلت فى نفسى: أهذا هو الوحش الضارى الذى يفتك بفرائسه من غوانى البيوتات؟ بل إن ملبسه الرّث لا يتصور معه أن يعد الطعام للسادة والسيدات؟

تكاملت فى ذهنى فصول التمثيلية التى كان على أن أشترك فيها وأقدمها للنيابة والقضاء باسم (جريمة الموسم).. علىّ أن أجيد إخراجها لأثير الرأى العام ضد هذا (الفحل) الذى آوته وأطعمته أسرة كريمة فجحد الجميل وارتكب المنكر ثم ولى فرارا، فاستحق بفعله لعنة المجتمع وعقاب القانون الصارم العادل. ورغم ترجيحى براءة الشقى المسكين، فقد تظاهرت بتكذيبه لأتبين الحقيقة فلعلى واهم فى تصورى. وهكذا مثلت دور المحقق الغليظ القلب فحاصرته بالأسئلة المتلاحقة بعد أن أنكر ما نسب إليه.

واستبعدت بعد استجوابى له أنه قدم شكواه تغطية للجريمة المتهم بها، وتحققت أنه هو الضحية. فلا شك عندى فى صحة شكواه. لقد رفض الاستمرار فى العمل لضآلة المرتب أو لتأخير صرفه أو لتجويعه أو لسوء معاملته، فعز على مخدومته أن يتمرد صعلوك على أميرته، وأن تعجز عن إبقائه فى حوزتها مقهورا، فرفضت أن تعيد إليه بطاقة إثبات الشخصية التى احتفظت بها لديها ليصبح رهينا مثل نظام الكفالة فى بلاد النفط العربية، والتى لاسبيل له إلى عمل دونها، ولعله تجرأ فصاح فى وجهها فاشتبكا فى عراك.

كسر العبد أغلاله منطلقا إلى الشارع الأقل قسوة، وخاف أن يضبطه أو يستوقفه شرطى بتهمة الاشتباه فى أمره لسوء مظهره، وهى تهمة ظاهرها حق وباطنها باطل فى كثير من الأحيان، إذ طالما استخدم سلاحها للتنكيل بأبرياء وضرب بالشروط التى يستلزم القانون توفرها عرض الحائط، ولكم تختزن الذاكرة من وقائع لُوِىَ فيها ذراع التشريع لتخضيعه للأهواء الشخصية والسياسية المشبوهة، كم صرخ المظلوم ولا من مغيث، لأن جزاء المغيث لن يكون أقل من عقاب المستصرخ إلا أن يملك هذا أجر محام ذى ضمير.

برقت فى ذهنى لحظة صورة سيدنا يوسف وسيدة القصر زوجة ولى النعم عزيز مصر .. أترى هذه المرأة إذ تتهم طباخها البائس بالاعتداء الجنسى عليها زليخة أخرى؟ ولكنى سرعان ما استبعدت الخاطرة، فمن أين لهذا الهيكل العظمى دم يفور وهو عاجز عن ملء بطنه طعاما؟ ولقد حدثنى فى استجوابه بنبرات جريح مستضعف أن لديه لو شاء وقدر ما يشبع غريزته عبر سلم الخدم، فإذا لم يشأ فإن لمخدومته ابنة فى ريعان العمر طالما وجد نفسه وحيدا بالمسكن معها، وما وسوس له الشيطان أن يراودها ويخون فيها سادته الذين قضى فى خدمتهم عدة سنوات تشهد بحسن سلوكه وعفته وأمانته.

كان الرجل الوقور المبلغ قد عرض علىّ – بعد أن أصررت على حضوره بمكتبى– أن يوفد ولديه لأخذ أقوالهما نيابة عنه. فأمرت المتهم أن يقف خلف ستار مجاور لباب المكتب وأن يلتزم الصمت حتى آذن له. وحضر الأخوان : محام وضابط بالجيش فى زى مدنى. لم تختلف أقوالهما عما أبلغنى به الوالد. فوجئا بأمر المذكرة المثبتة بدفتر الأحوال، ولكنهما أصرا على الاتهام. وكانت مفاجأتهما أشد حينما ظهر أمامهما الطباخ بعد أن دعوته. ولم يتراجع أحد الجانبين عن موقفه. وردد الشابان الفاضلان كلمة «ماما» وهما يؤنبان مخدومهما بأغلظ الكلام لأن «ماما» لاتكذب. وقد حاولت جاهدا – بعد إخراج المتهم من الغرفة – أن أقنعهما أن الاستمرار فى إجراء التحقيق يضر بسمعة الأسرة المحترمة وبمركزهما، وأن الاكتفاء بتوجيه تهمة السب أو الضرب بدلا من هتك العرض خير وأبقى، ولن يفلت المتمرد من إحدى

العقوبتين: الحبس البسيط أو الغرامة، وفى ذلك تأديب له وشفاء لما فى صدر «ماما». ولكنهما كانا ولدين بارين فلم يستبينوا نصحى وتحذيرى من احتمال نشر الخبر بالصحف فى أعمدة الفضائح.

أمرت بتطويق معصمى المتهم بالقيد الحديدى لعل المرأة إذا رأته فى هذه الحال -حينما أجرى مواجهة بينهما - أن يرق قلبها ويسكن غضبها، فتعدل عما خططت ودبرت. وحين بلغنا جميعا (العمارة) حيث (محل الحادث) وارتقينا الدرج، هلت بشائر الروائح العطرية التى تنتظر الموكب. وخاب مسعاى إذ ارتفعت عقيرة «ماما» بالصراخ حينما أدخلت المتهم إلى الردهة حيث كانت تجلس وحواليها سرب من جاراتها كأنهن فى عرس. «أبعدوه عن وجهى، أبعدوا هذا المجرم». أخلد الزوج والأبناء إلى الصمت وتلامحت العيون فى انتظار «تدشين الحفل المبارك، حفل الانتصار» بيد الضابط الهمام.

فى غرفة المكتب حاورت رب الدار كما تقضى الرسميات لا الواقع. أعدت إليه النصح فلم يسمع لى. وعذرت المسكين إذ كان «عبد المأمور». ألقيت بآخر حيلة لأنقذ المسكين الحقيقى دون أن أتجاوز حدود القانون. قلت له : (لابد من تسليمى الملابس الخارجية والداخلية التى كانت ترتديها حرمه المصون «لتحريزها» - وضعها فى حرز مختوم بخاتم الشرطة - لأنها من متعلقات الجريمة التى تحوى أدلتها). وأفهمته أن المجنى عليها ستعرض على الطبيب الشرعى لتحقيق الواقعة، فلا يكفى اتهامها لإدانة طباخها، وأننى لا أملك إلا توجيه أسئلة تمس حياءها كأنثى، لأن طبيعة الجريمة تقتضى هذه الإجراءات. وتوكلت على الله وفتحت محضر تحقيق وقد استراح ضميرى. وبدأ الرجل يتراجع وغاب عنى هنيهة ثم عاد ليعدل عن تكييف التهمة السابقة إلى وصف آخر هو الشتم والضرب.

واجهت المتهم بالوصف الجديد فنفى اعتداءه على المرأة وذهب إلى أنها هى المعتدية وأن به إصابات. (يبدو أن التاريخ قد أعاد نفسه، فها هو الحمل يحلم أن يتساوى بالراعى، فيذكرنى بصياد كفر فيشا الذى سمع بى من المتولى فشكا صيادا من العصبة القوية). فأعلنت أن العدل يقضى بإحالة المدعيين على الكشف الطبى. وزاد الطباخ فصاح يطلب رد بطاقته الشخصية إليه، ولم أستطع أن استرد له حقه وأنا لا أكاد أصدق أنه نجا من القوم الظالمين.

مرت عدة أشهر على هذا الحادث الذى يعد نموذجا لظاهرة معروفة، وهى تحايل

نساء أو رجال من أهل القاهرة على إبقاء خدمهم لديهم تحت سيف التهديد باتهامهم بالسرقة إذا سولت لهم أنفسهم أن يتخلوا عن سادتهم. ولهؤلاء السادة من الأساليب ومن (المعارف والوسائط) ما يمكنهم من تنفيذ وعيدهم وتأديب العصاة المارقين الذين قد يدانون ظلما أو ينتحرون وقليلا ما يُنصفون. ولاينفى هذا الواقع أن ثمة من يخون الأمانة من الخدم فيلقى جزاءه. وأذكر أن صديقا من العاملين فى بلاط صاحبة الجلالة أراد أن يستعين بى لنفى الشبهات التى حامت حول زوجتة حين ألقت خادمتها الصغيرة بنفسها من نافذة مسكنها فى الطابق السادس فسقطت تتخبط فى دمها، فكان لامفر من استجواب هذه السيدة بالشرطة. ولقد رفضت التدخل بطبيعة الحال وخسرت مودة صاحبى وحسن ظنه بى!!. وقد مست مأساة الخادمات الريفيات الصغيرات وجدان بعض كتابنا الكبار وفى مقدمتهم طه حسين فى روايته (دعاء الكروان) ويوسف إدريس.

أفلت مارق (شارع خلوصى) وابتلعه زحام المدينة وابتلعنى معه، هو يغوص حتى حثالة كأسها التى لا تنضب عرقا وعطرا، ولاتفرغ ترفا وقهرا، وأنا أطفو على سطحها أراقب الزبد المتكاثر المتناثر ولا أرى إلا قليلا ما ينفع الناس.

وكان عصر يوم صيفى وقفت فيه أرتقب الحافلة لأستقلها إلى بيتى بمحطة على رأس ذلك الشارع الذى لفظت فيه الكأس جريمة مزورة. وإذا برجل يهوى مكبا على حذائى يريد أن يقبله. أدركنى ما يشبه الفزع. أى هوان أن يصدر من إنسان لا حيوان هذا السلوك!! كان الطباخ نفسه.. نهرته.. فتدافعت على شفتيه البائستين كلمات تحمل معنى الامتنان.. سألته عن حاله.. حمد الله.. ولكنه كان يحمل عينين رأيت فيهما عينى، أما وجنتاه فقد بدتا متهضمتين كأنهما لاترويان مثلنا من ماء النيل. وأما الجذع فكأنما مرت عليه ريح صرير عاتية..... ويلك يا قاهرة.. أيتها ال...أيتها ال... وويلى أنا الذى لا أملك له إلا يدا خاوية حانية.. وتمتمات مرثية.. لا أدرى أكانت له أم لنفسى.

وعلى الرغم من متاعب العمل فى قسم شرطة الساحل مثل غيره من الأقسام، ولاسيما أننى كنت أجمع بينه وبين العمل المسائى بمجلة الأمن العام، فإن لهذا

القسم وحوادثه يدأ بيضاء ودينا مستحق الوفاء وجميلا يطوق عنقى. فبفضله وبمحض الصدفه التى قد تلعب دوراً كبيرا فى حياة المرء، استعدت أحد رفاق الطفولة والصبا، وكسبت صداقة شاعر وناقد معا، وكأننى عثرت فى الحالين على كنز لايليق أن يقارن بأموال الدنيا، فقد زاد كلاهما نفسى غنى وزهدا فى المتاع الغرور.

جرت المصادفة الأولى ذات صباح حين فاجأنى بالزيارة فى مكتبى بالقسم الأستاذ عصمت الهوارى رفيق سنوات الطفولة فى حارة المجدلى، ولم نكن قد التقينا منذ مطالع الصبا ثم تفرقت بنا الأيام والليالى كل فى طريق. وكنت أسعد إذ أرى نجمه يلمع فى سماء المحاماة وتأليف كتب قانونية أصبحت مراجع معتمدة بالقضاء فى قوانين العمل والتأمينات وظل يشق طريقه عصاميا حتى صار وكيل نقابة المحامين :

بعد حديث الذكريات وفرحة اللقاء الذى عبر عنه شاعر قديم بقوله :

وقد يجمع الله الشتيتين بعدما

يظنان كل الظن ألا تلاقيــــــــا

قدم إلى شكوى محولة إلىّ للتحقيق من وكيل النائب العام، فسألته، لماذا وقع علىّ الاختيار بالاسم؟ قال الصديق : لقد رجوت وكيل النيابة أن يتولى التحقيق بنفسه. فأجاب: سأنيب عنى ضابطا زميلا هو موضع الثقة والكفاءة وسوف ترى. ثم فاجأه باسمى ولم نفترق منذ ذلك الحين. وهكذا لعبت المصادفة دورها فى بعث عهد قديم، ولله فى خلقه شئون فى الأنزاح والمسرات.

أما المصادفة الثانية فقد كان الوقت بعد الظهيرة وعملى (معاون الفترة) حين لاحظت شابا مظهره يوحى بالاحترام يتردد فى خطاه أمام مكتبى كأنه يريد الدخول لولا عقبة الجندى الواقف على الباب والمخافة الكامنة فى القلوب من ولوج عرين الأسد. أمرت الجندى أن يسمح لهذا الذى يقدم رجلا ويؤخر أخرى بمقابلتى. ولم يكد يصدق عينيه وسمعه حين دعوته إلى الجلوس ليدلى إلىّ ببلاغه أو شكايته التى اضطرته إلى طرق هذا السبيل الوعر فيما يحدس.

أبلغني بواقعة سرقة أوان نحاسية من مطبخ سكنه الواقع قريبا من بيتي وأنه لايتهم أحدا، وقد أستطيع مع رجال البحث الجنائى أن (نضبط الفاعل). فتحت محضر تحقيق وفق ما تقتضية الإجراءات. وعرفت من أقواله أنه مدرس فلسفة بمدرسة ثانوية وأنس بعد أن عاملته كضيف عزيز وأخبرته اننى شاعر وكم كانت دهشته وفرحته. وتوجهنا سويا مثل صديقين إلى داره لإجراء المعاينة.

استأذننى بعد أن اتخذت مجلسى بغرفة الاستقبال ثم عاد بعد بضع دقائق يصحبه شاب آخر أقبل علىّ بحفاوة بالغة، عرفت أن اسمه محمد البخارى وهو صديق حميم للأسرة، وشاعر مثلى. وكانت للدقائق التى غاب عنى خلالها الأستاذ وديع بطرس قصة طريفة، إذ دعا مضيفى صاحبه أن يصحبه إلى (الصالون) للتعرف بى، فأبى معلناً أن بينه وبين الشرطة ودا مفقودا واستعاذ بالله! وأراد رب الدار أن يثنيه عن موقفه فأخبره أن هذا الضابط الذى قدم للمعاينه أحسن استقباله بقسم الشرطة وأنه شاعر. فقال صاحبه إذن هو حسن فتح الباب. وأقبل وعقدت بيننا صداقة العمر كله إذ لم نفترق بعدها أبدا.

ولكن لهذه القصة وجها آخر شجيا، وهو دلالتها على ما يكنه المثقفون لا العامة وحدهم من نفور من الشرطة. ومازلت أعانى هذه السمعة اللصيقة بالمهنة حتى اليوم، وأكبر الظن أنها سوف تظل تطاردنى كلعنة أو جريمة حتى آخر الحياة، كأنما لم تكفنى متاعب الوظيفة وتناقضها كمهنة مع هويتى كشاعر. فمن الملوم، قدرى أم العقدة التاريخية المستحكمة الخاصة بالعلاقة العدائيه بين الشرطة والشعب، وإذا كان أهل القرى والمدن الفقراء غير ملومين لما وقع عليهم من مظالم السلطة التى تمثلها الشرطة طوال العصور المختلفة، فما عذر المثقفين الواعين بطبيعة العمل الشرطىّ وأهدافه، بل إنهم غير ملومين أيضا، فكم زُج بالأبرياء منهم فى السجون والمعتقلات بسبب معتقداتهم، لا فى عصر الملكية والإقطاع والراسمالية المستغلة فقط، بل فى عصر ثورة يولية التى رفعت الشعارات ذاتها المتفقة مع مبادئهم.

فجأة لمحت صبيا خيل لى أنه ابن متولى الصياد يكاد يسقط تحت عجلات سيارة. ولست أدرى كيف تراءيا لى - واقعا وخيالا - بعد مايقرب من خمس عشرة سنة من الفراق بيننا... فى مقهى بشارع (عرابى) وكنت أنتحى ركنا على الرصيف ذات ليلة من ليالى صيف القاهرة وقعت لى هذه الرؤيا. كيف نفذت الأطياف الحبيبة القديمة إلى قلب المدينة اللاهية العانية الصماء لتزورنى فى عالمى الجديد البعيد، وتمنحنى إطلالا وأنا غريق فى دوامة العمل اليومى والتجول الليلى؟ أكان صاحبى مازال حيا فى ذلك الحين؟ أم جاء ليلقى على نظرة الوداع الأخيرة؟

أتراه فى مأزق فجاءنى شبحه يستجير بى كما كان يفعل أنا الذى فى ضياع مثله فلا أملك له نفعا؟ خلفت ورائى فى القرية أبناء المتولى صغارا كأفراخ الطير. لاأذكر أسماءهم، وحين وقعت عينى على غلام يوشك أن يقع صريعا فى المدينة رأيت فى وجهه الشاحب وملابسه الرثة ملامح أكبر هؤلاء الأبناء لو كانوا أحياء.. لم تكن تفصلنى عنه غير خطوات. نجا ولكنى لم أنج من وطء وساوسى وشجونى.. طفل القرية هو وطفل المدينة ابن الفقير، لافرق بين بحيرة السد هناك وشوارع القاهرة هنا.. نتاج مصنع واحد، وأنا مازلت أنا، غريبا مثلهما.. تختلف الفروع والجذور واحدة. يشغلوننى مثل أولادى، ولكن أولادى لايتعرضون مثلهم للتشرد فهم آمنون فى أحضان الأبوين والمرتبين الشهريين.

عرفت فى القرى ظاهرة تصدير القوة العضلية فى صورة غلمان وبنات إلى القاهرة لخدمة البيوت ورباتها. تُنتزع الريفية الصغيرة من أمها وأخواتها وأترابها ليُقذف بها فى أحشاء الوحش لقاء جنيه أو جنيهين - فى ذلك الحين - تُسدّ بها الأفواه الجائعة وتستر الأجساد النحيلة، أو يجمع القرش مع القرش لسداد الإيجار

المتأخر، وربما لشراء سهم أو بعض سهم من أرض إذا كانت الأسرة كثيرة العيال، كثيرة النفقات على ولد منذور للعلم فى البندر.

هل عاد السد بأيدى الباغين فحرم متولى الرزق فتضور البنون والبنات جوعا، فهرب اكبرهم إلى القاهرة. فلقد رأيته رأى العين فى حلم اليقظة فى ذلك المساء الكابى الطافح بأضواء النيون ولهاث الأقدام العجلى الصرعى، أم مات متولى شهيدا فتبعثر شمل فلذات الكبد وكان الفراق؟ لم يشهد ناظم حكمت الصبى البورسعيدى (منصور) وهو يحمل صندوقه ويمسح الأحذية على أرصفة الشوارع، ولكنه رأى أو تخيل صورته جثة من ضحايا العدوان الثلاثى على صفحات جريدة. أما أنا فقد رأيت (متولى) الصغير فى شوارع القاهرة ولم يكن يحمل صندوقا، ترى أكان يتسول أم يعرض نفسه على النخاسين؟ بضاعة مزجاة بلا ثمن إلا رغيفاً للبطن الخاوية وربما ثوب قديم أو حذاء للأقدام العارية. وأبناء متولى يملأون الأرض. فالخصوبة من نعم السماء على ريفيات مصر.. ومصر القاهرة تقول هل من مزيد...

لم يغمض لى جفن تلك الليلة، استضافنى الصديق القديم، وقدم لى هديته.. ولم تكن بضع سمكات ولانزهة قارب لامرأتى وطفلتى هذه المرة، بل كانت موالا حزينا، كانت قصيدة، قصيدتى (متولى) التى جاءت تنويعا على (دم على البحيرة) بعد خمسة عشر عاما :

خمسة أعوام وعشر انقضت
ولم أزل كما علمت
فكيف أنت؟
مازال صوت الريح
مازالت بقايا نايها الجريح
مناحة النساء والأطفال بين الطين والرياح
خشخشة الأوراق والأقدام فوق الجسر
صريره الدامىَ فى أجساد من بنوه
ولم يذوقوا مرة نفاية الوليمه
وكانت الجريمه

مطرقة ومنجلا على رؤوس الحاصدين

○○○

تفجر الحلم الذى جسدتَه (دما على البحيرة)
دما على أعناق ظالميك
وربما سنبلة نمت على جدار بيتك
ترى غدوت رب دار؟
كانت زيارتى الأخيرة التى أذكرُ
كم طالت
وكانت ليلةً باردةً
فى بيتك الذى فتحت بابه لكل شاردِ
من غير أجر
لأنك امتلكته بغير أجر
وكان بيتك الرياح والبحيره
كان الفضاء
وكنت سيد البحيرة الذى
ينصب ظله المديد فوق حافة الوجود والعدم
يغرف من بحر السرور والندم
لمن يشاء
حين ترى الفارس والجواد أقبلا
من بعد أن دارا هناك دورتين
ثم أناخا صامتين
وقدما لك الأمان
كان الشتاء قاتلا والسر مقتولا
وكان القمقم المحجوب خلف السدّ
والمجداف مصلوبا على يديك
وحين أقبلا . . ترجلا لديك
وابتسما .. وسلمالك البحيره

فادتسمت على المرايا واعتلت
روابير المساء قامتك
كانت عيون الموج مرآةً وفى القارب مرآةٌ
صغيرة لبنتك التى نمت
وما تكور الثديان . . كانت أمها
كوم عظام وطحالب
وارتسم المجداف رمحا والفضاء ضاقَ
فى عيون قاتليكَ
والسد الذى دفنت فوقَهُ
هوى بضربة واحدة
صرت أمير الصيد ! !
وحين عدت بعد
عدت نبى الغرباء ! !

○○○

أعلم أن آخر الأبناء لم يعد
كان اسمه محمد
وكان يشتاق إلى ريح المدينه
وكانت الزرقة فى العينين
تحتوى اغترابى
تنفر من دائرة الصلصالِ
من رائحة الأسماكْ
تبحث عن أفلاك
رأيته آخر مارأيت
كأنه يبيع ياسمين
على رصيف العاشقين
وربما كنت على المقهى وأنتم
فى ثيابى حينما كنت أغنى

عن شقائى بك . . عما
يجعل الناس جميعا أشقياء
آه ! ! ماذا بعث الذكرى
آه (متولى) ! ! لماذا لا أقول
إننى شاهدته كوما من اللحم مدلى
قمرا تحت الأفول
تحت أقدام السراة الراكبين
لم أكن أملك إلا أن أقول
إننى شاهدت (متولى) صريعا فى المدينة
قمرا تحت الأفول
بينما كنت أغنى ! !

ooo

جعلت منى بطلا ! !
ونلت أنت أجر ميت بغير قبر
وإن أقمت بيننا ظلا على جدار
يدا على مجداف
وبعض أنفاس المساء
نصفك من تراب
ونصفك الباقى من الزبد
وجهك آلاف الوجوه كلها
شباك صيد
ويل لمن لم يحترف إلا الحنين والبكاء
وشعر الاعتراف
جعلت منى بطلا
ونلت أنت أجر ميت بغير قبر



فى القاهرة حلم رفاق المهنتين : الشرطة والأدب، الخارج والداخل، مدينة الميلاد والطفولة التى لم تكن، ألقيت عصا التسيار، وأسندت رأسى أخيرا إلى جدار بيتى فى حى (شبرا) حيث (الورشة) البشرية التى لا تكف تروسها عن الدوران والضجيج ليل نهار. دخلت مثلما خرجت خاوى الوفاض إلا من أبيات شعر تدفئ روحى مثل بدوى تستره خيمة من الشعر. ولم أعدم نشوة العائد من سفر طويل، وربما شعرت فى أول الأمر بشئ من بهجة الانتصار والاعتداد بالذات.. لقاء الأهل والأحباب أنعش الأوراق التى كادت تجف، والتنفس فى المجتمع الثقافى وشق طريق فى مدينة الأدباء كانا أمنية بعيدة المنال، وإن كنت قد نشقت ذرات من عبيرها يوم صدر ديوانى الأول (من وحى بورسعيد).

أن للراكب صاحبه إذن أن يترجل.. ولفضاء العاصمة الواسع أن يفسح للطائر العائد موضعا للجناحين.. ظننت أننى ألقيت خلف ظهرى هموم القرى وأحزان (الضابط الغريب).. أننى ألقيت بذورا فى وادى المحرومين قد تذهب مع الريح أو تؤتى ثمارها ذات يوم، سعيت وليس على إدراك النجاح، قلت كلمتى وما ادخرت شيئا لأنى لم أكن أملك غيرها شيئا.. مطمئن الضمير، مفعما بالنبضات الحرار، خافق الضلوع بالأمانى الكبار رسوت على شاطئ القاهرة كأنى استرد ملكا مضاعا، أو كأنى شاعر النيل إذ يقول :

وطرقت باب الدار لامتهيبا
أحدا ولامترقبا لسؤال
طرق المسافر آب من أسفاره
أوطرق رب الدار غير مبال

ناجيتها.. ناديتها قاهرتى مثل يتيم بقيت له أمه.. لايعرف مرارة اليتم فى الطفولة

إلا من عرفه.. ناره تحتفظ برمادها الملتهب حتى أخر العمر.. نكبر ونظل أطفالا يتامى.. وقد كفلتنى مدينتى يوم شربت أمى معى تلك النار واقتاتت بذلك الرماد. ألقيت عليها السلام يوم جئت.. لم يكن يهمنى ردها.. لأن سمعى وبصرى وقلبى تحولت كلها إلى صوت مغن وحيد يطربه شدوه ولايعنيه الذين يسمعون أو لايسمعون.. خيل لى يومئذ أن الصدق والصفاء ومناصرة الضعفاء والمظلومين ستفتح لى الأبواب والقلوب الموصدة..

ذات ليلة أملت على شجونى قصيدة (رسالة إلى القاهرة).. أكانت رسالة إلى الأم من ابنها العائد؟ أم كانت رسالة قروى من أخوة شعبان الصياد ومحمود الخفير وأولاد المتولى؟ هل عاد معى فلاحو فيشا الكبرى وصيادو كفر فيشا يبتغون فى القاهرة لقمة عيش حلالا، فأعرضت عنهم فسلمونى رسالة إليها ثم انثنوا راجعين إلى كهوفهم؟ أم أن روحهم تلبستنى فغدوت من طول الصحبة واحدا منهم لامكان لى فى مدينتى الأم، فأفرغت حزنى والتياعى فى قصيدة الرسالة؟ غاية علمى أن ماكتبت كان بقية نفس، كأن قصائدى فى القرية وفى الصيادين لم تستوعب كل مابى.

لم يكن فى خاطرى بعد العودة أن أعبر عن المقدمات النفسية والاجتماعية (للصدمة الحضارية) كما فعل رفاق شعراء من الريف بعد هجرتهم كالطيور الشتائية إلى ربيع القاهرة وإصابتهم بالإحباط، فودوا لو لم يكونوا قد غادروا الفردوس إلى الجحيم، فليست هذه هى المأساة الحقيقية، لأن الجحيم ليس المدينة وإنما هو الآخرون بالمعنى الواقعى لا الوجودى الذى قال به سارتر، والآخرون فى المدينة وفى القرية على السواء. والفردوس أو الجحيم يصنعه الإنسان لا المكان ولا الزمان. فالقرية والمدينة سيان، شقى الأولى هو شقى الثانية والسعيد هو السعيد طالما كانت الحرية الاجتماعية قسمة غير عادلة هنا أو هناك.

(رسالة إلى القاهرة) هى شكوى الفلاح الفصيح فى عصرنا من الظلام المسلط عليه فى الريف، وحنينه إلى أضواء القاهرة بحثا عن فرصة للعمل فى المصانع والمنشآت وفرارا من أشباح الفاقة والبطالة الزراعية المقنعة، وهى حنين الشاعر ابن

العاصمة إلى شمعة يضىء بها ليل النابغة الذبيانى : (وليل أقاسيه بطىء الكواكب)، أو ليل البحترى : (لك الويل من ليل تقاصر أخره).

بقية نفس كانت (رسالة إلى القاهرة) قبل أن أغوص فى بحرها العميق :

مدينتى
يا راية الأجيال يا أنشودة الحياه
يا جنتى
رمى بىَ المطاف بين أعين العناه
ورحلة الشباب فى حماك لم تطل
وما خبا الحنين فى دمى ولم تزل
أنفاسىَ الحرار تستحث عودتى
فداك مدمعى العصى يا مدينتى
فداك لوعتى

ooo

خطاى طوّفت على بعادك الديار
أستاف وردة غريبة القفار
أشمها . . أضمها
أحن فى بهائها لطلعة ابنتى
وباقة من الصغار حول خطوتى
تصيح بى . . تهزنى
لأطلع النهار
من ليل شعبىَ الغريق فى مرارة الصراع
لأحْطم الكلال فوق صخرة الضياع
لأسكب السلوان للجموع
لأوقد الشموع
فى ظلمة الدروب، فى مسارب القلوب

هل كانت (رسالة إلى القاهرة) بقية نفَس قبل أن أغوص فى بحر (قاهرتى)

العميق كما دونت فى هذه المذكرات منذ لحظات؟ بل كانت عصارة همى الذاتى الذى تسرب فى معاناة الجموع الريفية، وتعبيرا عن تمزقى بين اللهفة إلى العودة الى مسقط رأسى وموطن طفولتى المشردة ومقام أمى وإخوتى ورفاق العمر الذين افتقدتهم طويلا، وبين شعورى بالأسى وربما بمرارة التنصل من المسئولية والهروب من جحيم الصراع حين تركت (عم متولى) ورفاقه غرقى فى ليل القرية وركبت أول موجة ضوئية إلى القاهرة.

تنازعنى حنين الأب المشوق إلى أبنائه، أو الطائر إلى أليفه وسربه، والشاعر إلى مهبط وحيه الأول، والحزن على فراق هؤلاء الرجال الطيبين الذين ظنوا يوما أننى بطلهم المنقذ، وهم لايعلمون ثقل السلاسل التى كانت تقيد أقدامى والطوق المحكم حول عنقى. ولعلهم كانوا قد سمعوا عن ريح عصفت باسم الثورة، فعلقوا على رقبتى المغلولة نسيما من الأمل فى الخلاص. كان نهارى لهم أما الليل فكان حلمى بالعودة والخلاص. هكذا تقاطر غنائى للقاهرة :

وكنت واحتى
تظلنى إذا طوانىَ السرى عن العيون
وضج فى مسامعى السكون
ومل كفى فوق باب الفجر موعد الضياء :
« يا طارق المساء
كم لفنى مع الرفاق ظلك الرهيب
ووجهك الكابى بلاعيون
يحيط كالقضبان بالسجين ».

ooo

فى قرية صغيرة مشقوقة القدم
تطل فوق رأسها الهموم كالجبل
فينحنى صفصافها الهرم

على ضفاف ترعة مخنوقة النغم
وتحمل العذراء ثوبها الصغير
فى صرة إهابها مزق
لتغسل الفؤاد من سأم
فؤادها الغرير
وفى الغروب ترقب الأفق
لعل فارسا على الشفق
يشف وجهه النحيل من غلالة الغمام
لعل كوة من الضياء تفرش الدورب
لتؤنس الغريب
وليلة القدر التى تحين كل عام
تلوح مرة لمن فؤاده احترق

ولم اكن وحدى المشوق إلى القاهرة، ولكن ما أشد ما كان بينى وبين عشاقها فى الريف من خلاف. كان شوقى ترفا إذا قيس بلهفتهم إلى العثور على فرصة عمل بالمدينة الكبيرة حتى لايموتوا جوعا فى قراهم الفقيرة إلا أن يقتاتوا (بالجعضيض) من حشائش الأرض. ولاشك أننى استمعت إلى دقات قلوبهم المنزوفة الملهوفة وهى تتحرق بين نارين : فراق الأرض والأهل وربما البنين والبنات، والبقاء رهن الحرمان. فالحاجة اقوى من الرضى بالمقسوم لدى الإنسان الريفى إذا فقد حدها الأدنى، والسذاجة تصور القاهرة مع الخيال البدائى مدينة ألف ليلة التى تسع الجميع جناتها المحدودة. والريفى يملك زندا قادرا على حمل العمائر الشاهقة، والصبر مفتاح الفرج. ولكم دار الموال فى الليالى الطوال، الموال الذى كم تمنيت أن اكتب قصائد بمثل بساطته وشجاه العميق بغير قرار :

جمل الأحمال الصعاب

صلب لا يوم كل
صايم عن الزاد
لا حرن يوم ولا يوم كل
جابوا المحاوير صلب على زنوده
وشلوه شل
وشيلوه حمل أسى
غصب عن عينه وهو تعبان
اترجت الأرض
من تقل حمله ولا يوم كل

تختزن الذاكرة من الحياة اليومية فى سنوات الطفولة فى (حارة المجدلى بك) بحى شبرا أحلام اليقظة فى (العصارى) والغروب بالشرفة الصغيرة المواجهة لغرفة مطبخ العائلة الثرية التى سميت الحارة باسم مورثها التركى الأصل فيما يقول الأهل والجيران وأصحاب الدار الكبيرة. أجمل ما فى الكون الصغير منظر (القلل) المتراصة على حافة الشرفة الجانبية وقد رصعت أفواهها أمى وخالاتى بأوراق النعناع الندية الخضراء ذات العبير الفاغم ومذاق الماء العذب وقد لمعت أغطية القلل فى لونها الأصفر الذهبى مثل جدائل الشمس فى الغروب بعد أن جلتها الأيدى المثابرة فى نسج الأفراح الصغيرة.

فى القرى فرحة أخرى كم شدتنى إليها، تلك هى الرسوم والزخارف البدائية (للمحمل)، وكتابات الحروف الكاشفة عن الحنين إلى زيارة الحرمين، تزين الجدران الطينية فى واجهات المنازل الشبيهة بالأكواخ. ولكن الرؤية الفنية قد حولت تلك الزخارف الريفية إلى رسم للمحبوب الحلم فى قصيدة (رسالة إلى القاهرة)، رسم يجسد ما فى القلب :

مدينتى
وكم شهدت رسمك الوضئ زينة الديار
وكم لمحت عَبرة على جدار
ترف فى ظلام من مضى ولم يرك

أما الدمعة التى انسكبت فى ذلك المقطع، فهى تعبير عن جرح قديم لايبرح، جرح القلب الذى عاش على حلم رؤية الحبيب الغائب قبل أن يودع الحياة، رؤيته مرة واحدة هى حسبه قبل أن يغمض عينيه إلى الأبد، ولكنه يموت بحرمانه.

إنها الحسرة على الزمن الضائع، الزمن الذى لم يكن ولن يكون. حاولت دائما أن

أكتبها، ولكنها رومانسيتى الغالبة، جذورى الميتافيزيقية. أجدها حينا بعد حين فى تضاعيف واقعيتى، وخاصة فى أزمنة التحول. أذكر الآن من بين القصائد القصار التى تتابعت - كل ليلة - يوم تخلصت من قيد الوظيفة ونمت ملء جفونى أول مرة، أذكر هذا المقطع من قصيدة (الناى) سنة ١٩٧٥ :

أسمع نايا . . . لا أرى وجوه من أحببتهم
ومن أحبوا أن يرونى قبل أن ينطفئ الشعاع
سرت بعيدا . . بيتكم من الزجاج والشبابيك التى
غنت مواويلى ولم تمل صحبتى
هوت من الذكرى قتيله

ويتتابع النغم الحزين فى (رسالة إلى القاهرة) مصورا عذابات الريفيين فى حنينهم إلى المدينة الشمس، وهم يحتضنون بالعيون والأسماع والقلوب مذياعا صغيرا يحمله فتى سعيد :

وكان وجهك الوسيم أمنيه
وصوتك الضحوك أغنيه
لمن بنوا من الرماد والحصى بيوتهم
وكوموا التراب كى يضم شملهم
رأوك فى أحلامهم نافورة من البشر
تنهل كالأمواج كالمطر
رأوك قلعة من الضياء
تموج بالحياة والصور
ولحنك المنساب عبر أفقك المديد
يسيل فى دروبهم كالسعد يوم عيد
ويفتن الأسماع سرك المذاع
يطل من بعيد
ولا ترى بهاءك القلوب

فى ذلك الزمان - أخر الخمسينات - لم تكن المطارات العربية على الخليج تعرف

«الجلابيب المنهكة» كما وصفت ابنتى عمال الأرض المصرية حين فوجئت برؤيتهم فى أحد هذه المطارات. كان أقصى مايذهب إليه خيالهم أن يهبطوا أرض مصر القاهرة ليتلقاهم بعض ذوى قرباهم السابقين فى مغادرة القرى، أو يتلقفهم (مقاول الأنفار) ليبيع عرقهم، مستغلا ظروفهم التعسة. وقد تسربت صورة (عمال التراحيل) لأول مرة فى قصيدة (رسالة إلى القاهرة)، وما لبث أن تقمصت رؤيتى الفنية فى كثير من أشعارى لتفشى الظاهرة فى السبعينات الكئيبة :

وكم روى السمار تحت خيمة الظلال
– وفى مجامر الحنين يومض الرماد
والقمح فى بيادر الحصاد
يضاحك العيون تبره المذاب
ويوقد الرغاب –
حكاية ابن الريف شد رحله إليك
وودع الرفاق والأحباب
والأمهات جف صبرها الجميل
فى غربة الأولاد
وعاد يحمل المتاع والعيال
منذ اهتدى إلى طريقك الكبير
ولفه صندوقك المسحور :
« ياليتنا نزور أولياءك الأبطال
نهيم فوق ساحك الفساح
ونقسم الرغيف بين أهلك السماح »

لم يطف بخلدى طيف (سنوحى) الفرعونى ولا (السندباد) حين كتبت (رسالة إلى القاهرة) مصورا ذلك القروى الهائم النازح إلى سماء لاسقف له تحتها فرارا من سقف لايملك تحته غير امرأة وسرب صغار وحلم بمدينة عرضها كعرض السماوات والأرض ببركة وفضل دعاء الوالدين :

مدينتى
ولم يزل موالهم يدور
يسائل الليلات والبدور
عن طارق مغامر جسور
يحطم الصخور
ويعبر الأسوار والبحور
ليلتقى بطلعة الزمان حين يبتسم
على جبينك النضير
ويجتلى رسما على جدار
لصرحك الأشم
بالأمس مر راجفا على سناك
يشد قلبه إلى خطاك
وخلف ثوبه يغلّق الرحيل دونه الأبواب
وتختفى ملامح الصحاب
ويرسل الموال صيحة العناه
إذا التقت كف الغريب بالغريب
وأخصبت بحبها الحياه
والناس فى شوارع المدينة الرحاب
قوافل تظلها سواعد الأحباب

إن تراكم الأحداث وتبدل الأزمنة والأمكنة والشخوص تخمد وهج الذاكرة بمرور الأيام. ولكنها تنفض عنها الصدأ كلما رجعت إلى قصائدى القديمة فأرانى سجلت صدى تلك الأحداث وملامح من هذه الوجوه. هكذا أتذكر الآن إذ أعود إلى (رسالة إلى القاهرة) صباحات مدينتى حين يخرج الريفيون الذين استقروا بها من بيوتهم، بعضهم يحمل على رأسه وفى يده ما يستعين به على الرزق، والبعض الآخر يخرج (على باب الله) متوكلا خاوى الوفاض فيلوذ بركن فى مقهى شعبى رقيقا ينتظر محرره، عاملا (باليومية) يسمونه (الفاعل) باحثا عن يد (مقاول) بنّاء تنتشله. لقد

رأيت هذا المنظر فى الصيف الماضى فى أحد ميادين مصر الجديدة بعد ثلاثين عاما من ثورة ٢٣ يولية، جمعا غفيرا من (عمال التراحيل) فى انتظار الشاحنات لتقلهم إلى مواقع العمل فى القاهرة أو ضواحيها، مواقع لايعلمها إلا (تجار الانفتاح) الجدد ومصاصو الدماء، وما أشبه الليلة بالبارحة :

مدينتى

إن مر فى صباحك البسيم طارق من الحقول
لا تحجبى عن عينه النهار
لا توصدى فى وجهه الطريق
ففى حماك حيث توقد الشموسَ أعينُ العمال
وتدفئ القلوب فى مراحها الأطفال
ما تملك الحياة للجميع
ويشتهى العشاق من ربيع
ولتمسحى على الجباه بالحنان
فقد مضى بطيبها الزمان
وعاش فى غضونها الحرمان

٭٭٭

مدينتى

ولم أزل أغوص فى الظلال
والأرض فى سخائها تخضر بالرجال
لكنهم تحت السماء يسغبون
ويظمأون حين تجدب العيون
ويرتوون من علالة الرجاء
أن يغتدوا يوما إلى الشروق
فى ظلك الأمين بين رفقة الطريق
فيوقدوا الشموس بالقلوب والعيون
ويقهروا فى ساحك الشجون
ولايعودوا للضياع والحنين



ارتبطت صورة القاهرة فى مخيلتى دائما بالصبى الأسمر بائع الزهور البيضاء الفواحة العبير، قال لى رفيق طريق عابر ذات مساء صيفى على شاطئ الأندلس بوهران ١٩٨٣ : «حين نزلت أول مرة بالقاهرة تمثلت لى حضارة مصر العريقة فى باعة الفل والياسمين يجوبون الشوارع بزهورهم وجلابيبهم البيضاء، ظاهرة لاتعرفها أية مدينة عربية». كان سواحا يجتذبه البريق، ولو علم أن هؤلاء الباعة يخرجون كل مساء من جحور المدينة وقيعانها فى الجمالية والأزهر وبولاق ومقابر الأحياء القديمة التى يسكنها أحياء من أبناء مصر لشابت متعته بالمنظر الجميل ذكرى حزينة، وربما تراءت أمام عينيه أطياف أبناء شهداء الجزائر فى عصر الاستعمار.

وجدتهم دائما فى قصائدى حتى أطلق علىّ شاعر عربى ذات يوم وهو يمزح لقب «شاعر الياسمين» هذا الشاعر هو الدكتور غازى القصيبى. ولم يكن وزيرا بعد. وقد عرفنى به ضابط الشرطة السعودى النبيل اللواء سعيد كردى رحمة الله. ولن أنسى لقاءاتى مع هذا الضابط النبيل عبر التراسل البريدى إذ كان أديبا يكتب القصة وتقترب منازعه من فكرى فى الإيمان بالحرية والديمقراطية. وإلى منظمة الدفاع الاجتماعى بجامعة الدول العربية الفضل فى تعارفنا، إذ كنت قد حضرت إحدى حلقاتها الدراسية مندوبا عن مصلحة الأمن العام بوزارة الداخلية مع اللواء الدكتور نيازى حتاته. أما الشاعر القصيبى فقد كان لقائى العابر به فى القاهرة هو الأول والأخير إذ أصبح بعد ذلك وزيرا.

كانت بداية أشعارى تلك هى قصيدتى «شوارع المدينة» والصحبة لم تختم بعد.. جسر من قريتى إلى مدينتى.. فبائع الفل فى القاهرة هو «المقرئ الضرير» فى سيارة الأقاليم و«الصياد الصغير» فى كفر فيشا هو الصبى بائع الياسمين فى

(ميدان التحرير) قد يفقد ساقه أو ذراعه تحت سيارة أراد أن يتعلق بنافذتها فسبقه الضوء الأخضر، فهوى تحت عجلاتها وهو يحتضن الباقة التى أعدها للسيدة الجميلة، وفى جيب جلبابه بضعة قروش تناثرت مع الياسمين والشذا الفاغم يغمر الأجواء.

عند إشارات المرور، وفى مفارق الطرق كان يلوح لى دائما كلما خرجت أتأمل وجوه الناس فى المدينة ذات الوجهين، وكثيرا ماكنت أتفرس فى عينيه. هل كنت أبحث فيهما عن عينى القديمتين؟ هل تغيرت كثيرا؟ عبثا كنت أبحث فى قسمات وجهه عن طيف ابتسامة.. وكنت أخفى مشاعرى وأنا أمد يدى لأقدم باقته إلى حبيبتى...

أهى مجرد ضربة حظ تلك التى جعلتنا لانلتقى؟ وماذا لو كنا قد تبادلنا موقعينا؟ ابن متولى هرب يوما من ليل القرية وهبط إلى القاهرة يحلم أن يبيع عقود فل :

رأيته آخر ما رأيت

كأنه يبيع ياسمين

على رصيف العاشقين

واقترن عقد الفل فى نفسى وفى خيالى ورؤاى بالنيل، بمويجاته الهادئة الصغيرة كزقزقة العصافير، وبالحب على النيل، وسرى العشاق على معابره حيث ينتشر باعة الزهور، أشم أريجه كالحلم كلما قرأت قصيدتى «أمسية على النيل» ١٩٦٥ :

على موجاته السمراء طوّفنا

سهرنا الليل بعد الليل

لم نركب بساط الريح

وكانت بيننا الحراس.. لكنا بلغناها

ولاقتنا مدينتنا على موعد

طرقنا بابها.. أعطت مفاتحها

وباحت بالذى أخفت حناياها
عبرنا كل مانشرت مراياها
من الأنوار والأظلال
وكل جسورها النشوى على خطو المحبينا
وأصداء المغنينا
على أبوابها يتهدل الريحان والأطفال
إلى مرآك تستبقُ
تحف بثوبك الوردى أيديها
وفى عينيك . . فى شفتيك أطيار تناديها
وأهدتك الصبايا حلم ماضيك الذى عادا
تدلى من حدائقنا عناقيدا
وعقد الفل والأمواج والشفقُ
وتشتبك الأيادى والعيون السود تعتنق

وألقى «بائع الفل» .. وقد خلعت عليه نشوتى صورة بهية تخفى مأساته الا جانبا منها فى قصيدتى الغنائية «كل هذا الحب لى» ١٩٦٥ :

بائع الفل الذى مر بنا
عند شط النيل . . هل يذكرنا ؟
يا حبيبى . . أين راح ؟
ثوبه الأبيض من لون الصباح
صوته الشادى يحيينا . . يسلِّم
نظرة العينين منه تتكلم
أنا أيضا لىَ حب
لىَ قلب

ويصحبني الصبي بائع الزهور في الخروج من الوطن، ولا يخذلني، إذ يلهمني ما أقوى به على مقاومة الاغتراب وفضح الخوّان من باعة الأوطان، أتصوره نموذجا للفئة الصابرة التي يتجر بها مسيلمة الكذاب ويبيعها للسماسرة والمرابين بثمن بخس، يجيئني من وطني على جناحي قصيدتي «الجذور» ١٩٨٢ :

لك العشق يا وطني أيها الأبد المتحولُ
بالموت فينا خلايا وبالنيل أنداء جرحٍ
على وجنتي بائع الفل طار على غيمةٍ
من ضلوع الأزقة بين «صحارى الإمام»
و« رملة بولاق » – آه مشاعل كانت
وتبقى وقودا – إلى الأمسيات المرايا
على الشاطئ الآخر المخملي

وفي سبتمبر ١٩٨٣ في أعقاب عودتي إلى الجزائر من القاهرة التي لقيتها بعد غياب سنوات طويلة مسكونا بالصبي بائع الياسمين الجديد القديم، كتبت تنويعات على قصيدتي «العودة» منها «أغنيات فلاح فصيح» التي تصورت فيها ذلك الفلاح ماردا عانيا تقوم فوق أكتافه وهو مكره مواخير الخنا تارة، ويتحول تارة أخرى إلى بائع فل ضائع :

وطني « علبة ليل »
فوق زند لأجير
طلع البدر عليه
وهو يبكي ويغني
مارد يفني ويحيي
مستجير ومجير

ooo

لم يكن بائع فل
ذلك الكف الصغير
كان موال حصاد
تحت ريح ورماد

❂❂❂

كان ياما كان ظل لصبى
لعبة بين الجياد الفارهه
ود لو يعدو ولكن المكان
لم يسع غير السعالى الزاحفه
كل زوجين معا يستبقان
وهو لايملك الا غصنه
تحت ليل العجلات الراجفه

(٣٨)

عرفت خطوات المحبين الجذلى تدق أبواب المدينة، والأيدى المتشابكة كل اثنين اثنين، مرح الصبا الوثاب يقطف زهور الحنان والحنين.. أنين السواقى والشواديف يتناءى.. يتناءى حتى يتلاشى فى سمعى.. والأشباح الراجفة تذوب فى وهج الأضواء الساهرة فى شوارع وسط المدينة.. أرجوحة العشاق فى كل مكان.. لا أرق المسهدين تحت ركام الغيوم.. المجد للحياة وعلى الأرض السلام.. ولا نشيج المتعبين حين يجن الظلام.. الخطوة أغنية حلوة، والضحكة ترج الصدر الخلى.. لاويل للشجى، ووداعا للأمسيات الشاحبة والليالى النابغية.

مباركة أنت يا مدينتى بنور الحبيب، مسيجة بأضلاع القلوب أنا لحبيبى وحبيبى لى... فلتحتضن أعشاشها الطيور العائدة، ولتشد ملء الوجود ربة النغم.. سيمفونية الضياء والعبير، رقصة الجناحين فى الأعالى.. قربى غصنك الرطيب يا أخت روحى يزهر فى ساعدى، وقرى عينا يا توأم الحلم الجميل.. الأبيض والأصفر والأرجوانى نافورة الوجد العاشق فى (قصر النيل) والورد على شرفات القلبين وعش حمام.. قوس قزح نورانى.. لا نار.. لا دخان.. لا غبار.. وغيمة رقيقة من الندى.. ومعابر السارين فى حدائق الملائكة على ضفاف نهرنا الساجى الظليل.. لا شجو بعد اليوم .. لا شجون.. أعراس الميلاد الجديد والشموع النجوم.. العين لا تروى من النظر. كن جميلا تر الوجود جميلا..

عرفت مع رفيقة العمر زهو ارتياد المطاعم والمسارح وموائد العاشقين على النيل. ولكن عمر الورود قصير، ولابد للمترجل أن يعود إلى صليبه حتى يرى من سمائه الحدباء الوجه الآخر للقاهرة، وجهها الحقيقى.. الشوكة المستكنة تحت أكمام الزهر ومرارة الصبار.. (محمود) الخوف و (متولى البحيرة) والسد و(صابر) السويس و(باب النصر) قادمون يجرّون أسمالهم وجراحهم على الطريق.. تلفظ القاهرة

ضحاياها على أرصفة الليل العارية اللامعة كل مساء.. القطة التى تأكل أبناءها وتموء فى انتظار القادمين... وصناديق القمامة جوعى إلى المزيد..

يصرخ سليمان الحكيم : الكل باطل، باطل الأباطيل.. والمدينة العروس المجلوة خيوط العنكبوت وقبض الريح.. وتمحى الحدود بين القاهرة وبين القرى، فالكل سواء، اليد العيا فيهما واحدة، واليد السفلى تزحف بينهما، والعين لاتعلو على الحاجب.

لم يتغير الريف وما تبدلت المدينة.. ودربنا طويل طويل.. نداءات باعة الفل والياسمين على نوافذ السيارات الفارهة والوجوه الناعمة تصم أذنى... والليالى القمرية يغيض ماؤها، فيرسب قلبى تحت الصخرة من فرط إعياء الصبى بائع الياسمين المبحوح النداءات وصوت بائع أوراق الحظ، والأيدى المعروقة الممتدة أمام الواجهات المضيئة، وبين غمائم العطور. وهكذا لم يتم لحن الحب، فكتبت (شوارع المدينة) :

لا عين ترنو للقمر
فالواجهات والمرايا والصور
قد نهبته فتنة الشعاع
ذرت ضياءه شظايا تنتثر
وقلدتها الليل والنساء والشجر
« ما أجمل الليل لمن يحب
لكن فى زماننا البخيل
يغرب حتى فى تمامه القمر »

ooo

وانبثقت غمامة من العطور
وشى بها زجاج مركبه
ومالت الصدور :
« طابت لنا الأحلام لو تعود
وفى صحارى القلب يسقط المطر

والشمس تجرف الجليد فى حديقة الغرام »

٭ ٭ ٭

وانشقت الطريق عن صبى
تراه لا يؤذى العيون الناعمه
فى ثوبه الأبيض فى شحوب سمرته
يطفر فى نافذة مضوأه
يشير للأنامل الشمعية الموردة :
« خمسة مليمات
هدية الحبيب عقد فل ؟ »
فراشة تطير بالعبير
رمت بها أزقة المدينه
وقلبها فى حلقة الدخان يستجير

٭ ٭ ٭

واشتعلت مراقص المساء
كأنما الأعين فى أبهائها سقاه
وضجة الأقدام . . ضحكة الشفاه
وميض نار تلفح الخدود
والليل منجم المنعمين والنهار للعناه
« عشرة مليمات
يا واهب الأرزاق
يا صاحب النصيب »
ودق عكاز الضرير بائع النصيب
شوارع المدينة المبهورة الأنفاس
فلم تقع عليه عين
وما انحنى شعاع

هل هى غربتهم فى المدينة الكبيرة التى يلفظهم جوفها كل ليلة فتسترعى وتستدعى نوازعى إليهم؟ أم هو التناقض الذى يجسدونه بين عالمين مختلفين فى وطن واحد، فيشدون أوتار قلبى وشعرى فأغنى معهم أو أغنى لهم، فلا يسمعنى غيرهم؟ أم تراه التمرد والرغبة المحمومة فى كسر الطوق الذى يغلل أعناقهم معا، فيطلق صرخاتى المكتومة ؟

كنت أشكو إليها انقطاع الشعر عنى، فتغرينى بما نستثار به من نقائض المجتمع حولنا، وكانت النزهة المسائية فى شارع فؤاد (٢٦ يولية) حين أشارت إلى الرصيف على مسافة خطوتين منا :

«انظر إلى هذه الأجساد الصغيرة شبه العارية يستدفئ بعضها بلحم بعضها الآخر، إلى الحوانيت السابحة فى الضوء على الجانبين تسيل بكل ما تشتهى الأعين وتلذ الأنفس، والأقدام تكاد تتعثر بالغلمان الأحياء الأموات فى الشارع البورجوازى الرومانسى الكبير». ولكنى عجزت عن الاستجابة والكتابة، وأنا لا أملك من نار الشعر ما يعادل هذا الجحيم، وربما كنت قد بلغت فى ذلك الوقت حافة اليأس وأوشكت على فقد الإيمان بجدوى الكلمة.

بعد قليل، بلغنا مطعم (اكسلسيور) بجوار سينما مترو، كان قد أنشئ حديثا وأمسى متعة للرواد من المتنزهين والخارجين من السينما. ولفتت نظرى – إذ انتحينا جانبا إلى مائدة خالية – إلى مشهد بدا لها غريبا ومثيرا، وكانت لا تفوتها تلك اللقطات، منظر الجالسين وقد تحولوا جميعا إلى أفواه تتلمظ. وتضاحكنا وقد قلت لها : كلنا فى الهم... ثم انقطع الحديث والمرح، إذ تسلل إلى أسماعنا نغم رقيق شجى بدد (نشاز) الوليمة الجماعية.. فى حنو الأم على وليدها احتضن شيخ عازف

قيثارته فانساب النغم.. لم يلتفت إليه أحد، كأنه (ديكور) مألوف. قالت: «أما زلت تبحث عن مفجر لمشاعرك؟ ولكنى لم أكتب ليلتها سطرا واحدا.. وقلت لنفسى: تراه العقم المبكر؟ وكنت مبالغا فى تشاؤمى، ولعل السبب هو تعودى الكتابة كل ليلة، ففى بضعة شهور كتبت عديدا من القصائد من نضج تجاربى.

بعد شهر أو اثنين كنت أستقل السيارة العامة من موقفها عند (حديقة الأزبكية).. حيث أمضيت بعض الوقت مع الأصدقاء، عائدا إلى بيتنا وحدى بشبرا.. كانت السيارة تغص بركابها كأنها (علبة سردين) إذ كانت الأخيرة، والوقت جاوز منتصف الليل.. وانفلتت منى نظرة إلى وسط السيارة، فإذا بى أرى – ويا للمفاجأة – الشيخ والقيثار.. زاد انحناؤه – وكان طويل القامة – على أداته يخشى عليها أن تتكسر فى الزحام أكثر مما يخشى على أضلاعه الواهنة فى نفس الرداء النظيف الأبيض، كان يبدو مثل المختنق أو الذى يصارع الغرق. ليلتها لم أنم، وكتبت قصيدة (الشيخ والقيثار) ١٩٥٧ :

الأرض لم تزل بهم تدور
أشربة . . موائد . . عطور
وخطوة الساقى الصغير لا تملّ لا تثور
« سيدتى، ما شئت فى يديك
المجد للجمال . . للربيع . . لك »

✪✪✪

فى ليل (مايو) يسهر العشاق
وتلتقى فى المشرب الأشواق
مباسمٌ . . قلائدٌ . . نحور
ودقة الساق الطروب والجسد
يرغب والأضواء تحجب القمر
والأرض لم تزل لهم تدور

✪✪✪

كطائر من عالم مهجور

جنا حه سحابةٌ بيضاء
فوق تل نار
الشيخ جاء يحمل القيثار
فالناعمون يأنسون بالوتر
والكأس تحلو بالنغم
والصدر والعينان والقدم
ترف . . تنثنى . . تضمها قبل
تذوب تشتعل

٭٭٭

« أواه . . ما أحلى النغم
لكنه حزين
وليل (مايو) ليس يعرف الألم
من أين جاء صاحب النغم ؟ »

٭٭٭

سيدتى . . ماشئت فى يديك
المجد للجمال . . للربيع . . لك
لكنما بالباب عازف فقير
يهدى إلينا لحنه الصغير
سيدتى . . ماذا ترى فى الشيخ والقيثار ؟ »
وامتدت الأيدى جميعا تغلق الأبواب
منذ أشارت كالنسيم أنمله
« اللحن أصفى من بعيد ! »

عرفت من كتابة هذه القصيدة بعض أسرار الإبداع الشعرى، فقد يوجد العامل المثير للكتابة، ولكن الشعر لا يولد فى حينه، يل يظل كامنا يختمر حتى تنضج الرؤية فينسكب مدرارا وهو ما يسمونه الإلهام أو الوحى. ولكن قصيدة (الشيخ والقيثار) لم تولد إلا بعد وقوع مفجر أى حدث جديد تمثل فى مشهد العازف العجوز المأساوى فى الحافلة. وحين كتبتْ القصيدة نفسها لم تصور هذا المفجر

الثانى وإنما صورت الحدث الأول. وربما يرجع ذلك إلى نزعتى الطبقية التى أثارها ذلك الحدث، وهو مالا يتوافر فى مشهد الشيخ بالحافلة، ذلك أن راكبيها سواء فى البحث عن مخرج من السفينة التى تكاد تغرق بما حملت، فكل فى شغل بنفسه عن غيره كأنه يوم الحشر، وهم جميعا عناة متعبون، على خلاف فى ذلك مع الحدث الأول حيث الآكلون الشاربون القادرون وهم يعرضون عن الشيخ الضعيف المحروم.

على أن الحس الطبقى يتجلى أيضا فى ختام القصيدة، إذ تتضمن حركة السيدة الناعمة والعبارة التى خاطبت بها تابعيها دون أن تنظر إلى الشيخ ظاهرة اجتماعية تاريخية هى استغلال المترفين مواهب الطبقة الكادحة دون أن يعطوها حقوقها، بل ترفعهم عن مخاطبة أصحابها وإسداء كلمة طيبة وقول معروف لهم.

ولقد ظفرت بمثل هذه الكلمة من الروائى الراحل الدكتور يوسف إدريس وكلانا ينتمى إلى طبقة واحدة، إذ كنت فى طريقى أول مرة إلى ندوة نجيب محفوظ - أطال الله عمره - فى (كازينو الأوبرا) حين نادى باعة الصحف على جريدة المساء ذات الملحق الأدبى القيم الذى كان يشرف عليه الدكتور على الراعى ويحرره القاص المبدع والإنسان النبيل الذى فتح صفحته وقلبه للمواهب الجديدة، وهو الأستاذ عبد الفتاح الجمل، وكان رئيس تحرير الصحيفة السيد / خالد محيى الدين. فابتعت نسخة فإذا قصيدتى (الشيخ والقيثار) منشورة بها. وتلقانى يوسف إدريس - وكانت (المساء) فى أيدى الجالسين وأشار بعضهم إلىّ ساعة دخولى - مهللا يشد على يدى بحرارة، ولم يكن ثمة تعارف من قبل بيننا، ويهنئنى على هذه القصيدة ويشيد بها. وقد حرمت من لقائه بعد ذلك مثلما حرمت من وجوه وقلوب طيبة كثيرة، فكان تسليمه علىّ وداعا كما يقول المتنبى :

بأبى من وددته فالتقينـــا	**وقضى الله بعد ذاك اجتماعـــا**
وافترقنا حينا ولما التقيـنا	**كـان تسليمه عَلىّ وداعــــــا**

مازلت احتفظ ضمن أوراقى الخاصة التى ادخرها مخافة تقلبات الزمن وغدرات بعض أهله بصورة فوتوغرافية لورقة ممهورة بامضاء ضابط كبير، ترجع لى واقعة رويتها لصديق من النقاد فأدركته الدهشة وقال: انها تصلح مادة لرواية من صميم الواقع الأشد غرابة من الخيال. فقد صدر الأمر سنة ١٩٥٩ بنقلى - مختارا هذه المرة - من قسم شرطة الساحل إلى إدارة الأسلحة والإمداد بالقلعة، وهى بمثابة مستودع كبير لمهمات الشرطة ينقسم إلى عدة مخازن يختص كل منها بحفظ نوع من هذه المهمات ويضطلع بمسئولية هذا الحفظ مساعد شرطة «صول» يسمى «أمين العهدة».

كان الباعث على هذا النقل سهولة العمل بتلك الإدارة، ومن ثم كان يعين بها من تسوء صحتهم من الضباط، أو من يُرى ضعف صلاحيتهم للقيام بأعمال الضبط والتحقيق والبحث الجنائى لما تقتضيه هذه الأعمال من جهد جهيد فلا عجب أن تسمى إدارة الأسلحة والإمداد (بالجراج)، وأن يحال ضباطها إلى المعاش مبكرا فلا يرقوا إلى المناصب العليا.

وكنت قد اقتنعت بمشورة العميد محمود السباعى مدير المباحث الجنائية بالوزارة ورئيس تحرير مجلة الأمن العام بعد أن تعذر جمعى بين العمل المرهق فى قسم الساحل وبين سكرتيرية تحرير تلك المجلة، ولكنى مالبثت بعد أن نفذت قرار النقل حتى وجدتنى أواجه مشكلة أهون منها مسئوليات قسم الشرطة، إذ كانت الأوامر قد صدرت بأن يكون الضباط هم أمناء المخازن بدلا من «الصولات» بعد أن تبين وجود عجز فى (العهد) بسبب إهمال هذه الفئة أو الشك فى نزاهتهم، وأجريت تحقيقات فى هذا الشأن.

كان المخزن الذى أسندت إلى مسئوليته يسمى (قسم المستهلك)، بمعنى أن محتوياته تستهلك بالاستعمال مثل الأخشاب والزيوت والأقمشة والخيام والجلود وما إلى ذلك مما لايمثل مشكلة فى حالة الكشف عن نقص به يسفر عن جرد محتويات المخزن، إذ يُدارى هذا (العجز) بتحرير استمارات تفيد صرفه واستهلاكه. ولكن المخزن كان يشمل قطع غيار للسلاح تسمى (كارستة)، مخصص لحفظها مخزن صغير وإن كان يتسع لمئات من هذه القطع الغالية الثمن وأهمها ماسورة البندقية وجسمها ويعنى به موضع الذخيرة وأدوات انطلاقها من زناد وغيره.

رفضت التوقيع على استلام هذا المخزن الداخلى قبل أن أحصيها، واستغرق الحصر أكثر من شهر كان خلاله مدير الإدارة يتعجلنى ويهوّن علىّ زملائى الأمر ولذا طابقت العهدة بالدفاتر ووقعت بالاستلام وليتنى ما فعلت. فعلى الرغم من مراقبتى عمال القسم كلما جاء مندوبون من جهات الشرطة لصرف ما يلزمها من محتويات المخزن وإشرافى على كل صغيرة وكبيرة اتقاء لأى احتمال، فوجئت -بعد أن صرفت كمية كبيرة من مواسير بنادق (اللى أنفيلد) وأجسامها - بخلو الرفوف التى حفظت بها من باقى العهدة كما هو مدرج بالدفاتر.

أدركنى ما يشبه الذهول وشرعت أحصى المفقود فإذا هو نحو ثلاثمائة ماسورة ومائتين أو أكثر جسم بندقية، وقد بلغ ثمنها أكثر من ثلاثة آلاف جنيه، وهو مبلغ جسيم إذا قيس بالقدرة الشرائية فى ذلك الوقت وبمرتبى الشهرى الذى كان لايزيد عن ثلاثين جنيها. واتجه اشتباهى إلى أكبر عمال القسم ورجحت أنه بمشاركة الآخرين كان يستغل المرات القليلة التى غادرت فيها مخزن قطع الغيار للرد على مكالمة هاتفية فيلقى ببعض هذه القطع من خلال فتحات نافذة المخزن إلى الممر المحيط بمبنى المخزن إذ كانت مخازن الإدارة تطل عليه، وهذا الممر يحيط بجزء من قلعة محمد على خصص للإدارة وبجواره جزء أخر لمخازن تتبع القوات المسلحة.

أبلغت اللواء مدير الإدارة بالواقعة كى يحيل الأمر إلى النيابة العامة لتتولى التحقيق، فحذرنى قائلا إن أمين المخزن هو المتهم الوحيد بالتبديد فى هذه الحالة وسوف توقف عن العمل ريثما يتم التحقيق وتثبت براءتك، وهو أمر معلق على

قدرتك على تقديم الفاعل. قلت : إنى أتهم كبير عمال القسم. فقال : أقم الدليل. ألححت أن نبلغ النيابة العامة ولكنه استعان بوكيل الإدارة وكانت بينى وبينه مودة ليثنينى عن رغبتى. ولم يكن موقف المدير إشفاقا على وإنما خيفة على مستقبله الوظيفى إذا علم مدير مصلحة الشرطة وهو الرئيس الأعلى بوقوع سرقة فى المخزن، فلا يوافق على مد خدمته فى رتبة اللواء ليشغل منصبا أكبر.

كان القلق يستبد بى كلما مضت الأيام واقترب موعد صدور حركة التنقلات واحتمال نقل المدير فيحل فى موقعه لواء آخر قد يأمر بإجراء جرد للمخازن، فيكشف عن عجز عهدتى، ولاينفع دفاعى عن نفسى يومئذ. واشتد ارتيابى فى كبير العمال رغم أن زملائى شهدوا بأمانته. ولكنى لم أسمع لهم وخانتنى أعصابى فصفعته وليغفر لله لى جرمى، فإذا هو يقدم بلاغا ضدى يدعى فيه أننى تسببت فى إصابته بعاهة دائمة وينتهى الأمر بتنازله عن شكواه ونقله من القسم. لم يصب الرجل فى سمعه كما اتهمنى وزاد ذلك من ريبتى.

سدا لأية ثغرة قد يستغلها الجناة مرة أخرى أغلقت نوافذ المخزن بألواح خشبية حتى صار غرفة محكمة لا ينفذ إليها الهواء إلا من الباب. واستمر صرف ما بقى به من قطع غيار بيدى دون غيرى من العمال. ولكن الجريمة وقعت مرة أخرى وإن كانت قد انصبت على ماسورتين، فتأكدت أن الجانى يهبط من أعلى الغرفة حيث «الشخشيخة» المصممة فى كل المخازن لينفذ الضوء منها، غير أن أخشابها وزجاجها كانت سليمة. وهكذا لم يبق إلا احتمال واحد وهو إزاحة اللص الألواح الخشبية ثم الهبوط بحبل إلى داخل المخزن، وبعد أن يرتكب جريمته يصعد إلى السطح حيث يعيد هذه الألواح إلى أماكنها الأولى، وقد ينثر عليها بعض الأتربة للتمويه على سبيل الاحتياط إذا كشفت وسيلة الجريمة.

استدعيت عاملا من مخزن النجارة المجاور وصعدت معه إلى السطح حيث أجرينا معاينة للوضع القائم. واتفقت مع وكيل الإدارة – بعد أن ارتاب فيما أبلغته به – أن يتولى هو بنفسه إغلاق المخزن الصغير وبوابة القسم، ووضعت بحضوره على المنضدة التى تتوسط هذا المخزن ماسورتين مستهلكتين وثالثة صالحة. وفى

صبيحة اليوم التالى فتحنا البوابة ثم المخزن معا وكان يرافقنا عامل من قسم السلاح (توفكجى)، فإذا بالمفاجأة الكبرى التى كاد يصعق لها ذلك العامل إذ اختفت المواسير الثلاثة فصاح (مماليك محمد على) مشيرا بذلك إلى أن المخزن مسكون بعفاريت المماليك الذين قتلهم محمد على فى المذبحة التاريخية المشهورة، وأن هذه العفاريت هى التى ارتكبت جناية السرقة.

حينئذ فقط قال الضابط الكبير : (أنت على حق). وناديت النجار وصعدنا جميعا إلى السطح حيث تفقدنا ماحول (الشخشيخة)، فإذا هو يطلعنا على آثار تحرك ذرات التراب والالواح وإعادتها إلى مواضعها الأولى، لم تخنى أعصابى إذن ولم تصبنى لوثة من شدة الصدمة حينما وقعت الكارثة كما يزعمون. ولم يجد جديد إلا إزالة (الشخشيخة) و(تسقيف) المخزن، واستمر تزويد مخزن قطع الغيار الذى عينت أمينا على محتوياته بالمواسير الصالحة للاستعمال وهى المنزوعة من البنادق التى ضبطت فى حوادث قتل أو شروع فى قتل بالصعيد وأحيلت على (لجنة مخزن الإعدام) وتختص هذه اللجنة بمعاينة المضبوطات من الأسلحة النارية وفرز الصالح من التالف. أما الصالح فيعاد استعماله وأما التالف فيعدم بمعنى تكسيره وتحويله إلى (خردة) بالمزاد العلنى.

عشت قرابة شهرين على جمر القلق والتوتر تحت شمس (القلعة) المحرقة، ولاخيطا واحدا من الضوء يكشف الجناة بعد أن اغلق المدير كل باب للبحث قد يفضى إلى حقيقة أشباح القلعة التى تعيث فى المخازن فسادا كل ليلة فى مأمن من الضبط والعقاب. كنت أشفق إلى حد الجزع مما قد يئول إليه أمر زميلى أمين مخزن السلاح حيث الآلاف من البنادق والمسدسات وآخرها كمية من المسدسات الحديثة المستوردة من المجر وتسمى (توكا جيت)، فلاشك أن سقف هذا المخزن قد جرى عليه ما أصاب سطح مخزنى، فسرقت الأسلحة وأصبحت سلعا فى السوق السوداء للسلاح. إن الضابط المذكور يبيت على عجز كبير دون ريب، ولكنه لا يجرؤ أن يفتح فمه وإلا أحيل على النيابة، ومن ذا الذى يجد ما يسد به عهدته مثلى والنقص فادح؟

ثم كان صباح ذات يوم لاينسى، إذ أقبل علىّ بمكتبى (حكمدار الإدارة)، ومد يده

إلى بورقة مكتوبة بالمداد فى حجم ما كنا نسميه (بعرضحال التمغة). قرأتها فإذا هى بلاغ من مجهول يزيح الستار عن اللغز الغامض، إذ يروى كيفية السرقة وكانت كما توقعتها : صبى يهبط بحبل إلى داخل المخزن حيث يلتقط قطع الغيار ثم يصعد بها ويسلمها إلى حراس المخازن وهم جنود درجة ثانية يتناوبون الخدمة الليلية، ويسلمها هؤلاء إلى لصوص من (عرب اليسار) المقيمين فى حى القلعة، ثم تأخذ طريقها بيعا إلى تجار السلاح المهرب، ومنهم إلى كل من يزمع الأخذ بالثأر أو قطع الطريق. مؤامرة محبوكة الأطراف أبشع ما فيها أن (حاميها حراميها).

زخرفت (العريضة) بأسماء الجناة من لصوص هواة وهم الجنود ومجرمين محترفين عتاة وهم (عرب اليسار)، ودور كل منهم، وكيفية توزيع أنصبة الغنائم بينهم، وشراءَ (فلان) (كردانا) أو قرطا أو أسورة لزوجته وابتياع (علان) قيراطا أو قيراطين ببلدته مما يدل على أن الجريمة كانت مستمرة منذ زمن غير قصير، ولكن الأشد إثارة أن البلاغ تضمن معلومات عن سرقة (طبنجات توكا جيبت) وحصيلة بيعها، وقد أحال المدير هذا البلاغ إلى وكيل الإدارة الذى خرج لمكالمة تليفونية بمكتبه تاركا لى البلاغ ريثما أتم قراءته مما هيأ لى تنفيذ خاطرة راودتنى فقد سارعت إلى مغادرة الإدارة لا ألوى على شئ ودلفت إلى شارع حسن الأكبر المجاور للقلعة بحثا عن مكتب تصوير. ويخيل إلى أننى كنت أعدو فى ردائى الرسمى حتى أحقق غايتى فى أسرع وقت بالنظر إلى تركى المخزن مفتوحا. ولم تكن محال التصوير قد انتشرت فى ذلك الوقت مما اقتضانى بحثا طويلا حتى عثرت على بغيتى.

حين عدت إلى المكتب وجدت الوكيل قلقا يسأل عنى كل من يراه، فلعله قد خشى أن أهرب بغنيمتى فيصبح هو فى موقف بالغ الحرج. تنفس الصعداء إذ رآنى وطلب استرداد البلاغ وهو يسألنى عن سرغيابى. صارحته بما فعلت وسلمته البلاغ دون صورته. وجرت محاورة بيننا حول أحقيتى فى الاحتفاظ بالنسخة المصورة. قلت لن أتخلى عنها فهى سلاحى ومنجاتى إذا نقل المدير وأمر من يخلفه بجرد المخازن، وتعهدت بألا أقدم البلاغ إلى الوزارة أو النيابة العامة. وبقيت مشكلة أخرى وهى

إصرارى على إحاطة ضابط مخزن السلاح علما بمضمون البلاغ، وقيام الإدارة بإحكام إجراءات الحفاظ على هذا المخزن على غرار تلك التى اتخذت بمخزنى.

تراخت التدابير ولكنى بادرت إلى اخبار زميلى فى المحنة بأمر البلاغ، وكان يجتاز أزمة عصيبة بعد أن كشف عن عجز خطير بعهدته وعجز عن التصرف فى حين بدأ الهمس يدور حول هذا العجز والأسلحة المسروقة التى ضبطت فى حوادث قتل وأرسلت إلى مخازن الشرطة بالقلعة مرة أخرى لتحال على لجنة مخزن الإعدام. ثم كان لامفر من إخطار مدير الإدارة بالأمر حيث لم تف محتويات المخزن من المسدسات المشار إليها بطلبات جهات الأمن. وأحيل الموضوع إلى النيابة التى لم تأمر بوقف ضابط السلاح عن العمل إذ كان البلاغ المقدم من مجهول بين يديها، وإنما أمرت بضبط العصابة.

وبعد بضعة أشهر وكنت قد نقلت من معقل أشباح المماليك طالعت فى الصحف ذات يوم نبأ الحكم الذى أصدره القضاء بتوقيع عقوبة الأشغال الشاقة على أفراد العصابة. وقد عثرت أخيرا بين أوراقى على الصورة الفوتوغرافية للبلاغ الذى قدمه مجهول لاشك أنه من هؤلاء الجناة بعد أن اختلفوا عند توزيع الغنائم، ولم يكن دافعه بطبيعة الحال (على وعلى أعدائى) لأنه خرج بخفى حنين إلا إذا أرشد عنه شركاؤه فى حالة ضبطهم، وسوف ينجو فيما يظن لأن الشرطة لن تضبط لديه شيئا من المسروقات، أو ربما كان صاحب البلاغ شخصا نما إليه نبأ السرقة، فحقد على مرتكبيها وقدم هذا البلاغ نكاية فيهم، ويحتمل أيضا أن يكون فاعل خير تطوع بهذا العمل دون أن يطمع فيما يحصل عليه مرشد الشرطة عادة من مكافأة مادية أو معنوية.

لقد كنت وزميلى صاحب عهدة الأسلحة، وأموال الحكومة التى اشتريت بها تلك الأسلحة والمواطنون الذين قتلوا بها أو شرع فى قتلهم ضحايا هذا الحادث. ولا يمكن أن يوجه اللوم إلى ضباط الإدارة الذين أنيط بهم المرور الفجائى ليلا على قوة الحراسة فى مواقعها أعلى المخازن، وأنا أحد هؤلاء الضباط، لأن هذا المرور يتم عبر درج مرتفع تهدمت أحجاره بمضى الزمن وكأنه جسر (البوسفور) الذى وصفه

شوقى بقوله (أمر على الصراط ولا عليه) وإن كان التشابه مع الفارق، فهذا الجسر شديد الضيق ويطل من الجانبين على بحرين. أما درج القلعة فهو طلل يكاد يهوى تحت أقدام من يطؤه والظلمة التى تكتنفه تزيد من يعلوه عسرا. هذا فضلا عن تقدم بعضنا فى السن وإصابة البعض الآخر بعلل صحية أدت إلى إحالتهم على إدارة الأسلحة والإمدادات الواقعة فى جزء من القلعة حيث تسكن أشباح المماليك. ولقد نجوت وصاحبى كما نجا أمين بك من المذبحة ولكن إلى حين، فقد كانت هنالك أشباح أخرى تنتظرنى بعد نقلى من القلعة سالما غير غانم.

لم أكد أمضى عاما فقط فى العمل (بمدارس الثقافة) التابعة لمصلحة الشرطة بعد أن نقلت إليها من إدارة الأسلحة والمهمات، وكانت مهمتها تدريس المبادئ القانونية والمواد النظامية العسكرية للجنود وضباط الصف، حتى فوجئت بنقلى إلى وظيفة (مفتش عهد) مركزه الزقازيق عاصمة الشرقية واختصاصه التفتيش على إمدادات الشرطة فى تلك المديرية ومديريات دمياط والدقهلية والقليوبية للتأكد من سلامة المعدات والأدوات المسلمة لأمناء المخازن من أسلحة وذخائر بمختلف أنواعها وملابس وخيام وألواح ومقاعد معدة لثكنات الجنود من الدرجة الثانية الذين يقضون بالشرطة مدة التجنيد الإجبارى بعد أن قررت القوات المسلحة الاستغناء لوزارة الداخلية عنهم، وتشمل هذه الإمدادات أيضا مستلزمات التدريب ومبانى الشرطة من حديد وأخشاب ومواد للطلاء وهلم جرا.. تلك كانت مملكتى غير الشاعرية، وكنت أتابع فى ذلك الوقت دراساتى العليا بمعهد العلوم السياسية بجامعة القاهرة بالجيزة، حريصا على أن أشهد بعض المحاضرات وكانت مسائية، حتى لا تنقطع صلتى بالجو العلمى، ولكى أكتب فى أثناء الاستماع موجزا أستعين به فى الاستذكار، ولاسيما المحاضرات التى تنعدم أو تندر مصادرها مثل محاضرات الدكتور صلاح الدين العقاد فى التاريخ السياسى.

كان نقلى مرة أخرى إلى الأقاليم عودة إلى تشتيت شمل الأسرة ووأدا لحلمى الذى كاد أن يتحقق بعد أن وجدت لى مقاما هادئا تحت شمس القاهرة وتنفست قليلا فى رحاب الفن والحياة. وأذكر أن البكباشى محمد حسن شديد قائد مدارس الثقافة أنئذ استدعانى ليحيطنى علما بقرار نقلى المفاجئ معبرا عن أسفه لحرمان المدارس جهودى وسألنى عما قد أعلمه من سبب لذلك، فلما أجبته بالنفى اتصل تليفونيا باللواء عبد الرءوف عاصم مدير مصلحة الشرطة التى نتبعها وظيفيا، مثنيا

علىّ ومستفسرا عن الأمر. ونقل إلىّ أن المدير أبلغه أن إدارة المباحث العامة هى التى طلبت نقلى بعيدا عن القاهرة. فأدركت أن التحقيق الذى أجراه مفتش الداخلية العتيد فى واقعة قاعة فوكس أنتج أثره الوخيم محققا له ما كان يتطلع إليه من مجد.

ركبت سيارة الأقاليم طريق الزقازيق – رأس البر ظهيرة أحد الأيام للتفتيش على مخازن الإمداد والتموين فى دمياط. وواصلت الحافلة طريقها بعد بلوغها دمياط ونزولى بالمحطة. استكملت العمل فى وقت يقرب من ساعة وأدركت السيارة العائدة من رأس البر، نفس السيارة، ولم يكد المحصل والسائق يصدقان أننى الشخص نفسه الذى ركب معهما فى الزقازيق وهبط فى دمياط، وكأننى عامل مثلهما بهيئة النقل العام. ولم تكن تلك هى المرة الوحيدة إذ كان عملى التطواف بين المديريات الأربع المبيت فى القاهرة فى معظم الأحيان، فلم يكن لى مكان فى الزقازيق إلا أن أضطر إلى البحث عن مأوى إذا فاتنى وقت الرواح. أطوف ما أطوف مع رفيقى الطريق اللذين يصطحبانى كظلى طوال السنين : داء الشرطة وداء السكر. وكنت أتغلب عليهما بدواءين : الشعر والدراسة الجامعية، أضف إليهما الصبر، وشريكة العمر الوفية، والأم التى لاتمل الانتظار والدعاء بالشفاء من الداء العضوى الذى ورثنى إياه أبى غير جان علىّ ولا ملوم.

لم يكن لدىّ جدار أسند إليه ظهرى غير العلم واثقا دائما أنه قارب النجاة، مهما بدا فى عيون آخرين من أهل المهنة أو غيرهم أنه جدار هش أو ثوب لابسه عريان. حين استظل المسيح بجدار بيت من بيوت القدس فى قيلولة لاهبة الرمضاء خرج إليه اليهودى صاحب الدار وطرده. أما أنا فجدارى لم يملكه أهل صهيون ولم يشردونى بعد. قاربى الصغير الوحيد أحبه حتى الموت، أشعر فيه بالضوء والدفء فى زمهرير الظلم والظلام.. أحس بقوة الأمل – مهما طال المدى – فى انتصار الحق والعدل فى مجتمع العلاقات الاجتماعية غير المتكافئة والروابط الزائفة. ولكن المشكلة الأبدية أن القارب الأعزل لا يقوى على صد العاصفة والإبحار بين الحيتان. ومع ذلك فإنه لم يسقط حتى اليوم، لم يلقفه الطوفان. لكن إهابى يضيق بى وأضيق به. فليس أضيق من السجن خارج القضبان.

فى طريقى إلى الجامعة يوما بعد الظهر مستقلا الحافلة (الأوتوبيس) مرتديا الزى الرسمى لعودتى مباشرة من العمل لاحظت مشادة بين أحد راكبى الدرجة الأولى على مقربة منى وبين المحصل، إذ قال له الراكب إنه من أصحاب امتياز الركوب بنصف الأجر فطالبه المحصل بتقديم ما يثبت شخصيته، فرفض الشاب المهندم الوسيم وقد أخذته العزة. فأصر الآخر، فإذا بالوسيم السمين يهوى بيده على قفا المحصل ولو أنه ضربه على الوجه لكان الأمر أهون، ثم همّ بالمزيد. شعرت كأنه صفعنى، فصحت به منفعلا : كف عنه. فانصرف عن المعتدى عليه قائلا لى : وأنت مالك !! كل القرائن تشير إلى أنه ضابط بالجيش، ومن ثم كتمت غيظى ولم أرد على الإهانة إلا بكلمة واحدة : ستندم على اعتدائك على موظف عام فى أثناء تأديته عمله، وعلى ما وجهت إلى من قول. وأشرت للسائق أن يمضى بنا إلى أقرب نقطة للشرطة، وكانت نقطة الجزيرة. ولم يكن مستغربا أن يلوذ جميع الراكبين بالصمت، مكتفين بإطلال العيون من المحاجر، متفرجين، فهكذا جرت العادة.

كان الموقف حرجا بالنظر إلى انتمائنا إلى هيئتين قوامتين على الأمور الداخلية والخارجية. ومن شأن النفور بينهما – مما قد ينتج عن مثل هذا الحادث – أن تكون له عواقب لا تحمد، وأصداء مؤثرة فى سمعتهما إذا بلغ الرأى العام، كما دلت السوابق. وكان الأمر بالنسبة لى شديد الخطورة، إذ ستحملنى رئاستى التى ابتليت بى المسئولية كلها، ولاسيما أن نقلى من (مدارس الثقافة) – كما تبينت من المكالمة التليفونية التى جرت فى حضورى بين مدير هذه المدارس، وقد راعه أمر النقل، وبين مصلحة الشرطة ـ كان بناء على تقرير سرى يتضمن إبعادى من تلك الوظيفة إلى الأقاليم حماية لأفراد الشرطة الذين أتولى تعليمهم من أفكارى السياسية. فقد كنت وباء معديا مثل «الجرب» كنت أؤمن بالعدالة الاجتماعية، وكانت مصر فى عصر عبد الناصر. ولكن عبد الناصر يقول، ولا ينبغى لنا أن نقول كما علمت فى حوار لم يحن ذكره بعد .

أى اختيار صعب؟ أى مأزق فرض على أن أواجهه أعزل مغضوبا على؟ ولم يكن مفر من المواجهة والمقاومة مع التذرع بالحكمة. ولكن المحصل كان أحمق بعد أن

دخلت مكرها لا بطلا فى الاشتباك الثنائى فصاح وأسكتُه. وتذكرت مرة أخرى صديق المتولى الصياد وكيف تأتى التحالفات على غير الشائع المستقر. ووقف الحظ إلى جانبى هذه المرة، إذ تصادف أن كان عبد الناصر يخطب فى هذا الوقت، وتردد الأبواق (الميكروفونات) من المقاهى كلماته الثورية التى لا أذكر مناسبتها. فأردت أن أدخل الروع فى قلب هذا المغرور الصغير الذى يعتدى بغير حق على عامل ردت الثورة إليه كثيرا من حقوقه، ويعتدى على لأننى أردت أن أكفه عن ظلمه.

على مكتب رئيس النقطة اتخذت مكانى بعد أن تخلى لى عنه (المساعد) الذى كان يشغله فى تلك الساعة. وجلس الضابط متعاظما على مقعد مجاور للمكتب. ولحق بنا بعض سائقى السيارات العامة والمحصلين لدعم زميلهم، واصطفت الحافلات والناس حاشدين. واجهت زميل النظام العسكرى بتصرفه وصوت عبد الناصر، وأغلظت له فى اللوم لأمتص غضب العمال المتجمهرين. وكنت أقاطعه كلما حاول أن يفهمنى دقة الموقف ويبين لى شخصيته.. لمحت (البطاقة) بين يديه، فأخذت بيده إلى غرفة مجاورة وادعيت أننى أشك فى هذه البطاقة الشخصية، وأنه لاشك منتحل رتبة الرائد والوظيفة التى أبلغنى بها. نصحته أن يعتذر للمحصل فرفض إذ كان المحصل قد اقتص لنفسه بما وجهه من ألفاظ التهديد. واستطعت أن أحسم الأمر العصيب بعد أن كاد يفلت من يدى. وكفانى ذلك الدرس الذى لقنته الشاب الغرير بفضل الصوت المدوى على ملأ من الجموع. وحين بلغت كلية الحقوق تنفست الصعداء وإن فاتنى نصف المحاضرة.

لا تقاس القطرة بالبحر وإن كان البحر قطرات تجمعت فشكلت كونه المديد الرحيب. فالنموذج الذى ارتطمت به يمثل الاستثناء فى ذلك الحين نتيجة لنقص وعيه وانفصاله عن جذوره. فإذا أصبح هذا النموذج مثنى وثلاث ورباع جاز القول إن الاستثناء لا يؤكد القاعدة بل ينفيها.

وحين أذكر اليوم محصل الحافلة وإخوته السابقين من الصياديين فى القرى والعاملين بمطابخ الأثرياء بالمدن لا أنسى ذلك الجندى الذى تجاسر فاتهم الضابط الذى يرأسه بالظلم، فكان جزاؤه اللكم والركل حتى سقط طريحا على الأرض فى

وحدة شرطية عملت بها يوما، ولم يرحمه الجانى فداس بحذائه على ملبسه. هالنى ما رأيت. وكان عجب رفقاء المهنة بالغا حين دافعت عن الجندى الذى نسى نفسه. اتهمت بالانحياز إليه وانتهاك حرمة التقاليد التى تقضى بها الزمالة اتباعا للشطر الأول من الحديث النبوى (انصر أخاك ظالما أو مظلوما) دون الشطر الثانى الذى يقضى بكفه عن ظلمه إذا كان ظالما. وقدم المتمرد إلى مجلس عسكرى قمعا له وردعا لغيره. أخفقت فى وساطتى إذ قلت : يكفى ما ناله. ولكن المجلس كان قدرا وبدا لا بد منه. هددت بأن اقول شهادة الحق فما استمع لى أحد.. أذهلنى أن يعترف الجندى أنه أثم وكاد يكذب شهادتى دفاعا عنه. وحين سألته : لم فعل ما فعل؟ أجاب خافض الجبين : (أنت مقدور عليك.. مضمون ومأمون.. إن كذبتك ستلتمس لى المعذرة. أما الآخرون فلن يرحمونى).



مرت قصيدتى التى كتبتها تحت هذا العنوان بسلام، فلم يكد يذكرها إلا قلة قليلة. كانت تمجيدا لعبد الناصر وجعلتها عنوانا لديوانى الثانى، فحق على الويل، وحق على الديوان التعتيم الإعلامى من نقاد كنت أمل فيهم خيرا وأثق بقدراتهم وإنصافهم. وليت الأمر كان قد اقتصر على هذا التعتيم، فقد فوجئت بمقال للأديب القاص المرحوم فاروق منيب على صفحات جريدة الجمهورية– وكنا صديقين حميمين نتآلف فكرا وروحا– ينزل بى طعنة شديدة الوقع على قلب شاعر مثلى أودع ديوانه ذوب هذه الروح التى جمعت بيننا، طعنة من صديق عزيز يسير معى على نفس الدرب، وتلك هى المفاجأة المرة.

كيف ينظر الناقد إلى قصيدة واحدة أو قصيدتين ـ بفرض أن رأيه فيهما صائب ـ ويغمض العين عن إحدى وأربعين قصيدة أخرى احتواها هذا الديوان؟ والأغرب من هذا أن الرؤى فيها تتفق مع رؤاه فى قصصه ومقالاته! تكفى نظرة واحدة على عناوين هذه القصائد للدلالة على وحدة الاتجاه واتفاق الرؤية: دم على البحيرة، قصة صيادين، شعبان الصياد، أحلام صياد صغير، أغنية ريفية، الخوف، شوارع المدينة، العالم والحرية، شهيد من الجزائر، الصياد اليابانى، أغنية إلى جاجارين، مرثية إلى ناظم حكمت.

كل هذه القصائد تعترف من بحر الحياة المتلاطم بالتناقض بين الواقع التعس الذى ترزح تحته الأغلبية العظمى من الشعب، وبين الآمال والأحلام فى تحقيق الحرية والعدل الاجتماعى وسائر حقوق الإنسان التى جاءت ثورة يولية وغيرها من الثورات لتحقيقها. قصائد واقعية ذات مستوى فنى رفيع كما شهدت القلة من النقاد الذين عرفوا بالموضوعية والنزاهة، أسهمت فى النقلة الكبيرة بالشعر العربى الحديث من الرؤية العاطفية الفردية والرؤيا الميتافيزيقيه إلى عالم الأرض والصراع

الاجتماعى، وتطور الشكل بتطور المضمون، فولدت القصيدة الحرة كما سميت وهى التى تقوم على ايقاع التفعلية الواحدة لا البيت ذى الشطرين ألصق الناقد الصديق بديوانى بغير حق تهمة المباشرة والتقريرية، ولو أنصف لرأى فى الكثرة الغالبة من قصائد الديوان ما يقدم النموذج الجلى على انتفاء هذه التهمة.

لقد كان هذا الاتهام بدعة شاعت فى مرحلة النشأة الأولى للشعر الحر، وهى حق إذا اتخذت الأمثلة من الشعر التقليدى الذى هو أقرب إلى النظم، والأمثلة من بعض الشعر الجديد الذى ركب موجة أنصاف الموهوبين أو متعجلى الشهرة، ولكنى لم أكن من أولئك ولا هؤلاء، فقد بلغت مرحلة متقدمة من التطور الفنى بعد سنوات طويلة من كتابة الشعر فى نمط العمودى، ولم تكن كتابتى للقصيدة الحديثة قفزة فى المجهول، بل تطورا طبيعيا لم أقلد فيه أحدا. فقد انبثقت عندى هذه القصيدة حينما اكتملت عوامل هذا الانبثاق ذاتيا وموضوعيا بما يقف خلف هذه العوامل من ظروف اجتماعية وتاريخية.

ومثلما كانت مفاجأتى بموقف الكاتب الصديق من ديوان (فارس الأمل) كانت ثمة مفاجأة أخرى منه فى انتظارى لم تجر قط على بالى غفلة منى، مرجعها انغمارى فى محيط الريفيين الذين عملت بينهم، وكان عبد الناصر بطلهم المرتجى الخلاص من الإرث الاستعمارى والجور الداخلى البغيض من أتباعه الذين ارتبطت مصالحهم بوجوده وهيمنته فى ظل الاحتلال العسكرى أو بعد الجلاء وبقاء نفوذهم تحت المظلة الاقتصادية.

انغمازى فى صف القرويين من العمال الزراعيين المكدودين العاجزين عن الفعل المغير للواقع المفروض عليهم طوال الحقب، كان الوجه الآخر منه ابتعادى عن العمل السياسى بالانخراط فى سلك الحزب المدافع عن حقوق هؤلاء العناة. ولم يكن أرباب هذا العمل إلا قلة لايقبلون أنصاف الحلول،. فمن لم يكن معهم فهو عندهم فى الطرف النقيض بمعنى أنه من ليس منهم فهو عليهم. والمأساة أن هذا الطرف النقيض كان يطبق نفس المعيار. وهكذا كُتب علىّ السخط من الجانبين، وانعكس هذا على تقديرى النقدى، وذلك على خلاف غيرى من الشعراء، فقد ارتضى بعضهم

الحزب المحظور، وارتضى البعض الآخر جانب الحكومة. فكان التهليل بعبقرية كل شاعر متحزب من نقاد طائفته، والصمت المضروب على من هو مثلى غير منحاز بصورة علنية فكنت الطحين بين شقى الرحى.

ولو كان هنالك بحث دقيق فى الحياة الثقافية والأدبية فى الحقبة الناصرية بصفة خاصة، وإعادة تاريخها وتقييم الأدباء والشعراء لاختلفت الأحكام الجاهزة التى اصبحت حتى اليوم من المسلمات، واكتشفت إحدى الحقائق الخفية وهى ذيوع صيت أدباء من أصحاب مذهب (إذا الريح مالت مال حيث تميل)!!. لقد اشترى هؤلاء الشهرة الأدبية بالنزاهة، ولم يجدوا فى هذه الشهرة ثمنا زهيدا، وإلا فكيف نفسر هذا التقلب فى الموقف لشعراء يتغنون ببطوله عبد الناصر، وحين يرون أن أهم النقاد فى الخمسينات والستينات قد انقلبوا أعداء لنظامه انقلبوا معهم لكسب أقلامهم فنعتوا الرجل بأقبح النعوت وجردوه حتى من إيجابياته التى أشادوا بها من قبل.

إن الذين عادوا النظام وهم معتنقو الفكر الماركسى لهم عذرهم لأنهم أصحاب عقيدة تخالف سياسة عبد الناصر، ولأنهم أودعوا سجونه وهم الوطنيون الذين لا يشك فى انتمائهم لوطنهم، ولكن ما عذر الذين لم يضاروا من هذه السياسه بل تقلدوا فى ظلها ثم فى ظل من بعد عبد الناصر مناصب كبيرة فى الدولة، إن شاعر احداً من أهم شعراء مصر هو الذى دفع ثمن معتقده، وظل قابضا على الجمر لا يتحول وهو نجيب سرور، أما الآخرون فهم المتلونون الذين يلبسون لكل حالة لبوسها فمن الاتحاد القومى ثم الاشتراكى إلى البعث العراقى ثم إلى الحزب الوطنى الديمقراطى فى عصر السادات جنبا إلى جنب النظام الحاكم، وفى ذلك فليتنافس المتنافسون!! والمنتفعون.

ومن الأدباء المدعين الذين لم يتلونوا بل ذاقوا الأمرين جزاء موقفهم فاروق منيب، يرحمه الله. وكنت ضحية لما صنع به الجور السياسى من سجن أورثه بغض عبد الناصر. وقد صارحنى بذلك حين عتبت عليه كتابته الظالمة عنى، إذ كانت جريمتى عنده أننى كتبت قصيدتين عن عبد الناصر فى الديوان. ولا شك عندى أن شاعرا

ماركسيا كان صديقا للكاتب الراحل وزميلا له في جريده المساء قد اوغر صدره ضدي، وأوعز إليه بمقولته الفاسدة. وقد عانيت هذا السلوك ولاسيما من الشعراء المشتغلين بالصحافة بدافع كراهية أبناء المهنة الواحدة بعضهم لبعض، بدلا من التنافس الشريف في بلد تتسع قمته لعشرات من الشعراء المبدعين.

حتى الكاتب العظيم يحيى حقي مازال حتى اليوم يشعر بالمرارة من جراء ظلم أكثر النقاد له بسبب عدم تحزبه. ففي مقاله «معاتبات» المنشور بالعدد الرابع- إبريل ١٩٩١- من مجلة إبداع التي تصدرها الهيئة العامة للكتاب يقول: «في وقت من الأوقات كت أبتسم، لأن أغلب الكتابات أصبحت «كليشيه» مطبعة، وأجزم أن بعض المطابع كتبت «طه حسين، العقاد، توفيق الحكيم» في كليشيه واحد، لأن كل مقالة نقدية لابد أن تأتي فيها هذه الأسماء متتابعة، وظللنا على هذا الوضع فترة طويلة. وهذا ليس معقولا.»

ويستطرد الأديب الكبير قائلا: «وقد تهمس لي: انك تقول هذا الكلام لأن هؤلاء النقاد لم يذكروا اسمك في هذا الأكليشيه. لا أدري هل أقول: سامحك الله. أم أقول معك حق؟»

وإذا كان شيخنا صاحب «قنديل أم هاشم» التي كانت ومازالت علامة بارزة ونقطة تحول في فن الرواية العربية يقصد النقاد إليساريين بصفة خاصة كما حدثني في لقاء عابر جمعني معه مصادفة في أوائل السبعينات ونحن نركب الحافلة من ميدان التحرير إلى مصر الجديدة حيث يقع سكننا، فإن شأني مع هؤلاء مثير للدهشة، ذلك أنني أقرب إليهم اتجاها، وأنني عانيت مايقرب أيضا من معاناتهم. كانوا في إحدى فترات حياتهم في عالم السدود والقيود وهو السجن كما سماه العقاد في أحد كتبه ولكنني كنت في معظم سنوات حياتي سجينا ولكن خارج هذا العالم. طاردتني لعنة إدراجي في قائمة «المتعاطفين مع الشيوعيين» بسجلات مباحث أمن الدولة طوال هذه السنوات، وجوزيت بالتشريد والنفي إلى الجهات النائية عن القاهرة حتى أكون- في تقديرهم- بمعزل عن الجماهير. رفضوا نقلي من وزارة الداخلية إلى وزارة الثقافة، ورفضوا في نفس الوقت أن يعفوني من عنتهم، مما يذكرني بالحديث النبوي:

«عذبت امرأة فى هرة» ... إلى آخر الحديث.

وحين أحلت على المعاش سنة ١٩٧٦ بناء على تقرير من تلك الإدارة- وان حررنى هذا من قيد الوظيفة الذى كبلنى طويلا- واتخذت من الجزائر منفى اختياريا، وكنت أعمل أستاذ للقانون الدولى بجامعة وهران- اشتغلت حينا بالسياسة- ليس من باب الاحتراف بل من واقع موقف وطنى اتخذته أثناء سنوات الغربة وأعلنته قبلها فى أثناء مناقشة رسالة الدكتوراه بكلية الحقوق بجامعة القاهرة إذ رأيت أن ذلك أفضل من العمل الفردى المحكوم عليه بالعقم، وكان الوطن فى حالة غليان، فاقتربت أكثر من اليساريين، ولكنى لم ألبث أن رفضت المغريات التى قدمت لى وهى الشهرة الأدبية نظير انضمامى إلى الحزب السرى. فكانت الغضبة واللعنة والإقصاء من حظيرة الجنة التى يسيل لفاكهتها لعاب الأدباء.

وأعرف نقادا منهم يقدرون انتاجى الأدبى ويبدون إعجابهم به إذا ثلاقينا، دون مجاملة فى كثير من الأحوال، ولكنهم يتنصلون من الكتابة عنه، لأنهم لايملكون حرية الخروج على الأوامر أو لأنهم يؤمنون بهذه الأوامر.

ولم يكن يفرق بيننا- كما أعلنتهم دائما- غير موضوعين: إدانتى للدكتاتورية التى يقوم عليها النظام الشيوعى فى الواقع العملى، وإيمانى بالحضارة العربية وبالوحدة العربية .. بمعنى أننى أرى أن بداية التغيير أو الثورة ينبغى أن تكون من هنا .. من وطننا العربى، من عالمنا الثالث. ثم تتسع الدوائر حتى تشمل العالم. كما كنت ومازلت أرى أن الفنان لا يصلح للعمل السرى وما يتضمنه من نظام الخلايا لأنه فوق الحزب، فوق المؤسسة، والاستثناء الوحيد الذى لا ينفى القاعدة بل يؤكدها هو اندلاع نيران ثورة شعبية، هنالك يمكن أن ينخرط الفنان فى سلك الحزب المحظور من النظام الذى قامت الثورة لتقويض دعائمه.

لقد جر علىَّ موقفى هذا كثيرا من الويلات التى بلغت حد التشكيك فى صدقى ونزاهتى ورمانى بعض أدعياء اليسار غير الشرفاء بأننى ضابط شرطة لم يتخل عن جلده فهو بالضرورة يعمل للمباحث العامة ويتظاهر بأنه يسارى. وقد حدثنى الدكتور محمد حافظ دياب زستاذ علم الاجتماع والأنثروبولوجيا أنه حضر واقعة

اتهام نفر منهم لى بذلك أمام الأستاذ محمود العالم وفى غيبتى بطبيعة الحال الأن مثل هذه الدعى لا يواجه- فغضب الأستاذ العالم وصاح فى وجهه قائلا: «إنه شريف .. شريف».

كما أسر إلىّ الدكتور دياب بواقعة أخرى لم أكن أتصورها مهما بلغ بى الظن أو سوءه بهؤلاء ذلك أن لفظا كان يدور حول اتهامى بالوشاية بأبناء أستاذى المفكر الاشتراكى محمد مفيد الشوباشى، وشاية زجت بهم فى المعتقل. ويا للعجب .. إنه الرائد الذى فتح عينى ووعيى على الواقعية وعلى الثورة الشعبية، وأسهم فى إخراجى من ضبابات الرومانسية الفردية والتهويم الميتافيزيقى وذلك منذ أن قدر لى أن أصحبه- لحسن حظى- منذ أواخر الأربعينات حين عرفته حتى رحل عنا. وكان يجهر أمام الجميع أننى أكثر مريديه وأصدقائه إخلاصا. وقد قدم لى مع الأستاذ العالم ديوانى الأول (من وحى بورسعيد) وكان هذا التقديم من حيثيات الحكم بنفيى إلى أقاصى الأقاليم.

صحبة استغرقت أكثر من ثلاثين عاما، ولقاءات من أسعد أيام عمرى وأحفلها بالزاد الثقافى الذى تلقيته من الناقد والمنظر والشاعر مفيد الشوباشى الذى آمل أن يمتد بى العمر كى أؤلف عنه كتابا يخلده مادام الباحثون والنقاد وجلهم من تلاميذه قد تنكروا له وجحدوا فضله، فهم يذكرون الرواد: طه حسين وسلامه موسى والعقاد والحكيم وينسونه بل يتناسونه لغرض فى نفوس غلاة المتمذهبين منهم، وهو انتماؤه إلى الحضارة العربية وإشادته بها- على الرغم من إيمانه بالشيرعية- وعدم انضمامه إلى الحزب السرى، فى حين انضم إليه ولده الأكبر وإن كان الاعتقال قد شمل أحد ابنيه الآخرين، ولم يشفع للثالث إلا حداثة سنه.

وما أشبهنى بالرجل، وإن كان مالاقيت من عنت أقل كثيرا مما لاقى، إذ تكالبت عليه المحن فى شيخوخته وأقلها تجاهل إنتاجه ودوره فى تأسس الحركة الثقافية وإثراء الأدب الواقعى التقدمى بمؤلفاته ومترجماته ودراساته ومقالاته الغزيرة والمتنوعة.

أية فرية حقيرة تلك التى اختلقها أولئك الحقودون الأفاقون الأفاكون أصحاب

مذهب: من لم يخضع لمبادئنا فما جزاؤه إلا أن نصب عليه نيران جهنم. فإن كان يعبر عن شئ من آرائنا فإن عقابه أشد وأنكى!! لقد كان هؤلاء عارا على المذهب الذى تمسحوا به، وكانوا - عند النظر الصحيح المتعمق- من ألد أعدائه لأنهم محسوبون عليه. ولو كان الاشتراكيون الحقيقيون أبعد نظرا لنفوهم من صفوفهم، إذ كانوا من قبيل «البلطجية» الذين تستعين بهم بعض الأحزاب فى القيام بالمهام الصعبة التى لاتليق بالمفكرين.

وأكبر ظنى أن وجود الطغمة الفاسدة المفسدة فى كنف التقدميين الشرفاء، كان من أسباب الوصمه الجائرة للشيوعيين من جانب عبد الناصر بأنهم جميعا عملاء، منكرا عليهم دورهم فى مساندة الثورة فى انطلاقتها الأولى، وجاحدا تضحياتهم فى سبيل الوطن والعدالة الإنسانيه، واشتراكهم مع فصائل أخرى منها الإسلاميون فى العمل الفدائى بمنطقة قناة السويس.

وفى اعتقادى أيضا أنه لو كان الاشتراكيون الحقيقيون قد نقوا صفوفهم من هذا الدرن وتلك الآفة، فربما كان ذلك خيرا لهم وللوطن كله.

علمت من الدكتور دياب الشائعة التى أطلقها نفر من الجبناء الموتورين لسبب أو لآخر، وهى أننى كنت جليسا لأستاذى الشوباشى ليلة رأس السنة (٣١ ديسمبر ١٩٥٩) فى منزله بشارع الساحة وسط المدينة، وهذا حق، ثم انصرفت قبيل منتصف الليل وهو الوقت الذى اقتحم رجال المباحث العامة مسكنه وفتشوه وألقوا القبض على ولديه واقتادوهما إلى حيث يلقى بمن يعدونهم أعداء لسياسة الدولة وأكثرهم أبرياء ثم يمضون فى المعتقلات ما شاء لهم الطغيان أن يمضوا.

أشاع الجبناء أننى وشيت بالرجل وأهله، واستدلوا على ذلك بأننى انصرفت قبيل الموعد المحدد لاقتحام داره. انتابنى مايشبه الذهول الصاعق حين علمت بهذه الشائعة، وعجبت كيف يصدقها بعضهم لست عدوا للشوباشى ولم أجن على أحد. وكيف يستقيم فى الأذهان أننى صبحت الرجل طوال أكثر من ربع قرن وأنا أعمل لحساب جهة تعاديه، بل تعادينى أيضا. إن قوائم المغضوب عليهم معدة سلفا، وهى تطبق- بالاعتقال- فى كل مناسبة يراها أصحابها. ولكن المشكلة أن أصحاب المذهب

المتعصبين يصدق بعضهم بعضا .. إنهم يتنادون بالعدالة وهم أول من يطؤونها بأقدامهم. وهم ضحايا السلطة التى لاتعدل فى أمرهم، ولكنهم لا يختلفون عنها فى الإيقاع بمن يرونه خصما لهم أو رافضا للأنضواء إليهم وإن كان مشايعا لهم فى كثير من أفكاره ومواقفه.

ولن أنسى ما حييت موقفا للرجل العظيم الشوباشى فى إبان محنته تلك، إذ زرته فى أعقابها، فهمس لى فى شبه اعتذار كأنه فعل ما يسوءنى، أن زمرة المباحث العامة قد عثروا فى أثناء تفتيشهم السكن على كارت (بطاقة) لى كنت قد كتبته وتركته له مقرونا بكلمة منى حين زرته ولم أجده، واحتفظوا به ضمن ما أخذوا من كتب وغيرها عندهم من أدلة الجريمة. فهونت عليه الأمر قائلا ما معناه: إنه لايضير الشاة سلخها بعد ذبحها، فهذه البطاقة لن تزيد من وزن «الملف» المحرر عنى ضمن ملفات المشتبه فيهم ولم تكن القشة التى تقصم ظهر البعير.

ولو أن الأدنياء أصحاب الشائعات والوشايات علموا بهذه الواقعة، لازدادت نشوتهم بالحصول على دليل جديد ضدى. فكيف لا ينالنى ما نال أبناء الشوباشى والدليل قائم ضدى، جاهلين أو متجاهين أننى ضابط شرطة مثل هؤلاء القائمين بالتفتيش والاعتقال، وأن احتجازى يتطلب أولا وقفى عن العمل ثم محاكمتى، وهو مالم تكن تريده وزارة الداخلية، إذ يشكل ذلك لو تم حرجا لها لتورط ضابط من أبنائها ومايثيره ذلك فى رأيها من فضيحة، ولان فصلى من الشرطة، أو إقصائى دون مساءله عنها- وهو ما رغبت فيه- يجعلنى طليقا، وقد يؤدى ذلك إلى تطرفى فى رأيهم.

وكانت الوزارة ترى أن بقائى فى سلك الشرطة محققا لهدفهم وهو محاصرتى كما جاء فى قول السيد/ عبد العظيم فهمى وزير الداخلية للسيد الدكتور/ ثروت عكاشة وزير الثقافة حين تلقى الأول كتابا من الثانى وقعه السيد/ عبد المنعم الصاوى وكيل الوزارة باستطلاع رأى الداخلية فى نقلى إلى وزارة الثقافة ولم يعلم الدكتور عكاشة بأمر هذا الخطاب إلا من هذا الاتصال التليفونى، مما سبب لومه للأستاذ الصاوى.

ولكن ثالثة الأثا فى التى دقها أصحاب الشائعات كانت فى الجزائر حين ارتضيت العمل السياسى فى نطاق الجبهة الوطنية المصرية ممثلا لتجمع الوطنيين التقدميين بالخارج جنبا إلى جنب مع ممثل الحزب المحظور بالداخل وممثلى الأحزاب الأخرى المعارضة، رافضا الاستقالة من عملى الجامعى بكلية الحقوق بوهران للتفرغ لهذا النشاط السياسى إيمانا بأن المناضل لا ينبغى أن يرتزق من السياسة مادام له مصدر آخر للعيش، وإلا غدا رهينا لقادتها لا يملك كلمته بل يخضع لما يؤمر به، فضلا عن أننى- كما ذكرت- أنفر من احتراف العمل الحزبى السرى فكلانا لايصلح للآخر.

ولم يقنع منطقى الأستاذ يوسف درويش الذى كان همزة الوصل بينى وبين قيادة الجبهة، فلم يكن يكف عن الإلحاح فى سبيل موافقتى على الانضام إلى الحزب قلت له: إن أدبيات هذا الحزب تقسم الموالين قسمين أحدهما الرفاق وهم الأعضاء والثانى الأصدقاء. ويكفينى ويكفيهم أن أكون صديقا.

واستمر الإلحاح اغتناما لفرصة العمل المشترك خلال اللقاءات المتعددة والثقة بين المناضلين وتضحياتهم، وهم صفوة من المثقفين ارتضوا مرارة المنفى فى سبيل قضية مصر الشعب والقضية الفلسطينية وهما فى رأيى وحدة واحدة لا تتجزأ. والصخرة الصماء من شأنها أن تتكسر ثم تتفتت إذا تعاقبت عليها قطرات من الماء زمنا طويلا، كذلك كان شأنى، إذ سئمت ذات ليلة استضافنى فيها الصديق ثم ألح، وقلت فى نفسى إن الأمر أهون من ذلك كله، فليكن ما يبغى. وتحدثنا فى تفاصيل العضوية ثم أرجأنا بحثها اكتفاء بالاتفاق على المبدأ.

فى صبيحة اليوم التالى لمت نفسى على تسرعى وعد ولى عن موقف ثابت لم أتزحزح عنه طوال السنين، فكيف لى أن أقبله بدافع الخجل والرغبة فى ترضية صديق. وتناولت ورقة أودعتها سطرين فحواهما أن الموضوع الذى تداورنا بشأنه سابق لأوانه وشكرته على حسن ضيافته مؤكدا مشاعرى الطيبة ودفعت بالخطاب من مقامى بوهران إلى عنوانه بالعاصمة. وانتظرت الرد، ولكنه خرج بالصمت عن لا ونعم وحدست شرا من جانبه، إذ كان- كما دلتنى مصاحبته- شديد الوسواس سئ الظن بالناس إلى درجة مرضية لتعدد مرات اعتقاله سياسيا والحكم عليه بالسجن وكنت ألتمس له العذر.

ظاهرة ارتيابه فى أن كثيرا من الناس الذين يلتقى بهم مرشدون للمباحث شملت جنود المرور، اذ حدث مرة أن استوقفه أحدهم وهو يقود سيارته وأنا بجانبه للاطلاع على أوراقها وهو اجراء طبيعى لا يدعو إلى الشك ولاسيما أن السيارة تحمل أرقام «متعاون أجنبى» فى الجزائر ولكنه لم يقتنع بقولى. واشتبه مرة أخرى فى رجل يحمل سمات الشخصية المصرية المثقفة، وخيل إلى أننى التقيت به فى أرض الوطن. وأخذ يحذرنى من الحديث معه بعد أن سألنا حين توسم أننا مصريان عن بعض الأصدقاء وكنا نتهيأ لاجتماع فى الفندق الذى التقينا فى مدخله. قلت له: إن بعض الظن إثم ولم يصدقنى. وحين انعقد الاجتماع أشرت له إلى الرجل المشتبه فيه إذ كان أحد الحضور.

وبلغ الأمر به أن وضعنى فى دائرة الاشتباه. أفصح عن دخيلته ذات مرة حينما قلت له لأ قطع عليه حبل المراودة والإلحاح: إن لى تجارب كثيرة، فلست بالغر الساذج كما قد يهيأ لبعض الناس من جراء بساطتى وعفويتى، ولكنهم ينسون أننى أمضيت شطرا طويلا من عمرى فى العمل ضابطا للشرطة، مما علمنى مالم أكن أعلم لفرط سذاجتى .... فقال متعجلا على غير عادته: «هذه هى خطورتك»!!

فلما وقعت الواقعة أعنى وصول كتابى إليه، انقلب وهمه إلى حقيقة مسلمة عنده. وكانت أولى «البشائر» بعد بضعة أيام من الصمت المطبق لقاء أحد أصدقائنا الحميمين لى– حين سافرت إليه بالعاصمة– بوجه مقطب كئيب لا يحمله المرء إلا لخصم أو خائن. فعرفت وتأكدت أن الدائرة ستتسع و«النشرة» ستصل بسرعة برقية إلى القاهرة: أن «احذروه» فهو العدو المبين واستعيذوا بالله من الشيطان الرجيم!!

كم عانيت– ومازالت أعانى كلما تذكرت– من مرارة الشعور بالظلم هذا الذى عبر عنه شاعر قديم بقوله:

وظلم ذوى القربى أشد مضاضة
على المرء من وقع الحسام المهند

وكأنما لم يكف مالقيته من مظالم «الداخلية» بسبب تعاطفى مع هؤلاء الأصدقاء

وهم الأشرار عندها. سيدة مناضلة أكن لها مزيدا من الاحترام وهي كاتبة صحفية مرموقة وفدت مرة إلى الجزائر للاشتراك فى مؤتمر الأدب العربى الذى عقد ذلك العام بالعاصمة الجزائرية وكنت مدعوا أيضا. تهلل جبينها حين التقينا وتبادلنا حديث الود والتقدير، وتفرغت لأحقق لها ما أرادت من البحث عن زملائها حين كانت تعمل فى الجزائر مع زوجها الذى لا أنكر وطنيته منذ بضع سنين. ولكن الأيام لم تجر كما اشتهت السفين، بل تبدلت من النقيض إلى النقيض بعد يوم أو يومين، إذ وجدت نفسى ذات مساء بجوارها- حسب ترتيب منظمى حفل أقيم لأعضاء المؤتمر- فأعرضت ولم تنبس ببنت شفة وكأننا غريبان بل خصمان .. لقد وشى إليها الصديق- لاشك- بكذبته- والرفيق لا يكذب!! فأنا المريب!! وقد سارعت بمغادرة مقعدى بجوارها، ووجدت أمامى الكاتب الروائى الصديق الأستاذ الطاهر وطار الذى اقترح أن نلتقى بالأدباء التونسيين فى موقع غير بعيد، فكان اقتراحا منقذا.

مازال هذا الشبح يلاحقنى حتى بعد عودتى إلى الوطن ١٩٨٨ إثر غياب استمر عدة، فالرجل الشبح عاد أيضا بعدى، واستمر فى بث سمومه، ولم أشأ أن أرد له الصاع هناك، وكلانا غريب الدار ولا بعد أن فات الأوان، وربما كنت مقتنعا بقول الشاعر: «فإذا رميت يصيبنى سهمى». ولكنى مازلت أعجب كيف لايطبق الأصدقاء ما يؤمنون به من تحكيم المنطق والعقل بل الواقع بدلا من أن يأخذوا من يحبهم ويحسن تعامله معهم بالشبهات التى لا يصدقها الصغار. إنها الازدواجية أو سوء التطبيق وتقديس شعار: «الرفيق مصدق لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه»!!

ولطالما وقفت مع الصحف التقدمية فى أزماتها فكان جزائى النكران بل الافتراء لرفض أن أُنَظَّم. من المضحك المبكى أيضا أن بعض صغار النفوس من الآخرين ظنوا أننى أفدت من عملى السياسى بضع سنين انطلاقا من موقف وطنى قومى مثلما أفاد غيرى، أنا الذى ما ارتضيت قبول درهم من غير عرق جبينى، فقد كان مرتبى من عملى الجامعى بالجزائر يغنينى يكفينى قليله، ورفضت الإغراءات التى خضع لها آخرون فى خلف العهد من مناصب أو مغانم.

وردت على خاطرى هذه الشطرة من مطلع قصيدة لأبى تمام وأنا استعرض فى ذاكرتى كتابات ضحايا اختلاف الرأى فى عصر عبد الناصر بعد رحيله، وما جرى من انقلاب على سياسته. فتواترت مقالاتهم بمنجزاته التى أنكرها عليه بعضهم من قبل. ولسان حالهم الآن يقول:

رب يوم بكيت منه فلما صرت فى غيره بكيت عليه

«يوسف» رمز عبد الناصر فى هذا السياق كما خطر لى، لامت صواحب «يوسف» زليخة امرأة العزيز عشقها إياه ثم عذرنها حين طلع عليهن فشغفن به مثلها. ولم يكن لما حاق به ملام، ولكنها آفة السياسة. أعود الآن إلى قراءة قصيدتى (فارس الأمل) فلا أجدنى استوحيته من ملامح شخصيته الوطنية أكثر مما يقوله الصحاب الآن، وما تطلعت من ورائها إلى مغنم مثل آخرين من الشعراء. لم أكن شاعر سلطة، فقد ولدت فى غمار الشعب تحت سقف بيت صغير فى «حارة» قاهرية. ولم يكن ولائى إلا لهؤلاء الفقراء الذين ترعرعت فى دفء أحضانهم وشققت طريقى بقوة سواعدهم.

كان عبد الناصر ملاذا لهؤلاء الكادحين بتفجيره للثورة. ولذلك أحببته مثلهم فى بداية ثورته. لقد جاهدت فى سبيل الحصول على درجة الدكتوراه فى القانون حتى لا أرتزق من الشعر، ولأحيا محررا من العوز ومن إحناء الرأس بمديح آدمى مهما بلغ شأنه. كان رائدى دائما قول البارودى:

خلقت عيوفا لا أرى لابن حرة
على يدا أغضى لها حين يغضب

والقصيدة معزوفة حب لشعب أنجب بطلا، وليست تقديسا لهذا البطل. بطل لولا التفاف هذا الشعب حوله لأهمله التاريخ. فالتاريخ تصنعه الشعوب لا الأفراد.

ولذلك تنضح القصيدة منذ مطلعها بعرق الفلاحين الذين ثار عبد الناصر ورفاقه الذين ضل بعضهم فيما بعد من أجل أن تعود لهم ثمرات هذا العرق المسكوب والدم المراق عبر آلاف السنين:

أنفاسهم مشبوبة الحنين ساعة السحر
والشمس تغمر العيون والشجر
وتنضح الجباه بالعرق
لا يعرفون زينة المدن
وينشقون طيب العبير من ندى الحقول

ooo

وينشد الأرغول
يا رائحين بلغوا السلام
للصاعدين يرقبون مطلع الشروق
على ذوائب الجبل
والصامدين حول فارس الأمل
والعائدين تحت راية السلام
يا طيب زهرة السلام

أما القصيدة الثانية فهى (فارس الشمال- تحية للبطل العربى فى مؤتمر (باندونج)، وهى ليست بدورها قصيدة مديح بل أغنية انتصار للشعوب الافريقية والاسيوية فى تجمعها الفريد لأول مرة فى التاريخ بعد الشتات الطويل تحت سنابك الاستعمار الأوربى، ولمصر العربية التى شاركت فى المؤتمر بقيادة عبد الناصر ابن الشعب ولدوره فى ارساء حجر الأساس للمؤتمر. وإن أنس لا أنسى ذلك الصباح الربيعى فى يوم من شهر إبريل ١٩٥٥ حين كلفت- وكنت أعمل معاون بوليس لقسم الساحل حى شبرا- بالقيام على رأس ثلة من الجنود للاشتراك فى «تشريفة» استقبال الرئيس بمطار القاهرة بمناسبة عودته من باندونج.

شمس مصر الفرعونية العربية كانت تشع من جبينه، ووميض النصر والكبرياء يبرق فى عينيه. واليد المصافحة .. اليد السمراء القوية كانت يد الملايين من الجماهير

التى هبت بعد أحقاب طويلة لتسترد حقوقها وتفتح نافذة مضيئة على الغد .. فكيف لاتتوهج الرؤية ويتدفق الشعر ولست إلا ابنا لهذه الملايين وشاديا لأفراحها وآمالها:

يازهرة الجبل
ياقبلة الندى على الورود
يا أميرة على الجزر
ورفت الأصداء فى التلال:
بندنج ... بندنج
يا زهرة الجبل

ooo

بندنج أعراس الدماء تقطف الحياه

ooo

ورفت الأصداء فى التلال:
الشمس حرة الشعاع
والريح تدفع الشراع
وأنت .. أنت شعبك العظيم
يا فارس الشمال

فى تراب القرية العارية القدمين غاصت قدماى وروحى ومواجدى، وبين بيوتها الطينية التى تشبه الكهوف المعتمة والمقابر والفقراء، وعلى حفافى ترعتها التى تنفث سم البلهارسيا فى عروق أبنائها فيتحولون إلى جذوع نخل خاوية ويودعون الحياة وهم أحبابها وصناعها فى زهرة العمر، تحول شعرى إلى مواويل مأساوية. وأصبح «متولى» الصياد المعدم ورفاقه أبطال قصائدى سنة ١٩٥٧.

رأيت «متولى» الذى كان يلهج بذكر عبد الناصر المنقذ والمخلص يغوص حتى أعماق البحيرة لعل القدر يرق له فيغنم سمكة لأطفاله الجياع، وقلما كان يصيب شيئا يسمن أو يغنى .. بكت رفيقة العمر حين رأت هؤلاء الأطفال يزدردون سمكات صغيرة معفرة بالتراب والحصى فى حجم الديدان دون أن تنضج على النار. مأساة الشيخ الصياد لهمنجواى وأشلاء سمكة القرش التى خرج بها من البحر أهون لأنه عاد سالما مسلحا بإرادة الحياة. أما أولئك الصغار الحفاة العراة المرضى فمن أين لهم هذه الصلابة. جدهم غاص مرة فى البحيرة ليستخرج السمك من أحد كهوفها ولم يطف بعدها أبدا .. هكذا حدثنى متولى عن أبيه .. وتتواصل أجيال الشقاء.

على أحد جانبى البحيرة كان الإقطاعيون من المزارعين والصيادين الكبار يرفلون فى رفاهة العيش. وليس غير رصاصة تلعلع فى جنح الدجى أو فى رائعة النهار جزاء من يقف فى طريقهم من أمثال متولى إذا سولت لهم أنفسهم يوما أن يطالبوا بحقهم ويقتسموا الرزق فى الأرض أو فى الماء.

هنالك زلزلت قوائمى، وكان التحول من التغنى بمجد الثورة إلى القصيدة الثورية التى يفضح ماوراء سطورها عالم الطغاة المستغلين. لقد أدركت مدى تغلغل الإقطاع فى أرض الوطن، وأن الملاك الكبار راسخون ورابضون على صدر

المستضعفين المحرومين مثل صخور الأهرام. كما رأيت كيف تسللوا إلى صفوف رجال الثورة بعد أن ارتدوا أقنعتهم، فكانوا أعضاء فى التنظيم السياسى الأول وهو هيئة التحرير، وتطوروا مع مراحل تطورها الشكلى من الاتحاد القومى إلى الاتحاد الاشتراكى.

اقتضاهم هذا التطور نظام الحزب الواحد المسيطر. أما فى ظل تعدد الأحزاب السياسية فى عصر الملكية، فقد اقتضاهم الوضع أن تكون الأسرة الإقطاعية الواحدة موزعة لتحقيق مصالحها بين تلك الأحزاب، فهذا عضو منتم للوفد وذلك من الحزب الدستورى والثالث من رجالاتلحزب الفلاح الذى كونه صدقى ليضرب الوفد. وهكذا يتداولون السلطة فوق أعناق عمال الأرض وتحت مظلة الاحتلال ومابعد الاحتلال.

أيقظنى «متولى» على الفاجعة فتعمق وعيى بضراوة الإقطاع وعدم تورعه عن القتل وارتكاب غيره من الجرائم. وفتح الصراع الذى فرض على أن أخوضه مع العمدة الإقطاعى رئيس البلدة مقر نقطة الشرطة التى رأستها بابا لصراع أخر ضد هؤلاء الأعوان. وعرفت أيضا بشاعة الفساد الذى كان مستشريا بأجهزة الحكومة ولم تستطع الثورة أن تقلم أظفاره ولا أظفار الإقطاع لقدرته على شراء بعض الذمم والضمائر الميتة، مما أسفر فى النهاية مع غيره من العوامل عن كارثة يونية ١٩٦٧ وتهديم ما بنته ثورة يوليو، وإصابه الشعب بالإحباط، وتضعضع روح الولاء للثورة بعد أن تهاوى المشروع القومى.

عرفت أيضا أن هناك عزلة مضروبة بين القيادة الوطنية الحاكمة وبين الجماهير، والثقة التى كانت توشك أن تولد بينهما قد عادت إلى الانكسار. لقد تحمس الريفيون والطبقة الكادحة بالمدن فى بادئ الأمر لهذه القيادة ... ولكن الفساد الذى عاينوه أفقدهم آمالهم، فعاد فى وعيهم ذلك الفصل التاريخى بين القاعدة وبين القوة الحاكمة، فكان الاغتراب وانعدام الانتماء.

والحق أن التحمس لعبد الناصر لم يفتر– نظرا لسقوط كثير من الأسر الإقطاعية– ولكن التخوف من الحكومة استمر أو عاد إلى الظهور، ولاسيما أن هزيمة عرابى لم تغادر ذاكرة الفلاحين.

ولاشك أن النظام الفوقى لسياسة الثورة غير النابع من القاعدة الشعبية قد أسهم

فى هذا الفصل بين القيادات الوطنية وبين الشعب. وكانت المبادئ والشعارات صحيحة ولكن المشكلة كانت تمكن فى التطبيق. فلم تحقق قوانين الإصلاح الزراعى حلم الاشتراكية بمعناها الكامل، وإن كانت قد كسرت حدة الطغيان، ورفعت رأس الفلاح وجعلت التعليم كالماء والهواء كما نادى به طه حسين قبل الثورة، وقضت على الثلاثى اللعين: الاستعمار والملكية ورءوس أفعى الإقطاع دون أذنابها التى استخفت خلفها.

شاهدت (متولى) و(شعبان) و(محمود) يبيتون عرايا بعد خمس سنوات من اندلاع الثورة، قارب متولى الذى كان يستأجره ولايجد غيره مأوى له ولزوجته وأولاده كان مهددا بانتزاعه منه لعجزه عن سداد قيمته الإيجارية وهى عشرة قروش يوميا.

لقد خلقت قوانين الإصلاح الزراعى مناخا مناسبا لنهضة ريفية، غير أن الفجوة الاجتماعية ظلت قائمة بين القرية والمدينة لأن الأيدى المنفذة لم تكن تؤمن بمبدأ الصالح العام، فكانت فى واد والريفيون فى واد آخر. لم يسأل الفلاحين أحد عن أسلوب الاصلاح والتغيير، ولا استشارهم وهم أصحاب الحق الذين يدخرون فى أعماقهم كنزا من التجربة والخبرة بشئون الأرض ووسائل توزيع العدل بين أصحابها. وظل الفلاحون مجرد أدوات يوجهها ذوو السيطرة ويستثمرها المستغلون.

شغلت هذه القضية كل تفكيرى، فلم يمتد أفقى من الريف حيث كنت أعمل إلى المدينة التى تمور بغليان كثير من المثقفين بسبب العدوان على الحرية السياسية وما جرى فى ظل القوانين الاستثنائية من اعتقالات، ولم أكن أعلم بانحرافات أجهزة الأمن السرية. وحين نقلت إلى القاهرة رأيت أن (متولى) و(المقرئ الصغير) الضرير وغيرهم من أبناء القرية، قد جاءوا فى صحبتى، تبدلت الوجوه والأسماء والأزياء والمهن ولم تتبدل الفاقة والمهانة. والغلمان التعساء من باعة الياسمين للمترفين والمشردون الذين يتخذون من الأرصفة مأوى ويتدفأ بعضهم بلحم بعض فى الليالى الشتائية القارسة، وعلى جوانب الأرصفة تتلألأ المتاجر بالأضواء والسلع التى

يختص بها المنعمون. فكتبت (الشيخ والقيثار)، و(شوارع المدينة) و(رسالة إلى القاهرة).

ولأننى حومت حول الحمى، فقد نالنى قدر المدافعين عن حقوق هؤلاء التعساء الضعفاء. يومئذ أضيف وتر جديد إلى القيثارة، وتر المقاومة الشجية والبوح الكظيم دون أن أملك جسارة الذين ألقى بهم خلف القضبان من الوطنيين الشرفاء، وإن كانت أقلية ضئيلة منهم من المغامرين أو الذين يتلقون الأوامر.

فى ليلة عيد الميلاد :

ولم أبتل بزوار الفجر، ولكنى عرفت أشباحهم فى الظلام الذى لف المثقفين التقدميين السجناء، وفى عيونهم التى كانت تترصدنى وتحصى على خطواتى بل أنفاسى وتشردنى فى أقاصى الديار .. فى العيون المترصدة كتبت قصيدتى (غيمة الخريف)، اذ جاءت فترة من الزمن كنت فيها أخافت من صوتى لشريكة الحياة مخافه هذه العيون. نحن فى بيتنا الصغير النائى وكأن للجدران آذانا كما يقال، وذلك بعد أن علمت أننى مراقب:

ساعتنا تدق نصف الليل
ونام طفلانا
ولم تبح بالحب عينانا
«ترى شجاك مقدم الخريف
أطفئ مجامر السهاد
أنعم مساء يا حبيبى»
حبيبتى، أغنية الكنار قد تغيب
فى وحشة الدروب
وقد يطول ليله الحزين
فلا تقولى: عانق النسسيان
فؤاد محبوبى
ففى سمائنا الضحوك يا حبيبتى

يهوّم الخريف بالغربان
وترتقى شرفتنا عيون
تخالس النسيم همسنا
وتسدل الظلام حولنا
ياويل شاديك الحبيب
تنقّر الغربان عشه الصغير
وتوصد العيون دونه الطريق
تخاف ومضة الشروق
أن تُسقط القناع عن ضميرها الشرير
والفجر أن يوقع الغناء للقلوب

كما كتبت (غيمة الربيع) أمزج فيها بين همى الخاص وهموم الباحثين عن الشمس والفصل ربيع تحت سماء القاهرة التى أشرقت فيها شمس يولية ١٩٥٢ ثم اعتراها مايعترى وجه الثورات الوطنية من ندوب وبثور:

متى أهلت طلعة الربيع؟
فقد دنا نسيمه الرطيب
ورقرق الغدير

✪ ✪ ✪

وفى مدينتى تفتحت زهور
وغادرت مهودها الأطفال
حتى جناد ب الحقول غردت على المياه
ما أبهج الوجود
لاغيم، لا رياح تحصب الديار
لكنما سحابة على الجباه
لا نوء، لاغبار
لا ظل يحجب النهار
من أين جاءت غيمة الربيع؟

ويتحول معول الحصاد للثمار إلى رمز لقتل الأبرياء وقطف رءوس طلاب الحرية والعدل، فتفزع النساء من خوف على مصير أطفالهن:

كل الوجوه غضنتها خيمة صفراء
كأنها ما فارقت شتاء
ومعول الحصاد فى المروج يقطف الورود
والأمهات أعين على الصغار لحظها شرود
ما أبهج الوجود
لولا يد تمتد فى الظلام
لتسرق الأحلام

رؤيا ثالثة فى قصيدة (العبير والظلال) كانت وراءها نفس اليد التى تمتد فى الظلام لتسرق الأحلام، يد الثورة التى تحمل وجهين: النور، والظلمة التى تمثلها أجهزة الاستبداد.

وحين أعود إلى قراءة هذه القصيدة والقصيدتين السابقتين الاحظ أن كلمة «الغيمة» قاسم مشترك بين الثلاثة، وأن مطلع (العبير والظلال) يتضمنها. هكذا تطل برأسها الكابى منذ البداية لأنها أكثر إلحاحا، كما الاحظ أن «طارق الظلام» له قسمات وجهها أيضا. وتحمل القصيدة معنى الصراع بين النقيضين:

على جناحى غيمة المساء
مضى يشق أبحر الهموم
يحمل للأحباب باقة الأمل
والجرح فى فؤاده لم يندمل
منذ تولى حلمه القديم

✪ ✪ ✪

وحينما ارتمى على الأعتاب
هوى شعاع الورد من يديه
واغرورقت عيناه بالعذاب
ياويله من طارق الظلام

يغلف التذكار بالسواد

فلا يرى بهاءه الصحاب

ولعل الليلة الكئيبة العاصفة التى دهم فيها زوار الفجر بيوت تقدميين يعارضون السلطة وهم يحتفلون بإشراقة عام جديد واقتادوهم وهم الذين لم يشهروا سلاحا فى وجه الثورة غير معتقداتهم، اقتادوهم خلسة من الدار إلى النار، لعل هذه الليلة هى التى أوحت إلى بقصيدتى (فى ليلة الميلاد) وقد تصورتهم وهم المئات بل الآلاف يتجسدون فى سبعة رفقاء. فقد غدوا فى محنتهم بعد «متولى» وأصحابه شغلى الشاغل:

سبعة رفقاء

٭٭٭

ماضلوا .. ما افترقوا

شربوا واعتنقوا

فى ليلة عيد الميلاد

وتغنوا فى خفقة حب

أغنية للإنسان العانى

معصوبا فى كهف الإنسان

يطعم من صدأ الأصفاد

لقد ذكرت القلعة ضمن الصور الفنية فى القصيدة، فهل ترانى كنت أرمز بها إلى معتقل القلعة الذى توزع الأصدقاء بينه وبين معتقل الواحات الذى كتب عنه أحدهم وهو الكاتب والصحفى الروائى الفنان صلاح حافظ رائعته التى لا تنسى «القطار» وغير هذين من المعتقلات؟. إنى لا أذكر أننى استعملت هذا اللفظ ذا الدلالات إلا مرة أو مرتين فى شعرى رغم غزارته ـ إحداهما فى رحيل عبد الناصر كما سأبين فيما بعد.

والغريب أن القلعة لم ترد إلا نادرا فى قصائدى على الرغم من تجربة قاسية

مررت بها فى موقع داخل أسوار قلعة محمد على، وقد رويتها من قبل، ومازلت حتى إليوم أعانى مرارة ذكراها لشدة ما أورثه لى ذلك من هم مقيم نجوت منه بضربة حظ موات كأنها معجزة، كما كان نزوله بى خبطة عشوائية أيضا، وقديما قال شاعرنا العربى:

(لم أكن من جناتها علم الله وإنى بِحرّها اليوم صالى)

كان ذلك فيما أذكر عام ١٩٥٨ ، وكنت أعمل أمينا لمخزن فى إدارة إمدادات الشرطة فى مبنى القلعة، ووقع حادث سرقة فى المخزن والفاعل مجهول. ولم تنكشف هذه الغمة إلا بعد زمن طويل أمضيته نهبا للوساوس، ولعل عدم ترديد كلمة «القلعة» فى أشعارى مرجعه رغبتى الدفينة فى محو هذا الحادث من ذاكرتى ومطاردته كلما ألم بها:

واجتاحتهم ذكرى الأحزان
إعصارا يقتلع القلب
وجدا أسرج كل دموع الويل
أطفأ كل شموع الليل
أطفأها لم يبق سوى شمعه
بين جنايا الصدر
قالوا من يحملها، يشعلها
فى أعلى أسوار القلعه
لتنير أقدام الفجر؟
من يحملها
مهما أضنته اللوعه
لا يسكب دمعه
بل يمضى يقتلع الذعر ؟
من يشعلها
مهما احترقت كفاه

مهما أرقت عيناه
ويغنى أغنية النصر
فى ليلة عيد الميلاد ؟

الفارس المجرح الجبين

اختفت مبكرا فى شعرى نبرة (فارس الأمل) و(فارس الشمال) اللتين أهديتهما إلى عبد الناصر، ولكن معنى الفارس المخلص استمر مع اختلاف فى السمات والخصائص، فأصبح تجسيدا لثورة شعبية تتفجر من العذابات وبالدم كما رأيتها فى المقطع السابق من قصيدة (فى ليلة عيد الميلاد)، ويليه المقطع الآتى الذى تختتم به القصيدة:

من يستخفى من وجه الريح
كى يوقدها ذات مساء
فى صدأ الأصفاد ؟
قال الشاعر : يا رفقاء
إنى أعرفة
يأتى فوق جواد المغرب
فيهز المشرق
خطوته مجلى النور
نظرته سهم مسحور
جبهته إكليل الشوك
إنسان عملاق يخضب عينيه الدم
ويغمغم فى حلم
طوبى للإنسان العانى
يخرج من قاع الأحزانِ

فى يده شمعه

يوقدها رغم الريح

لتنير لأقدام الفجر

ولتصهر صدأ الأصفاد

فى ليلة عيد الميلاد

وأتبعت هذه القصيدة بقصيدتى (رؤيا) التى تعزف على نفس الوتر مع اختلاف بالضرورة فى التقنية الشعرية، إذ تغفر أضواء البطل الموعود كل مساحة القصيدة وكأنه حلم يقظة يراود الوجدان وتتحسس الروح مسراه وتستمع إلى دقات أقدامه القادمة.

هو الفارس الجميل القادم جواده على ريح المساء، هذا الذى يحلم به الصبايا ويهتفن باسمه، كما ينتهى به المقطع الأول الذى وظفت فيه بعض تعابير «نشيد الإنشاد» وقصة امراه النبى زكريا التى حملت وهى المرأة العقيم :

من أين جاء ؟

هذا الصدى من وقع خطوته

يعرفه الفؤاد من قديم

تشتاقه الأم العقيم

مالون عينيه ؟

ردائه، جواده

ومالذى يحملَه فى جعبته ؟

ياليتنا نلقاه فى هذا المساء

ونملأ العيون من شعاعة الجبين

وياصبايا الحى إن ترينه

توجن بالورود هامته

واسكبن حوله عبير الياسمين

الفارس الجميل جاء ..

وهو الفارس القديم العائد من أحشاء الماضى بعد آلاف السنين المثقلات بالحنين،

ومثل طائر الفينيق ينبعث من رماد النار ويقتحم الحريق والأشواك والقيود على حين تخرج بنات الحى إلى رؤوس التلال بالورود والرياحين يهزجن بالأناشيد فى انتظار البشارة ان يطلع عليهن فتكتحل العيون بمرآه وتتزود بنور طلعته وتعود ليالى الحصاد:

آن أوان الجرح أن يجف
وأعين الأطفال أن تضئ، والمطر
يسقى الصحارى
متى تهل طلعته
لنجتلى قبل الرحيل
سحر الليالى المثقلات بالحنين
وموكب الطير المغنى والدليل
ياليل طابت سهرة الربيع
يا عين لن تزورك الدموع
الفارس القديم عاد

ولكن انتظار «بنيلوب» يطول ومازال السر غامضا على التلال، والشمس على سمت الأفق لم تحمل بعد جناحى الصقر (حورس) ويأبى الفارس الجميل، الفارس القديم إلا أن يرجئ عودته ويجبر أحبابه الظامئين:

لا .. لم يجئ
ولم يحن له مآب
مازال يستخفى عن العيون
يسبح فى غمامة من الظنون

وهو يحمل بعض سمات المسيح كما حملها فى القصيدة السابقة (فى ليلة عيد الميلاد) جبينه مخضوب تحت إكليل الشوك، ولكنه ليس النبى المنتظر ولا الملاك المنقذ، بل هو فى حاجة إلى من يعينه فى شق دربه ويقرب أوبته حتى يخرج من بين ركام الغيم المتراكب بعضه فوق بعض، وإلا لقى مصير أبى ذر الغفارى: يولد وحده ويسير وحده ويموت وحده.

إنه يمد– من خلال الظلمات– يديه إلينا نحن الشعب، ففى نجاته نجاة لنا، لأنه «نحن» ونحن «هو» فإذا أبصرتنا أبصرته وإذا أبصرته أبصرتنا، إنه روح «جيفارا»:

لا تصدح الأجراس
وليصمت البشر .. لا
تهزج صبايا الحى بالنشيد
ولترقب النساء مطلع القمر
على أسارير الصغار
لا .. لم يجئ
ولم يحن له مآب
مازال يخطو زاحفا على الظلام
مكبلا مجرح الجبين
الليل أوصد الطريق
سد الفجاج كلها
وأشعل الحريق
يا ويلتا للفارس النبيلِ
يشق فوق النار مسراهُ
يمد للأحباب يمناهُ
يا من يجير الفارس النبيل !
يا من يجير الفارس النبيل

فى رحم الحلم بالعدل ثم واقع الاستبداد الذى وأد الحلم ولدت أغنيات البطولة والنصر ثم الأغنيات الحزينة التى تطلعت إلى فارس لم يحن زمانه بعد. ولكن القلب ظل معلقا بعبد الناصر وإن بدأ الفكر يرفض أجهزته حتى حانت الساعة وانشق القمر فكانت كارثة ٥ يونية ١٩٦٧. وتحولت القصائد إلى مناحة حينا وإلى ثورة جامحة حينا آخر. ولم أستكن شأنى كشأن عامة الشعب إلى اليأس، بل تشبثت بالرمق الأخير، لأننى كنت على وعى بأنه لابديل لعبد الناصر رغم مسئوليته عن الهزيمة. كنت أدرك أن الاستعمار الجديد المتمثل فى الولايات المتحدة الأمريكية شريكة إسرائيل سوف يقف له بالمرصاد متحينا فرصة للإيقاع والتنكيل به لضرب الحركة الوطنية والاتجاه الاشتراكى وليكون عبرة للعالم الثالث كله.

ما أكثر قادة هذا العالم العسكريين الذين كانوا أول من ترك السفينة كالجرذان كى تغوص موشكة أن تغرق بمن فيها، أو استسلموا لمشيئة العدو وأسلموه القيادة ثمنا لبقائهم فى الحكم. ولكن عبد الناصر فيما حدست سوف يحنى رأسة قليلا للعاصفة حتى يسترد أنفاسه ثم يعود إلى شموخة مثل شجرة جميز مصرية لا تموت إلا واقفة.

لذلك كانت الصدمة الثانية المروعةحين أعلن بعد أربعة أيام من الكارثة أنه وحده المسئول أمام شعبة وأمام التاريخ، لم يكذب أو يخادع كما لم يساوم. وأعقب ذلك بإعلانه التنحى عن السلطة. وطاردت من ذهنى فكرة أن الرجل يطلق بما فعل بالونة اختبار أو يلجأ إلى المناورة تشبثا منه بالحكم.

ولما هب الشعب بجميع فئاته من أدنى الوادى إلى أقصاه فى ٩ و١٠ يونية ١٩٦٧ يعلن تمسكه بقائده رغم هزيمته، ازددت حبا حتى العبادة لوطنى وشعبى، شعبى الذى آمنت دائما بوعيه وقدرته على احتواء الأزمات التى يتعرض لها فى الأوقات

العصبية، وامتصاص صدمتها، متزودا من تراثه التاريخى الطويل فى المقاومة بطاقة متجددة تصهر الحديد.

ومن لهب، الاصرار على المقاومة اقتبست شرارة سميتها (أغنية إلى جمال عبد الناصر)وضمنتها ديوانى إلى الثالث «مدينة الدخان والدمى» الذى كتبته من وحى رحلة سنة ١٩٦٥ فى قلب الوحش الإمبريالى (الولايات المتحدة الأمريكية) وصدر سنة ١٩٦٧. ولأنى لم أفقد الثقة يوما فى عشقة لوطنه وبغضه للاستعمار- مهما كانت سلبيات عصره- فقد وجدتنى أصفه بفارس الأمل فى هذه القصيدة مثلما وصفته أول مرة، ولم يكن ذلك وحده بل أضيفت عليه بعض سمات البطل الأسطورى الذى عبرت عنه قصيدتى (رؤيا)، فالذين أفزعهم موقفه يوم تنحى والتفوا حوله هم بسطاء الناس، لأن مسئوليته عن الهزيمة لم توغر صدورهم نحوه، وهل يبغض القلب المحبوب مهما جنى على عاشقه، كما وجدت ثلاثة ألفاظ استخدمتها بعينها فى قصيدة (فى ليلة عيد الميلاد) وهى الطلعة .. البشارة .. العودة، وتسللت إلى (رؤيا) :

الأمهات والصبايا والصغار
يستعجلون طلعتك
تخرج .. تملأ العيون .. تحمل البشاره
ينتظرون عودتك
قامتك الشماء قلعة المدينه
كفك توقد المصابيحَ
تصد الريح
تشل أقدام الظلام
الله يا بطل
يا فارس الأمل

يومها جاشت مشاعرى تنفض عن قلبى غيوم الاكتئاب الذى ران عليه بعد ذهول مفاجأة النكسة. خرجت الجموع إلى الشوارع تصرخ بهتاف واحد كأنها تصدر عن قلب واحد. أى روح لم تكن لتتوهج، وتتدفق؟ وأى صدر لم يكف عن الخفقان والأنباء

تسـجل واقعـة غيـر مسبـوقة فى تـاريخ مـصـر وربما فـى تاريخ الـشعـوب كلهـا وهـى احتشاد الآلاف من نساء وأطفال ورجال حول بيته فى حى منشية البكرى، ومبيتهم فى عرض الطريق إعلانا لـتشبثهم ببطلهم رغم انكساره. لقـد أحسوا أن غيابه ضياع لهم وحضوره بعث جـديد واستمـرار لمسيرة الـثورة التى احـتضنوهـا فى ضـلوعـهم كشـمس تشـرق عليـهم، ومـهما غـطت وجهـها السـحب السـوداء فسـوف تسـفـر عن وجهها بعد حين.

استقر فى وعيهم أنه ليس أمامهم طريق آخر للـخلاص، وأن الفراغ إذا أصر رجلهم علـى ترك الـسلطة لن يملأه أحد بعـده.. ثورة بغـير دم تـلك التـى اشـتعـلت فـى كل مكـان وتركـزت حول قصـر عابـدين. أضـرمها أصـحاب الـصدور العـارية مـن الفـئات الدنـيا التى تـعطى وترضـى بالكفـاف. تذكروا حـسنات ثورة يـولية ونسـوا سيئاتـها، واغتـفروا لـقائدهـم ما صنـع السـفهاء حـوله، ولاسـيما أن الـذين أضيـروا مما اتـخذت الـثورة مـن إجـراءات كـانوا أعـداءهـم وهـم الإقـطاعـيـون والمسـتـغلـون. أما قـضـية الـديمقـراطية فقـد كانت بعـيدة عـن اهتـمـامهـم. وهم لـم يعـانوا مـا عانـى المثـقفـون المختلفون مع السلـطة من استبداد وتنكيل. لقد أهدرت الـثورة كرامة هؤلاء المثقفين، مـهدرة بـذلك قـدسـية الـرأى والرأى الآخـر، معـتـدية عـلى حـق أسـاسـى مـن الحـقـوق الإنسـانية، ولكنها أعادت إلى الفلاحين والعمال كرامتهم.

صـورة الجمع الغـفير حول قصـر عابديـن ودلالتها أشعلت بدورهـا وجدانى ففاض شـعـرا، وامـتـزجـت بـهـا واقعـة أخـرى وهـى صـوت المدافع المضـادة تـطـارد الطـائـرة الإسـرائيـلـية الـتى حـلقـت فى سـماء الـقاهـرة تـلك الـليـلة لـتسـكت هـدير الجـماهـير وتستعرض سطوة العدو المنتصر، وصوت صفارات الإنذار.

كانت الجمـاهيـر تريـد بموقفـها أن تـقول: لـقد خسـرنا مـعركـة ولكـن أعداءنـا لـن يسـتطيعـوا كسـر إرادتنـا، وبقاء البـطل المهـزوم رمز لبقـاء هذه الإرادة، وجود أحبـابه حوله يحرسونه، درع تقى صدر مصر من صولة السهم المسموم.

تقطع الصفير .. والغضب
وفتية تفترش العراء حول الدار

وطفلة تجهش بالبكاء
والقلعة الشماء والطوفان
بيتك ترعاه القلوب
يحفظك الرحمن
تبقى لنا .. فليلنا الماضى طويل
ياغرس أيدينا
يا سر وادينا
ياروح شعبنا النبيل

توحدت المدينة بصدور الفئات الشعبية المتدافعة كالأمواج كما توحد بها عبد الناصر كرمز للرفض وللمقاومة، يتلاصقون كالبنيان المرصوص ليحموه من الإعصار الأسود الكاسح، ويساندونه حتى يقف مرة أخرى على قدميه ولا تتداعى القلعة أنقاضا، ويساندونه كما ساندهم فى محنة الاحتلال والإقطاع قطرات. ماتلبث أن تتحول إلى موجة كبيرة واحدة فى تلك الليلة التاريخية الخالدة.

ويتكرر رمز القلعة فى المقطع الثانى كلفظة لها الدلالة الأساسية فى القصيدة، فهى محور الرؤيا الذى يجتذب كل الجزئيات وتفصيلات الصورة: المصابيح التى توقد بعد انطفائها، الريح التى تعصف، أقدام الظلام التى بدت فى المقطع الأول وتتكرر فى هذا المقطع أيضا مع تنمية درامية لها. وتتابع الرموز البشرية فى المقطعين: قامة عبد الناصر وكفه، الفتية الذين يفترشون العراء، المتضرعة، وطفلة تجهش بالبكاء متشبثة بصدر أمها كالعصفورة المذعورة من هول الزحام حولها، والدعاء «يحفظك الرحمن» «تبقى لنا»، مما يرمز إلى الأيدى إلى السماء وقد غشيتها النذر، ويشى بالحس الدينى لدى عامة الشعب، والإشارات التى ينتهى بها المشهد فى النضال كلما أوتوا بطلا من بنى جلدتهم. فهم يخاطبون عبد الناصر هاتفين: «ياغرس أيدينا، ياسر وادينا، ياروح شعبنا النبيل»:

لا تحتجب
ما أظلم الليله
فلنحم قلعة المدينه

انطفأت شعله
معا نصد الريح
نوقد المصابيح
الله يادرع العناه

ولم تكن هذه الجموع المحتشدة على ضلالة فى التفافها تحت راية عبد الناصر، فتاريخه معهم يشهد له، لا لأنه من طينتهم فحسب، ولكن لأنه عمل جاهدا من اجلهم، فمعدنه أصيل والصدأ الذى يعروه عارض. ولولا أصالته ما تكالبت عليه ذئاب العدوان، «فالسيل حرب للمكان العالى». وليس شعب مصر الذى حرم النوم على عينيه تلك الليلة المشهودة وترامى إلى بيته أفواجا كدوائر الأمواج المنداحة إلا تجسيدا لنهرهم الذى عبده أجدادهم قديما لقوته وعطائه .. نهر هادئ يخفى فى أعماقه سر قوته هذه حتى إذا كان الصيف اندفعت مياهه القادمة من أعالى جبال الحبشة تهدر كالجيش العرم فيكون الفيضان.. ينجلى السر الكامن فى أعماق الشعب مثل نهر النيل كلما أصابت القوم مصيبة، فهم يهجرون المضاجع والاسترواح تحت ظلال التوت والجميز فى ساعة القيلولة، وتتحول مواويلهم الخضراء والحمراء إلى صرخات كالمعاول يشقون بها صدور الغزاة والظالمين، كما دعاهم الشيخ جمال الدين الأفغانى فى القرن التاسع عشر أن يفعلوا مستلهما عبرة تاريخهم. وهاهم - اليوم - فى تلك الساعات المدوية- ما إن سمعوا خطبة عبد الناصر التى وقعت عليهم كالنذير بالنهاية الفاجعة حتى غادروا بيوتهم وأموا بيته كأنه كعبتهم يهتفون به:

أية نار أنضجت عودك؟
يا أنضر الأعواد فى حديقة الرجال
يا أصلب الرماح فوق نيلنا
ياسلوة الجراح
يا خبزنا وملحنا
ياعرق الأجير

وابتسامة الصغير
يافارسا أطل من تاريخنا
حبا يضئ فى عيوننا
ترنيمة فى المعبدِ
تكبيرة فى المسجدِ
يا نصرنا على الهوان
ياقاهر الأحزان
لاتنس ميعادك
لاتنس ميعاد الصديق
معا على الطريق
ويل لقطاع الطريق

هكذا جاءت القصيدة مضفورة من النسيجين: التاريخ والواقع، أما التاريخ، فهو مزيج من الحضارتين الفرعونية كما يرمز لها (المعبد) والعربية الإسلامية كما تتمثل فى (المسجد) و(الفارس) وحدة واحدة. أما الواقع فهو يتمثل فى الزراعة التى يعيش عليها السواد الأعظم من المصريين منذ عصر الفراعنة راضين بالحد الأدنى من الرزق وهو الكفاف (الخبز والملح)، وذلك الواقع القديم الجديد، على الرغم من خصوبة واديهم، إذ كان الحصاد نهبا للطغاة الأجانب أو أشياعهم فى الداخل. وقد عبر عن عطاء النيل الموفور الشاعر العباسى أبو نواس حينما قدم على مصر ليمتدح ابن الخصيب واليها فقال يخاطبه وقد ألهمه معنى اسم هذا الوالى الصورة التى تضمنها البيت:

أنت الخصيب وهذه مصر   فتدفقا فكلاهما نهر

وصور المتنبى فى براعة نعرفها فى عبقريته الشعرية هذه الثنائية المأساوية وهى الأرض المعطاء بنيلها الذى لايغيض وسُرّاق ثمراتها من أيدى وأفواه أصحابها

الحقيقيين الذين رووها بعرقهم السخى، صورهم بقوله فى قصيدته الدالية المشهورة التى هجا بها كافور الإخشيدى والى مصر:

نامت نواطير مصر عن ثعالبها

وقد بشمن وماتفنى العنقايد

هؤاء الكادحون العناة الذين يذكرنا انتهاب ذوى السلطة الغاشمين من شذاذ الأرض أو من أهلها لخيرات بلدهم يقول شوقى:

أحرام على بلابله الدوح حلال للطير من كل جنس ؟

(٤٦)

تلك القصيدة (أغنية إلى جمال عبد الناصر) التى كتبتها فى العاشر من يونية وهو اليوم الثانى لانتفاضة مصر الشعب رفضا للهزيمة ودعوة لعبد الناصر أن يبقى لتجاوز المحنة واحتواء الآثار الوخيمة التى أحدثها الزالزال المروع فى قلب الأمة العربية فكاد أن يقتلع هذه الأمة العريقة من جذورها بعد أن هوى العدو الصهيونى بالبناء رأسا على عقب باحتلاله المباغت- فى حرب الأيام الستة المشئومة- للأرض الفسلطينية .. الضفة الغربية للأردن وغزة. وشبه جزيرة سيناء والجولان، مما لم يكن يتوقعه أشد الناس تشاؤما، ولا دار فى خلد العدو ومن خلفه فى أمريكا وأوربا.

لكأنما كان هذا البنيان من ورق وكانت دعوة القومية العربية وانتصاراتهم بقيادة عبد الناصر على الاستعمار القديم أسطورة بنيان هش مطلى بألوان الزيف والإفك يعشش يوم غير مرئى فى جنباته، حراسه الذين وكل إليهم عبد الناصر الحفاظ عليه قلوبهم هواء، فلم تكد دودة الأرض تأكل عصا سليمان حتى تفرقت شياطينهم أشتاتا تنعى الصرح ومن بناه، ويصب الأبرياء عليهم اللعنة دون أن يملكوا من أمر عقابهم شيئا. إنهم الأنبياء الكذبة فى هذا الزمان، نخروا كالسوس خفية وجهارا فى جسد الوطن والأمة وعاثوا فى الوادى فسادا، فانهارت الأرض بما حملت كأن لم تغن بالأمس، والرجل الذى حملهم الأمانة فى شغل شاغل عنهم بالمعارك التى فرضت عليه لمقاومة الاستعمار وأقنعته فى كل مكان. والذين أشاروا له إلى مكمن الداء لم يصدقهم وصب عليهم نقمته لأن بطانة السوء كانت تحجب عنه الحقيقة وتستمرئ خداعه.

هل كتب على عرب القرن العشرين أن يكونوا شر أمة أخرجت للناس وكتب للصهاينة أن تتحقق الأسطورة التى نسجوها وجعلوها شعارا على جدار الكنيست:

«من النيل إلى الفرات ملكك يا إسرائيل»؟ أم سيعيد التاريخ نفسه فى الشرق الأوسط هذه المرة، ليتحول العرب إلى هنود حمر آخرين بعد أن خربوا ديارهم بأيديهم وأيدى أعدائهم؟

قد يجئ زمن مايسترد المصريون فيه سيناء بالدم ولكن من للفلسطينيين الأشقياء بأبناء أمتهم كما عبر عنهم شاعرهم محمود درويش عند خروجهم من آخر معاقلهم فى لبنان ومذابح مخيمى صابرا وشاتيلا؟ يالله! من كان يتصور أن ينزل عليهم كل هذا المقت والسخط والخراب وهم الأبرياء؟. أتراها لعنة أبدية كالقدر الإغريقى تترصدهم أنى حلوا أو ذهبوا، فهم المحاصرون المنبوذون من أبناء أمتهم هؤلاء أكثر من أعدائهم؟ أترى تصدق عليهم كل حين المقولة النائحة للشاعر طرفة بن العبد:

وظلم ذوى القربى أشد مضاضة

على النفس من وقع الحسام المهند

من أين نفذ الشيطان حتى بلغ شغاف القلب ثم شقه، حتى السويداء فأعمل فيه سكاكينه عبر السنين العجاف ثم أجهز عليه فى الأيام الستة السوداء؟ قال مناحم بيجين لليهودى الأمريكى كيسنجر الشريك المخطط للمؤامرات الصهيونية، والذى فتح بعد ذلك أبواب الترسانة الأمريكية لإسرائيل بعد عبور قواتنا المسلحة إلى سيناء فى حرب أكتوبر المجيدة، ومد جسرا جويا بأحدث الأسلحة بين قواعدها هنالك وراء المحيط وبين الموانئ الإسرائيلية، حتى ملأ الرعب قلب السادات فألقى خطابه الشهير فى ٢٤ أكتوبر آمرا بوقف إطلاق النار لأن مصر- كما صرح- لاتقوى على مجابهة أمريكا. قال الإرهابى بيجن وهويحاور كيسنجر حتى يقلع عن محاولاته فتح باب التفاوض بين مصر وإسرائيل بعد أن سكتت المدافع، وربضت الأقدام القذرة على أرض الفيروز سيناء، تريد أن تحرقها، وتطاولت قامات المعتدى تريد أن تبلغ الجبال طولا- قال الإرهابى لصاحبه: «لماذا تجهد واشنطن نفسها فى محاولة جرنا إلى مفاوضة العرب لفرض السلام بيننا وبينهم وهم جثة هامدة لن يقدر لها أن تنهض قبل خمسين عاما أو يزيد؟

أترانا حقا هـذه الجيفة أم نحن مـازلنا أحياء نرزق أو نشـكو؟، وربما نـقاتل يـوما لإجلاء العدو المغـتصب الذى أهدر كرامتنا وأخـمد الحلم وهـزأ بمشروعنـا القومى بل وطئه بـأقدامه الدنسـة التى اجتاحت أراضـيا واستراحت فـى القدس وأصبـحت صرخة المرأة العربية «وامعتصماه» سـخرية تصـفع منا الآذان والوجوه، والشتات بات شتاتنا لاشـتات إلـيهـود؟ لم تـكن نـكسـة بل انـهيـارا، والـفلـسطـينـى المشـرد أو المقـيم تحت الاحتلال الصـهيونى الاستـيطانى فى انتظـار النجدة، والنخـوة العربية أشد الـضـحايا بؤسا.

أفزعـتنى آلة الحـرب الأمريكـية الرهـيبة التـى تغذى اسـرائيل حـين اصطدمت بـها عيناى وجوارحى، وكنت قد أوفدت فى رحلة دراسـية قصيرة إلى واشنطن فى صيف ١٩٦٥. كان القصـد من وراء الزيارات التى رتبوها لنا نحن القادمين من العالم الثالث للدراسة فى الأكـاديمية الدولية للشـرطة. أن يبهرونا بما بلـغوه بالعلم والتكـنولوجيا من حضـارة آلية حققـت فى نصف الـقرن الأخير من المـنجزات مالم تحـققه البـشرية عبر آلاف السنين من تاريخها، ليزداد عشـقا لـنمطهم فى الحياة من هـو مستلب بهذا النمط، وليدب اليأس فيمن هـو مثلى مـن الرافضين أو المرتابين فلا يفكر فى أن يرفع رأسة مرة واحدة.

كنـت مرفـوع الرأس أقـول فـخورا لمن يسـألنـى منـهم: «من أيـن أتيـت؟» «من بـلد ناصـر» ، فلا يـتمـيزون غـيظـا، كمـا ولعـلى اشـتـهيـت بـل يرمـقونـنى بـنظـرة تخـفى مايضـمرون وكأنهم يقولون لى: «إن لـم تعرف إليوم ستعرف غدا» . وفى قلعة «فورت براج» إحدى القواعد الـعسكرية فى الداخل، وهى واحدة من مئـات فضلا عن مئات أو آلاف أخرى خارج الأراضى الأمـريكية مجهزة تحت الطلب لتضـرب فـى أى موقع من الـعـالم. يرونـة مـعاديا، قـدموا إلى الـنموذج البـرهان. فى بـضـع دقائق علت الطـائرات وألقت علينا ما حسبناه، منشورات تتناثر فوق رءوسنا وحولنا كالعصـافير، فإذا هى نسخ مـن صورة كبيـرة التقطـوها لنا وأهـدوها من الفـضاء فوقنا إلينا لـنحتفـظ بها على سبيل التذكار، وهى تقول لى بلسانهم: «الآن عرفت»» ؟

كانـت محـرقة فيـتنام التى أضـرموهـا علـى أشدها، فـزادنى هـذا نفورا مـنهـم بل

بغضا لهم، واشتعلت أولى قصائدى (أغنية فى ليل الغربة) وقد برح بى الحنين إلى وطنى وحبيبتى وولدى وابنتى هناك فى ضاحية مصر الجديدة على مقربة من المطار رمز الفراق كأنما كان هذا القرب نذيرا بقدرى المكتوب. ولعلنى غمغمت حين أدركت بشاعة السلطة فى الأرض التى نزلت بها بعد بهجة البشرى حين نما إلى وقوع الاختيار على مع زميلين من ضباط الشرطة لبعثة فى العالم الجديد كما كنا نسمى بلاد (اليانكى):

ويلتا للغريب فى البلد النازح ماذا بنفسه صنعا
فارق أحبابه فما انتفعوا بالعيش من بعده وما انتفعا

وتسلل الإحساس بالخوف من تلك السلطة الجهنمية إلى القصيدة وشبهة يأس من انتصار مقاومتنا فى المدى القصير:

يانجمتى يابرء قلبىَ العليل
عالمنا لم يأت بعد
ودربنا طويل

كان التليفزيون الأمريكى الملون تبث إحدى محطاته صورة الطائرات المروحية وهى تُسقط من حالق شبابا أسرى فيتناميين وهم مقيدون بالأصفاد ولم أكد أصدق أن هذا واقع من فرط ذهولى.

كان فتية من المراهقين والشباب بنات وأولاد شبه عرايا يصخبون ويتقافزون بوجوههم البيض المورِّدة، وهم حول جهاز التلفزة فى سكنهم بالطابق الأول، وكنت أقطن بالطابق الثانى، والطقس صيفى فالنوافذ مفتوحة، والمشهد لايكاد يصدق، تهليل مثل صيحات النصر لرؤية الأسرى- الفيكونج - كما كان يسميهم جيش ترومان حامى حمى الشعوب المستعبدة من النظام الشمولى للشيطان!!

تسلل هذا المشهد إلى القصيدة بعد الأبيات السابقة، ولكن فى صورة أخرى من صور الجحيم وهى الصورة التى تجسد سياسة الأرض المحروقة التى يطل تمثال الحرية من سمائها على المحيط وتملأ الكرة الأرضية ضوضاء وصخبا حتى الهياج بشعارات الدفاع عن حقوق الإنسان فى مواجهة المعسكر الشرقى- حين كان هناك

معسكر شرقى– المتربص بالعدوان على تلك الحقوق المقدسة، ويا أيتها الحقوق كم من الجرائم ترتكب باسمك!!

ففى مدينة الرخام والرصاص والسحب
تثقب قاع الصمت صرختان
تضج فى الأسماع ضحكتان
لأن طيارا رموا به أعالىَ البحار
وفوق معبر صغير
تطرقه هناك طفلة وأم
بين حقول الأرز والثمار
ألقى بحمله الثقيل
فطهر الغابات والتلال والأنهار
ولم يعد
لكنه قد أدرك المحال
بطولة تروى وتذكار لغد
فى غابة بلا سماء
مدينة الدخان والنساء والدمى!

لقد أوحى إلى أن الطيار الأمريكى الذى سيق إلى أحراش الفيتنام ليلقى قنابل النابلم على الأبرياء ويهلك النسل والضرع وكل نبتة حية من أخضر أو يابس، قد لقى مصرعه، للدلالة على إيمانى بانتصار المقاومة فى آخر المطاف لأن الشعب المكافح لايموت مثما لايموت النهر، بل يلد الثائر فى أعقاب ثائر. والمجد للحرية حتى آخر الزمان مادامت قوافل التضحية ماضية إلى الأمام.

وفى ختام هذه القصيدة انفجر الحنين الذى اجتاحنى مستبدا بى فى مطلعها والرؤية للمستقبل العربى وإن لم تتجاوز حافة التشاؤم إذ عبرت عن ضرورة الصمود والمغالبة وإلا تتفرق بنا الطرق أو يهوى بنا القنوط «إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون» ونحن مؤمنون، وللوطن منا التقديس والفداء.

حبيبتى عالمنا لم يأت بعد

ودربنا طويل !
هيا نشد رحلنا إلى الوطن
نغالب الزمن
لنلتقى هناك بالرجال

هذه الذكريات هاجتها المأساة الفلسطينية فى هزيمة ١٩٦٧، وكنت قد عدت بعد عامين من (مدينة الدخان والدمى)، إذ كتبت من وحى الرحلة الأمريكية قصيدة (بيت ورياح) التى تضمنت مايشبه النبوءة بالمصير العربى والفلسطينى التعس. ومن المفارقات أيضا أن هذه القصيدة ظهرت قبل صدور الديوان الذى يتضمنها منشورة بمجلة روز اليوسف فى عددها الصادر صبيحة ذلك اليوم الرهيب، الخامس من يونية الذى لم تطلع بعده علينا الشمس قط إلا هنيهة كأنها خلسة ثم غربت ومازالت تنتظر (حورس الصقر) كى يحملها على جناحيه العريضين المبسوطين يملآن الأفق.

ألهمتنى القصيدة ليلة شجية قضيت شطرا منها فى مدينة أوهايو فى صحبة شاعرة أمريكية سوداء اسمها جيسى هاتشكوك Jessi Hathcock عضو لجنة الحقوق المدنية المطالبة بحقوق الزنوج بالولايات المتحدة الأمريكية. أمضينا السهرة فى الطريق ثم فى بيتها بتلك المدينة الجميلة التى تقبع وادعة على ضفاف بحيرة (ارى)، أكبر بحيرة فى العالم، وهمزة الوصل بين الولايات المتحدة وكندا، أمضيناها (نتشاكى حر القلوب الظماء) كما يقول الشريف الرضى. شكت لى مرارة الإحساس بالتفرقة العنصرية فى أمريكا وطنها، فلم تعرف لها وطنا غيره، حدثتنى عن الاضطهاد والعدوان على كرامة الإنسان فى بلده، فأثارت شجوى، وتذكرت فلسطين. جمال (أوهايو) الآسر لم يستطع أن يكون سلوانا لوجدان الشاعرة الحزينة المناضلة، بل لعله زاد همها وعمقه، فالطبيعة الجميلة لدى أصحاب القلوب المرهفة توقد رماد الحزن فى الزمن الردئ، إذ يشارك فيها الظالم المظلوم استمتاعه بها كأنما لم يكفه أنه يغتصب سائر طيبات الحياة.

صورت بدائع (أوهايو) فى الليل وجولتنا فى سيارة رفيقة الرحلة، وامتزج

إحساسى بالجمال بمشاعر الاغتراب وبالسأم الذى بدأ ينتابنى. كانت كئوس زميلىّ تطفح باللذة والسعادة وكنت دونهما شقيا بشرابى وأوصابى. عيناى هما اللتان أنستا بمجالى الحسن الذى لاتنضب ينابيعه البكر، فالعين لا تروى من النظر- كما يقال فى نشيد الإنشاد- لكن القلب صديع: الطالع لم يسعد. والرؤيا لم تصدق. هكذا عبرت عن متعة البصر وسأم الروح فى ختام قصيدة أخرى بعنوان (تذكار الأيام المائة):

عينىَ كم قرت، كم رويت
حتى ثملت من فرط الحسن
لكن أذنى ما استمعت
يوما إلا سئمت ملت

جاءت قصيدة (بيت ورياح) فى نسيج قصصى، فهى من وحى رحلة ساعات ليلية وقد حملت أنفاس تلك الساعات المكان وشذاه- حدائق ونهرا- ورجع دقات قلبى شاعرين التقيا على غير موعد. وتمازجت فى الأبيات النقائض التى تطبع الحياة الأمريكية والنظام المسيطر بخيوط عنكبوتية غير مرئية لافكاك منها، مظهر خلاب ولكن السم فى الدسم، الطبيعة الحانية وهذا النظام الأفعوانى المقيت: الظلمة والنور- حى الزنوج- الدستور والشرطة وقصر الحاكم- الغابات والبحيرات والعجلات الفارهة على الأسفلت اللامع- البوابات الذهبية والإنسان الآلة- السراة الناعمون وأهل الهموم من ضحاياهم:

وبدت فى المركبة العجفاء
أكثر منى غربة
أكثر تحديقا فى الآفاق
صوتا لا يأتى
يوما قد يأتى
عبر البوابات الذهبية
يقتحم القارات الخمس
يستحيى الإنسان الآلة

يطفئ جمرات الحزن الرابض فى الأضلاع
يسكت هما توقده أنفاس الليل الدافئة الرطبه
وعبير الورد الذائع فى (أوهايو)
وهيام العشاق على الجزر الممتده

لم تكن- كما قلت أنفا- قد وقعت الكارثة واستبيحت بقية فلسطين، ولكن القصيدة حدست المصير التعس، ورجعت الذاكرة التاريخية بى إلى محرر القدس صلاح الدين الأيوبى رمز الفارس العائد المخلص رغم أن عبد الناصر كان على قيد الحياة وكان من قبل فى بعض قصائد شعرى هو الرمز الأمل ولعل السبب هو ما عانيته وماعاينته من الفساد الداخلى ومن الاستبداد:

وقلاع بهرت عينى
سامت روحى الويل
ورياح من خلفى عصفت بى
من حيث أتيت
من مهد الجبارين المهزومين
يا أختاه
قصت شعر الفارس أيدى صهيون
جدلت أحبالا للأطفال الجوعى
بقرت أحشاء نساء كانت ترضع
أطفال العرب المقهورين
ويل للجبارين المهزومين
مات صلاح الدين
فليبعث ألف صلاح الدين
ليعود طريد للمجدل
يلمع فى جبهته وهج الشمس

وتضىء بعينيه الربوات

وتعود الرايات الخضر

أزهارا فوق الزيتون

ومناديل على البيارات

غير أن ذبالة المصباح المضيئة رغم الريح ظلت كامنة فى أعماق النفس إيمانا بحتمية الانتصار على الظلام فى نهاية المطاف، لأن التاريخ يتقدم فى محصلته العامة إلى الأمام ملتفا نهره حول الصخور والجنادل التى تعترض، وهى رمز أرباب الظلمات، ليشق مجراه. ومن ثم تتلامح فى خواتيم القصيدة ومضات الأمل:

سيدتى طال علينا فى (أوهايو) الليل

رفت أعلام الفجر

يا أختاه

ألقاك على خير

لقد كانت الخيوط الأولى للفجر قد بدأت تلوح فى نهاية السهرة فى بيت الشاعرة الزنجية، فضمنت كلمة (الفجر) فى هذا الختام المعنى البعيد المعنوى، وهو إشراقة ذلك الأمل، وعدم انطفاء ذباله المصباح رغم عصف الريح الرامز إلى أعداء الإنسان.



(٤٧)

صوت منار والأفق المستباح

أغارت اسرائيل على القاهرة فى ٩ يونيو ١٩٦٧، يوم الانتفاضة الشعبية حول عبد الناصر، كما ترددت الأقوال إلا أن الحكومة لم تعلن عن اجتياح إحدى طائرات العدو لسماء القاهرة. وقد استبعدت أن يكون الأمر مجرد شائعة لأن الإغارة تتفق مع السلوك المعروف ضمن سوابق إسرائيل. فلعلها أرادت أن ترصد حركة الجماهير، وما الذى سوف تتمخض عنه، أو أن تبث الذعر فى نفوس الحاكمين برئاسة جمال عبد الناصر، أو لتعبر عن شماتتها وتمعن فى سياسة الإذلال تشفيا من نظام مصر الثورى المتبنى قضية فلسطين والذى يقف حجر عثرة بل جدارا صلبا فى مواجهة أطماع إسرائيل التوسعية.

أظلمت السماء تك الليلة المستباحة الأفق، وفجأة بزغ بصيص من النور بل شعاع ينفذ فى أعماق الظلمة ليكفكف من غلواء الغزاة. فالشعب لم يمت وسوف ينهض قائده من عثرته بعد أن احتضنته الجموع رغم خطئة أو خطيئته حين ملك مقدرات الوطن للأفاكين عن وعى أو غير وعى لأن النتيجة احدة. لم تخذل مصر الكادحين ربان السفينة الغارقة وغفرت له

وظل مشهد القائمين ليلا حول بيت عبد الناصر يراود مخيلتى، ويقيلنى من عثرة الإحباط، كما ألحت على أيضا واقعة الغارة التى دنست أفق القاهرة وأشرت اليها فى قصيدة (أغنية إلى جمال عبد الناصر) بقولى: «تقطع الصفير والغضب». ولم تلبث أصداء هذا النعيب أن وردت إلى شعرى بعد يوم واحد أو يومين، فضمنتها قصيدتى (صوت منار) فى ١٢ يونية. وردت فى المطلع صورة من معقبات هذه الغارة، وهى صفارة الأمان المنطلقة بعد عودة الطائرة من حيث أتت. كما وردت فى ثنايا القصيدة فى صورة إطفاء الأنوار دلالة على بدء الخطر.

وقد أوحت بالمطلع ابنتى منار بأسئلتها الطفولية التى وقعت أو تخيلتها وكانت فى

الثالثة من العمر. أما الرؤية التى عبرت عنها القصيدة فهى مستلهمة من رحلة قامت بها زوجتى إلى غزة مع المدرسة التى كانت تعمل بها، وذلك قبيل العدوان الإسرائيلى، وحكاياها فى نبرات حزينة عن مشاهداتها وانطباعاتها عن الفلسطينيات أمهات وصبايا.

وقد رأيت بعينيها المأساة، إذ لم تتح لى ظروف عملى الشاق وأصفاده رحلة مماثلة وليس من رأى كمن سمع. وشاء القدر أن أشهد تلك المأساة الإنسانية بعينى بعد أعوام حين زرت بيروت مع وفد المحامين المصريين عام ١٩٧٠، وكتبت عن اللاجئين والمقاومة فى ديوان (عيون منار) الذى صدر فى العام التالى:

نامت على صفارة الأمان

تغمض عينيها على سؤال:

«أين حكاية المساء

من أطفأ الأنوار

ماما .. وأغضب السماء؟»

وتتداعى الصور والأحداث التى وقعت لى كرب أسرة صغيرة جنت عليها كارثة يونية مثل سائر الأسر المصرية وارتبطت حياتها ومصيرها بالزلزال الذى حدث فى جبهة القتال. كنت فى ذلك الحين ضابطا بمصلحة الأمن العام بوزارة الداخلية. وقد أعلنت حالة الطوارئ أو الحالة (ج) طبقا للمصطلح العسكرى فنحن نمضى معظم الوقت فى مكاتبنا ونبيت فى غرفها إلا فى فترات استثنائية يسمح لنا فيها أن نلم ببيوتنا ساعة أو بعض ساعة للاطمئنان على أحوال أبنائنا ثم نعود إلى مقار عملنا. وقد نغادرها إلى شوارع المدينة لمراقبة الأوضاع، وجس نبض الرأى العام ومنع المظاهرات بطبيعة الحال. واحتسابا لوقوع غارات جوية، طليت النوافذ باللون الأزرق، ذلك اللون السماوى والمائى البديع، ولكنه على النوافذ نذير شؤم، فهو كاب شديد العتمة (كالنيلة) التى تصبغ بها الريفيات وجوههن منذ عهد الفراعنة فى المناحات. كانت القاهرة حزينة كئيبة مثل وجوه نساء القرى كما لم أشاهدها من قبل، وأشباح النكبة تخيم فى كل مكان ولاعزاء.

وانبعثت فى خاطرى ذكريات شريكة العمر عن غزة، فمصيبتها كانت أنكى وأفدح، واختلط رنين صفارات الإنذار بصوت ناقوس القطار الذى كان يربط مصر بغزة قبل الاحتلال، هناك حيث بيارات البرتقال. أما صوت منار فكان بصيص الأمل:

وأنت فى النافذة الزرقاء
تنتظرين عودتى ومطلع النهار
وحدك .. والتذكار
يملأ سمعيك بناقوس القطار
يعود من غزه
يحمل عطر البرتقال
ولعبة إلى (منار)
ومفرشا للمائدة
بنات يافا اللاجئات
نسجنه .. «هل يعجبك؟
وقد دعت لى الأمهات ..»

○○○

لم تمض غير ساعةٍ
وانقطع النذير
تقطَّع الصفير من جديد
يَروع طفلتى
يسقط من أحضانها لعبتها
يخنق طيف بيتنا البعيد
يُسكت ناقوس القطار
ماذا أصاب اللاجئات ..؟
ماذا تقول الأمهات؟

○○○

وجه (منارٍ) صحونا

دقة قلبينا
كلمتنا التى اختفت
ضحكتنا التى انتهت
نجمتنا تنير عندما تطفأ الإضاءه
صوت (منار) فجرنا
عودتنا .. هتافنا معا
عبير أمهاتنا
بناتنا
أحلامنا بمولد الحديقه
والشمس .. والراية . والبراءه
تعود .. والحقيقه

كنت قد انتقلت مع أسرتى فى عام النكسة من حى شبرا الشعبى حيث ولدت ونشأت إلى مصر الجديدة، والضاحية الجميلة المونقة، ضربة حظ لم نكن حتى فى الخيال نحلم بها، وشرعنا نقيم بجهد شديد قواعد بيتنا الجديد على قطعة الأرض التى خصصتها لنا الجمعية التعاونية لبناء مساكن ضباط الشرطة، وقد حصلت على هذا التخصيص بعد عناء لايوصف وشكاوى ملحة مثل شكوى الفلاح الفرعونى الفصيح حتى أذعن المتسلطون، لم تكن لى «واسطة» حتى أحصل على بيت كامل البناء «تسليم مفتاح» مثل الزملاء المحظوظين، قيل لى: احمد الله على تلك المساحة من الأرض وعليك بناؤها بجهدك الذاتى، وماعلينا إلا مدك بمبلغ من «السلفة» يتجدد كلما انجزت شيئا من المبنى لنضمن أنه أنفق فيما خصص له.

كانت المساحة التى سميت (تقسيم مساكن ضباط الشرطة) منطقة مخصصة لبناء «فيلات» لا عمائر، فاشتعل حلمنا أن يكون لنا حديقة يجرى فيها الماء والخضرة وتعوضنا عن حلمى القديم المستحيل أن أسكن على النيل لتكتحل عيناى برؤيته منسابا تنعكس عليه زرقة السماء كل صباح ومساء، هذا النهر العظيم الذى لم يستوحه شعراؤنا إلا نادرا مثل قصيدة (النهر الخالد) لمحود حسن إسماعيل التى غناها عبد الوهاب ومن قبله البارودى وشوقى فى إحدى كلاسيكياته المشهورة، ولم

يكتب عنه حافظ ابراهيم الذى أطلق عليه اسم شاعر النيل غير بيت واحد مع أنه ولد فى «ذهبية» عليه وعاش طوال عمره فى مصر. فى حين استوحى الشعراء السوريون نهير بردى، وهو لايزيد عن ترعة مصرية، كثيرا من قصائدهم، وأبدع شعراء فرنسا أجمل الأشعار من وحى نهر السين، وهو لا يطاول النيل قامة ولا عراقة، مما دعانى إلى المقارنة حين رأيته أول مرة بعد ذلك بزمن طويل، ولولا عملى بالجزائر منذ أواخر سنة ١٩٧٧ حتى ١٩٨٨، لما قدرت لى هذه الرؤية ولا القصيدة الوحيدة التى كتبتها من وحيه وهى (أغنية شجية على السين) فى ٢ سبتمبر ١٩٨١، وإن لم يكن السين أكثر من عامل مثير للنيل والوطن حنينا إليهما وحزنا على ما آلا إليه.

أثار هذا الارتداد بالذاكرة إلى الخلف أو إلى الأمام بالحديث عن الحلم بحديقة فى الدار الموعودة، البيت الثالث قبل الأخير من قصيدة (صوت منار) وهو (أحلامنا بمولد الحديقة) وإن كانت كلمة الحديقة قد وردت على سبيل الكناية، فالمعنى الثانى البعيد والمقصود هو الغد الجديد المأمول بزوغ شمسه من أغوار الظلمات، وهو «الحقيقة» وإن لم تتحقق بعد. ولكنها يقين الوعى يقابل واقع الهزيمة الذى هو فى الوعى أسطورة مأساوية مقضى عليها حتما بالموت لأنها إحدى العوارض المؤقتة. أما المعنى القريب فهو حلمى وأسرتى الصغيرة أن نبتنى بيتا تحيط به حديقة نزرع فيها الورد والنور والأمل.



(٤٨)

في الوداع الأخير لعبد الناصر

وقفة الشعب فى ٩ و١٠ يونية ١٩٦٧ مع جمال عبد الناصر أعادته حيا بعد موته معنويا، بل التفت حوله أيضا الشعوب العربيه كلها، كأنما تقدم الروح فداء له، لإدراكها أن فى انكساره وهو القائد انكسارها وفى قيامته قيامها، أو كأنها رفضت أن يموت الحلم الذى عاشت عليه والمشروع الوطنى القومى الذى كان منارا لها.

تحدت الجموع الشعبية الولايات المتحدة وربيتها وقاعدتها الأمامية إسرائيل وأعلنت المواجهة والتصدى. فلم تتقوقع على نفسها لتلقى المزيد من الضربات القاتلة بل استجابت للشعار الذى رفعه عبد الناصر بالعمل على إزالة آثار العدوان. ولم يكد يدعو إلى مؤتمر قمة عربية حتى لبت النداء، وانعقد المؤتمر التاريخى فى الخرطوم، لم يتخلف عنه أحد، وعرضت مصر خطة الإنقاذ.

وعلى الرغم من أن بيان ٣٠ مارس ٦٨ لم ينفذ فيما يتعلق بالديمقراطية، والقضاء على الفساد، ومحاكمة قادة الجيش المسئوين عن الهزيمة المروعة، وكشف الأسرار التى حجبت طويلا عن الشعب، مما أدى إلى مظاهرات الطلبة للمطالبة بالمحاكمة، وما اقترن بهذه الأحداث من الخلاف مع منظمة التحرير الفلسطينية، وإغلاق قناة الإذاعة الفلسطينية فى القاهرة، وكان الخلاف بسبب قبول عبد الناصر مبادرة روجرز، مما يعنى بداية التنازلات لما تتضمنه هذه المبادرة من اعتراف بإسرائيل، وذلك على الرغم من أن الزعيم العربى قد عمد إليه كتكتيك سياسى مرحلى لا إجراء استراتيجيا، إذ قصد منه التقاط الأنفاس. وقد صرح ياسر عرفات رئيس المنظمة بعد ذلك بأن عبد الناصر قال له ما معناه: إنى أمثل دولة فلم يكن أمامى غير ذلك، ولكنكم أنتم الفلسطينيين غير ملتزمين بالاعتراف.

هددت تلك الأحداث وما اكتنفها من بلبلة فى الرأى العام الوحدة الوطنية التى

تتسم بها مصر اكثر من اى بلد عربى آخر، وبفضلها كان الأمل دائما كبيرا فى تخطى الأزمات. وزاد الطين بلة الشائعات التى استشرت كالشرار فى شأن الآمر بالانسحاب المشين الذى كان قتلاه اكثر عددا ممن كانوا سيقتلون لو استمرت الحرب: هل هو القائد الأعلى للقوات المسلحة أى عبد الناصر، أو هو القائد العام وهو عبد الحكيم عامر؟ وكانت المخابرات بأمر من السلطة الحاكمة تمارس نشاطها السرى لمعرفة أصحاب الرأى الأول تمهيدا بالطبع لمراقبتهم أو اعتقالهم، ولاسيما أن عامر وشيعته قد اعتصموا ببيته فى الجيزة للحيلولة بالقوة دون المساس به.

لقد نلت نصيبى من التعسف والاستجواب مرة فى ندوة سياسية نظمها الاتحاد الأشتراكى فرع العباسية، ودعيت إليها حيث ألقيت قصيدة عن فلسطين، إذ أثير فى هذه الندوة بعد انصرافى موضوع مبادرة روجرز، ولكن انصرافى هذا مبكرا لم يعفنى من المساءلة واتهامى بالشيوعية، والمرة الثانية كانت مطالبتى بالإدلاء بمعلوماتى عمن تحدث فى صف زمرة عبد الحكيم عامر وتبرئته من الأمر بالانسحاب، وذلك فى اجتماع عادى بين زملاء العمل بإدارة المباحث الجنائية بالوزارة فى أعقاب النكسة مباشرة.

غير أن اشتعال حرب الاستنزاف كان عملا بطوليا بكل المقاييس، قضى على البلبلة وهواجس الخوف من المصير المجهول وأخرس ألسنة أعداء عبد الناصر، هذا النجم الذى هوى إلى الأبد فى نظرهم، فظل الطاووس الأسود المعصوب العين موشى ديان، بعد اجتياح الأرض المصرية سيناء التى تبلغ مساحتها ثلث مساحة مصر، قابعا فى مأمنه غير بعيد من الشط الشرقى للقناة ينتظر المكالمة الموعودة من عدوه اللدود جمال عبد الناصر، والطريق مفتوح من القناة إلى القاهرة، والجيش الثانى محاصر فى سيناء، وبيجن رئيس عصابة أراجون يتجول ممراحا فى أرض الفيروز المحتلة ليتفقد جيشه الذى لايقهر فى زعمه وليكيد لمصر. ولكن هذه المكالمة التى تعنى الرد على ديان بالإذعان لم تتم أبدا، فقد كان فتى بنى مر المحرر فى صلابة الجرانيت الذى بنى منه أجداده الفراعنة الأهرام، قد زاده التفاف الجماهير المصرية العربية حوله عنادا وإصرارا، بل أنفة شمخا كعهد مصر العرب والعالم به.

لقد بذل مع رجاله وعمال مصر جهدا مستميتا لإعادة بناء الجيش بادئا من

الصفر، هذا الجيش الذى تناثر على رمال سيناء أشلاء مثل أشلاء التى جمعتها إيزيس فى الأسطورة الفرعونية. وبهذا الجهد الخارق استعاد أبناء النيل الثقة وروح الانتماء إلى بلدهم، كما استعادوا الحلم الذى تبدد، واستيقظ الوعى الذى همد.

حرب الاستنزاف التى خطط لها عبد الناصر أقامت برهانا جديدا على قدرة مصر على إبداع المستحيل إذا أوتيت قيادة وطنية قوية. فبالرغم من الجرح الغائر الذى أصاب الروح الوطنى والضمير القومى، استطاعت مصر أن تعود وتقف على قدميها، وتثبت أن الاعتماد على النفس خير معبر عن معدنها الأصيل.

كتبت فى مرحلة حرب الاستنزاف رغم بعدى عن جبهة القتال عديدا من القصائد ولاسيما مرثيات الشهداء من جنود أو مدنيين، أهمها (أطفال بحر البقر)، وهم تلاميذ مدرسة بحر البقر الابتدائية بمحافظة الشرقية، وقد لقوا مصرعهم فى غارة إسرائيلية يوم ٨ ابريل ١٩٦٩:

«أحمد» كان يغنى كالعصفور الأخضر
يمشى مختالا فى ردهات «الفصل»
ويسر «لزينب» : خطك أجمل
ستكونين مدرسة فى «مصر»
وسأغدو طيارا فى الجبهة
«أحمد» لما أطلق أول صرخه
لم ينس رفيقته فى الصف الأول
وجدوه يحتضن ضفائرها
بذراعى طيار فى السابعة من العمر
سقط الطيار وماتت «زينب»

ومن وحى الشهيد (فاروق نجم) بطل معركة تدمير الصواريخ فى سيناء يوم ٢٦ اكتوبر ١٩٦٨ كتبت قصيدة (لحن من سيناء) :

النجم الجواب الثاقب
لم يقطع مسراه
إنى أعرفهُ

يرنو بعيون نبى
يبسم عن ثغر شهيد
يهبط غوثا للعانى فى قريتنا
وشهابا يرجم إفك مدينتنا
وجناحا لغريب وطريد

والقصيدة تحريض على المقاومة أكثر منها مرثية للشهداء. وهى تنتهى بنداءات لهيفة لغزة والضفة وسيناء والجولان وقد امتزجت معا، وبصرخة اللعنة على رؤوس المتخاذلين وعلى العالم كله الذى خذل فلسطين:

ياقدس الإسراء وياسر الأبدية
ياشاهدة العصر المقتول القاتل
اللعنة فوق جبين البشريه
اللعنة فوق رؤوس الفرسان المقهورين
إن لم يهو فداك العشاق
عشاق الحرية
مليون شهيد «نجم» حتى النصر

وفجأة تحدثت عن عبد الناصر فى شعرى بعد أن كففت عن ذكره طويلا، ولم أتحدث عنه باسمه بهذه الصفة التى وسمته بها فى أول قصيدة عنه وهى (فارس الأمل). جاء ذلك فى قصيدة (الكنز) على إثر رؤيتى صورة كبيرة مرسومة له فى أقصى وأعجب مكان يمكن أن توجد فيه هذه الصورة، وهى ربوة عالية فى جبال لبنان التى تطل على بيروت من ناحية شارع الكورنيش وعلى البحر الأبيض من ناحية أخرى. هنالك وياللمفاجأة كانت اللوحة مسنودة على جدار يُسور بيتا صغيرا لصياد من غمار اللبنانيين المجهولين أتيح لى أن أراه مع صديقى المرحوم المقدم مصطفى الجعفرى وصديق لبنانى له، وكنت قد رجوته أن يرتب لى مقابلة مع أناس عاديين من صميم الشعب.

حين لمست اللوحة متأملا وصاحب الدار يهيئ لنا طعاما وشرابا فى الداخل، خرج علينا كأنه شبح من العصور الوسطى، ولحنى فسدد إلىّ نظرة شزراء منذرة،

فتراجعت خارجا من دهشتى مخافة إغضابه لهتكى ستار شئ مقدس لديه، وأدركت مدى تغلغل حب عبد الناصر فى قلوب العرب وخاصة الطبقة الفقيرة المسحوقة، فقد كان الرجل يصطاد السمك رزق يوم بيوم وقد ذكرت هذه الاقعة ن قبل.

وودع عبد الناصر الحياة والشعب، ولم يبق منه إلا صفحات خالدة فى التاريخ إشراقتها أكثر من عتمتها بشهادة الشعب بل بشهادة الشانئين. (وخير الفضل ماشهدت به الأعداء). لقد عانيت مثل كثيرين من المثقفين فى عهده من تشريد ومن مراقبة العيون فى غدوى ورواحى. ولكنه قام بثورة فى منعطف تاريخى مشهود، ولم تكن انقلابا عسكريا كما يزعم بعض خصومها، فإذا كانت قد قامت على أكتاف مجموعة من الضباط أطلقوا على أنفسهم اسم الضباط الأحرار، فلقد كانوا يعبرون عن سخط الجماهير العريضة ورغبتها فى التغيير كما عبروا عن آلام وآمال الشعوب العربية كلها، وعن تطلع العالم الثالث إلى كسر الأغلال التى قيده بها الاستعمار، ومن ثم احتضنت مصر الشعب وسائر الشعوب ثورة يولية، ووصفت بحق بأنها مجيدة وأنها ثورة بيضاء، ثورة الفقراء المستضعفين والطبقة المتوسطة الصغيرة.

ولو صح أنها انقلاب، لوصمنا بذلك ثورة أحمد عرابى أيضا ولم تبق إلا ثورة سنة ١٩١٩ التى قادها الزعيم سعد زغلول، كأنما مصر لا تلد إلا مرة كل قرن وهى التى (تلد الثائر فى أعقاب ثائر)، ويتبين ذلك إذا لاحظنا أن الجيش المصرى جيش وطنى خرج كثير من أبنائه من صميم الفئات الشعبية منذ أواخر عصر الملكية، وليس مثل «دويلات الموز» فى أمريكا اللاتينية أو الحظيرة الخلفية للولايات المتحدة، وإيران فى عهد الشاه، فالجنود هناك مدربون فى المعاهد والقواعد العسكرية فى واشنطن وغيرها من المدن على استخدام وسائل القمع الوحشية لحماية العروش وكبار الملاك بدعوى أن المتظاهرين والمتذمرين من العمال والطلاب والمثقفين شيوعيون عملاء للاتحاد السوفيتى، فسحقهم هو الجزاء العادل. ولقد رأيت كيف يحول ضباط الشرطة فى أمريكا اللاتينية إلى كلاب حراسة للسلطة ومن يحركها فى بلدانهم، وسوط عذاب على الفقراء المطالبين بالعدالة الاجتماعية والمثقفين

المدافعين عن حقوق الإنسان. فالاغتيال بواسطة فرق الموت وحمامات الدم فى الشوارع إذا اندلعت المظاهرات (روتين) عادى للنظم الدكتاتورية فى أمريكا اللاتينية مثل نظام (بينوشيه) البائد.

مضى عبد الناصر فجأة فى ٢٨ سبتمبر ١٩٧٠ وهو يودع فى مطار القاهرة أمير الكويت فى مناسبة انعقاد مؤتمر القمة لمحاولة حقن دماء الفدائيين الفلسطينين وذبح آلاف المدنيين منهم فى عمان بعد احتدام الاختلاف بين منظمة التحرير وبين نظام الملك حسين (أيلول الأسود). مضى الرجل شهيدا لفلسطين التى أفنى عمره فى الدفاع عنها، وقاد الحروب العادلة المشروعة ضد إسرائيل لانتزاع حقوق الشعب الفلسطينى منها.

انتابنى مثل الملايين الذهول، كما انتابنى يوم الهزيمة، وتلقيت النبأ بين مصدق ومكذب حتى أيقنت بوقوع الفاجعة حين سمعت النعى من محطة الإذاعة المصرية. ولم يخفف من حزنى إلا كتابتى مرثية بعنوان (موت البطل- أغنية حزينه إلى عبد الناصر). لم أشهد موكب الجنازة المهيب، إذ كنت فى عملى بوزارة الداخلية لا أبرح إلا بأمر. ولكنى شهدت صورته بالتليفزيون الذى كان أحد الزملاء قد أحضره من بيته إلى المكتب. يالله، إن الكلمات تقصر عن التعبير. إنه حدث فوق طاقه الاحتمال البشرى حتى أن بعض الفتيات قد انتحرن كما نما إلينا، وكما نشرت الصحف، والأجانب أيضا. أعداء وأصدقاء هزهم النبأ. وتلك قوة الشعوب التى يستعصى قهرها على الجبابرة المسلطة عليها. لقد خرجت عشرات وربما مئات الآلاف من بيوتها ومقار عملها لتشييع جنازة عبد الناصر وإلقاء نظرة الوداع الأخيرة على جثمانة. عاد إلى قلوبها الفزع من المستقبل بعد غياب البطل، نفس الإحساس الذى خامرها يومى ٩ و١٠ يونية بل أشد، لأن القائد القادر على جمع الشمل المتفرق قد رحل إلى غير رجعة:

دقت الساعة تنعى السادسه
والرياح انفجرت .. والطرقات

حوصرت .. مازلت تبكى؟
لم تبكى؟ قلب مصر لا يدق؟
خمدت كل البروق
والأساطير كأوراق الشفق
تتهاوى ثم ترتد حرائق
وحقائق

وتعاودنى مرة أخرى الميثولوجيا الفرعونية، فأستقى معينها من الثُر، ما يعيننى على تصوير الحدث الفاجع. فالبطل الراحل كانت له سمات المصرى الصلب القديم، وجنازته مثل موكب توديع قادة مصر فى الزمن الموغل فى القدم كما وصفتها صحف الغرب. ولذلك عاد رمز الصقر حورس، وذلك فى نهايات القصيدة وقبله أوزيريس وإيزيس:

عاد أوزيريس ميْتا
عاد أشلاء على كل طريق
آه إيزيس التى لم تنتحب
منذ ملايين السنين
ونراك اليوم تبكين بدمع الفقراء
وتشقين جلود التعساء

انقض العالم كله فلا مكان ولا زمان، والسماء أوشكت أن تطبق على الأرض من هول الزحام الذى طوق موكب الجنازة حتى رأى شعراوى جمعه وزير الداخلية حينئذ أن ينقل الجثمان فى طائرة عسكرية مروحية اتقاء لآلاف الأيدى التى تدافعت للثمه، فكاد الغطاء الذى يعلوه أن يتمزق. وعاد الشاعر الشعبى الذى يسكننى إلى ربابته يغنى مواويل بكائيه:

ومغنيك الحزين
يسكب الآه على كل وتر

ويضم الضفتين
ضمة واحدة تمتد من غور الزمن
وتشق الأفق .. تجتاح المجره
وعلى الأرض السرة
جسمها يهوى إلى الماضى
وأنقاض ملاحم
خلّفتها لك أبناء السبيل
ودروب المستحيل

ويتحول النص الشعرى إلى خطاب إيزيس لعلها تبعث فتحقق معجزة لملمة الأشلاء من جديد، جسد عبد الناصر المسجى تحت علم الوطن الذى كم ذاب فيه عشقا، وكم دافع عن تاريخة وعن كرامة أهله صناع الحضارة. وهاهو يوارى فى ترابه بعد أن أدى رسالته، وجنحت شمسه إلى الغرب حيث مدينة الموتى كما جاء فى التاريخ الفرعونى:

آه إيزيس التى لم تنتحب
منذ ملايين السنين
دقت الساعه تنعى السادسه
والنجوم انتثرت ملء الشوارع
قلب مصرٍ أخضراً مازالَ
أم أصبح قرصا يحترق
ورمادا غاص فى الأرض ووراه الشفق؟
آه إيزيس التى تخفق ماء وترابا ودما
أقفر الوادى .. ومازالت هناك
حية تسعى .. ولا راد لأمرك
فاسمعينا كلما دق نعيب السادسه

واقتلينا مرة أخرى .. لنحيا
واسمعى صرخة أبواق الأناشيد
لترتد الجدد
حية تغزو الشرابين وتمضى من جديد
ترسم الصقر على هام المعابد
تلد الصقر بأكواخ النواعير العتيقه
وشبابيك المساجد
وتدوى من بعيد

شهادة للقادمين بعدنا

هل يكفى أن تكون من شهود مرحلة زمنية معينة لكى تقف أمام محكمة التاريخ مدليا بشهادتك أمام الله والشعب والوطن؟

حتى القضاء المتوج بهالة العدالة المعصوبة العينين ورمز الميزان المتعادل الكفتين قد لايسلم من الخطأ المؤدى إلى نقيض ما وجد لتحقيقه وهو العدل بين الناس، فيبرئ مذنبا أو يدين مجنيا عليه، فما بال البشر من عامة أو صفوة، من مثقفين أو أنصاف مثقفين أو أميين، من مرضى العقول والنفوس أو من أصحاء نسبيا.

هكذا تختلف الآراء والأحكام فى عبد الناصر، اختلفت من قبل وسوف تختلف دائما فى تقييم القادة والسياسيين وسائر من تركوا بصماتهم على تاريخ مجتمعاتهم أو المجتمع البشرى كله، بدأ من الأنبياء والمصلحين والعلماء والفنانين، وانتهاء بالمغامرين فى كل ميدان ممن تطلق عليهم زورا ألقاب البطولة أو الامتياز والعبقرية.

ويبلغ الاختلاف فى الحكم على قائد ثورة ٢٣ يولية مبلغا لايكاد يوجد نظيره فى تاريخ الشعوب إلا فيما ندر. أو ليس من قبيل الشذوذ الذى يرفضه المنطق السوى أن يكون معاصرو عبد الناصر من المثقفين ومن المشتغلين بشئون الحكم والسياسة بل من المؤرخين انفسهم على طرفى نقيض. ويا أيها التاريخ كم من جرائم ترتكب باسمك!!

فحزب الوفد يتطرف فيخلع كل مزية إيجابية عن الرجل الذى غير مسار مصر، وكان أول حاكم من صلبها بعد اللواء محمد نجيب الذى لم تطل فترة رئاسته للجمهورية، ويلصق به كل منقصة، وكأن وجود عبد الناصر حيا أو ميتا نفى لوجود الوفد. والناصريون يمجدونه حتى يكاد يؤلهه بعضهم أو يعتبره نبيا لانبى بعده إلى آخر الزمان.

وثمة شاعر عربى مشهور وهو نزار قبانى يهجوه أبشع الهجاء مرة، ويمتدحه مرة أخرى. وأعرف ناقدا أصدر عنه كتابين أحدهما يرتفع به إلى عليين والآخر يخفضه إلى الدرك الأسفل، مع أن عبد الناصر هو عبد الناصر فى جميع الحالات، وهو بشر غير معصوم.

والمشكلة لا تكمن فى شخصية عبد الناصر ودوره التاريخى إيجابا أو سلبا، ولكنها فى الحقيقة ازدواجية المثقفين التى يعبر عنها شاعر قديم بقوله:

وعين الرضا عن كل عيب كليلة

ولكن عين السخط تبدى المساويا

وإلا فكيف يرى قوم أن التاريخ قد وقف عند ثورة سنة ١٩١٩، وأنه لاشعار فى الماضى والحاضر والمستقبل إلا (الحق فوق القوة والأمة فوق الحكومة)، ويذهب آخرون إلى أن التاريخ لم يبدأ إلا يوم ٢٣ يولية ١٩٥٢ وقد توقف بعده، وأن الشعار الحق الخالد الذى لاشعار قبله ولا بعده هو (ارفع رأسك يا أخى فقد مضى زمن الاستعمار).

من البديهى أن كلا الشعارين صحيح، ولكن كلا منهما مرتبط بمرحلة، وهما متكاملان لا يمحو أحدهما الآخر. ولكنها النظرة التجزيئية أو الانتقائية وعمى الألوان، أو الجمود العقائدى والتحجر الفكرى بسبب نقص الوعى، أو الهوى وإيثار المصلحة الخاصة، وصدق المثل العربى (آفة الرأى الهوى)، وهو داء ابتلى به محترفو السياسة أو أدعياؤها من شذاذ الآفاق وأعداء الحقيقة وكهان الإفك والضلالات.

والعجيب أن هؤلاء الساسة أو الحزبيين لايتعظون بالزلزال الذى تفجر ومازال يتفجر فى أوربا، إذ تكاد عجلة المتغيرات أن تودى بالبقية الباقية من مذهب الدعالة الاجتماعية الذى لم تجن بعض الشعوب قليلا من ثمراته إلا بعد مسيرة عانية استغرقت آلاف السنين من تاريخ البشرية، وتوطئ الطريق لدولة واحدة تستغل قوتها وجبروتها فى سحق إرادة الشعوب، ولم يكن هذا التحول إلا بسبب سياسة القهر والتسلط الطاغى والتعصب المذهبى دون أن تؤخذ حقوق الإنسان فى الاعتبار، وكأنه لاسبيل إلى العدالة إلا بإهدار الحرية الفردية والجماعية، تلك الحرية التى فطر عليها الإنسان وقال فيها شوقى :

يسكن الوحش للوثوب من الأسر فكيف الخلائق العقلاء ؟

إن المبالغة فى تخليد بطولة عبد الناصر إلى حد التقديس الذى ينفى عنه كل شائبة أهون من وصمه ظلما بالعمالة والخيانة والجناية على مصر بل العالم العربى. ولم يقف الذين حاكموه بعد غيابه ليسألوا أنفسهم يوما: من أنتم حتى تحاكموه؟. ولم يتذكروا قول المسيح عليه السلام: (من كان منكم بلا خطيئة فليرمها بحجر). ولكن الأحجار تلقى جزافا على عبد الناصر حتى تكاد تصيب جثته. وتنهال الكتب والصحف التى ترجمه، ويدافع عنه طلاب الحقيقه أو مريدوه، فيختلط الأمر على الشباب الذين لم يدركوا ثورة ١٩٥٢، ويضحك الأعداء بعد أن خلا لهم الجو بإحباط شبابنا وهم عدّتنا فى الحاضر والغد.

لم يتذكر هؤلاء أن ثورة عبد الناصر لم تعدم إلا عددا لا يتجاوز أصابع اليدين، فى حين قتل الآلاف بل عشرات ومئات الآلات فى مثل هذه الثورة التى حررت شعبا وأيقظت أمة. ولو كانت الضمائر هى المُحكّمة لاستفتى هؤلاء الشعب - وهو صاحب الأمر كله - إذن لعرفوا أن هذا الشعب العريق، الواعى بالفطرة والخبرة والتحضر يرى فى عبد الناصر ما يراه فى عرابى وسعد زغلول ومصطفى كامل ومحمد فريد.

إنهم يتشدقون باسم الشعب، ولكنهم يناقضونه فى الموقف والممارسة، لأنهم لم يعانوا ما كابده من أهوال الاستعباد آلاف السنين، وربما كانت القضية التى أرقتهم حينا هى قضية الدستور والحرية السياسية وإجراءات التأميم والمصادرة التى أضيروا بسببها، ولكنهم لم يقاسوا يوما عناء الذلة والمسكنة بسبب الحاجة إلى رغيف الخبز ورداء يستر البدن العليل وكوب ماء غير ملوث، وكأس حليب لأطفالهم الجوعى المرضى الحفاة. وهم لم يربطوا يوما بين الحرية السياسية وبين العدل الاجتماعى والإنسانى. فما معنى هذه الحرية لمن يفتقد الحد الأدنى من المعيشة ولا يتساوى مع الحيوان فى ضرورات الحياة؟

لهذه الأسباب كانت الفرحة العارمة لجيلى- جيل الأربعينات والخمسينات- بانطلاق ثورة عبد الناصر، وادراكنا منذ الوهلة الأولى أنها ثورة تغيير بالمعنى الكامل، ثورة شعب لا انقلاب عسكر. وقد اكتسبت وعيى من واقع التجربة

والمعايشة من قبل نضجي السياسي. وكان انصرافي عن متابعة الدراسة بكلية الآداب- إذ أمضيت فيها عاما واحدا (١٩٤٣)- إلى كلية الحقوق لأكسب أداة علمية قانونية لعلى أستطيع بها أن أشارك فى الدفاع عن حقوق المستضعفين، ولاسيما أننى من أصلاب الفلاحين والعمال الفقراء بحكم نشأتى القاهرية فى أسرة رقيقة الحال تمتد جذورها إلى الصعيد (المنيا) لم تجد غير العلم جدارا تستند إليه ليحميها من الحرمان ومن قسوة الأيدى والأقدام الظالمة.

فتحت عينى على مجتمع مغلق سكونى مكرس للطبقية، موطد على نظام هرمى لا مجال فيه للتغيير إلا بالنسف، طبقات فى قمته متساندة: الملكية الفاسدة والإقطاع وصنائعهما من المتمصرين والأجانب من بقايا نظام الامتيازات، ينيخون بكلكلهم على أصحاب البلد الحقيقين العناة .. طبقات خاملة عاطلة تعيش على كد أبناء الأرض الكادحين بالعرق والدم.

فضائح الملكة نازلى ومباذل فاروق ونفاق أشباه الرجال من الحاشية الذين أطلقوا عليه ألقاب المليك المفدى والكشاف الأول وحامى الحمى، وبعض رجال الدين الذين نسبوه افتراء إلى البيت النبوى، والمآدب الخرافية التى تمتلئ بصورها الصحف والمجلات مع أخبار (الطبقة الراقية) وفى المقابل الباعة السريحة (المتجولون)، فى أسمالهم البالية يتجولون فى الطرقات، والصبية ماسحو الأحذية يقعون تحت الأقدام نظير مليم، ويتدفأ بعضهم بلحم بعض على الأرصفة فى زمهرير ليالى الشتاء مع المتسولين والمشردين وتجار الرقيق الأبيض.

إنه قاع الأحياء الشعبية بالمدينة الخراب يرقد تحت أقدام السراة فى القصور، والطابع الأجنبى فى وسط البلد: متاجر شيكوريل، عدس، سمعان صيدناوى، تتوهج بالذهب البراق لمجتمع النصف فى المائة كما سمته الثورة حين اندلعت نيرانها لتعصف بالسادة المترفين.

فجرت هذه النقائض ينابيع شعرى، فكتبت من وحيها بعد الثورة (١٩٥٧) قصائد (الشيخ والقيثار)، و(شوارع المدينة)، و(قطرة حب)، كتبتها أو كتبت هذه القصائد نفسها ـ كما قال عنها الناقد الأستاذ مصطفى عبد اللطيف السحرتى-

بالدموع والدم والغضب. والأرض كانت عطشى لاستقبال مواجدنا وتمردنا وصرخاتنا المكتومة الملتاعة، وإيماننا بقوة الشعوب، وحقها فى تقرير مصيرها والأمل فى الغد.

وتمر مياه كثيرة تحت الجسور، وتختلف بى الطرق، ولكن القبضة تشتد على الجمر، ويتألق الوطن ثم يخبو، وفى ذكرى ثورة يوليو أجدنى فى بورسعيد مرة أخرى يوم ٢٦ يولية ١٩٧٦، فتجتاحنى عاصفة من الشجى تكاد تقتلع القلب، إذ تكون زهرة الشموخ القومى قد انحدرت إلى الذبول بعد ازدهار شمس العبور العظيم، ويلهمنى وميض الرماد (ثلاث قصائد من بورسعيد) أولها: (الدليل) ومطلعها:

تسيل البواخر فوق مياة القناة
طيورا أبابيل
.. نتبعها بالعيون التى غادرت نهرها
.. باحثات عن السر خلف عيون القناة
وعن ألق ضاع منها وكنا على النهر نبنى
وكان النهار بوارج مشحونة بالضياء
وليل المحبين فجرا طويلا

ومقطع الختام:

وكان الدليل يضل فتدفعه أغنيات المحبين
حتى يثوب إلى دربها وتسيل الدماء
لتنجو وتخضر كل القرى
.. أيها الحالمون بحثنا عن السر لم نلقهُ
فحفرنا القناه
وشدنا جسورا من النار تحت المياه التى أغرقتنا
فأخرجنا الموج

.. ويل المدائن قد غادرت نهرها فى الجنوب القرى
.. أيها الحالمون .. وكان هتاف الضحايا دليلا

ولا تفارق ذاكرتى الأيام العشرة المجيدة لبورسعيد، فهى كامنة فى الوعى، مشتعلة دائما فى الوجدان، مضيئة سواد الليالى الوطنية الحالكة أتشبث بها كسفينة نوح كلما اقترب الطوفان، ثقة بقدرات الشعب التى لا حدود لها على تجاوز المحن، وعبقريته فى إنجاب قيادة مؤمنة بهذه القدرات، تستخفى فى أحشائه حتى يحين أوان المخاض فيتمرد السجين ويسقط السجان، بعد أن تروى الأرض دماء الشهداء قرابين للحرية. خطاب الحبيبة فى القصيدة الثانية (العابرون) هو خطاب هذا الوطن الخالد المعطاء، خطاب مصر ممثلة فى بورسعيد:

لأنك حين صحونا وجدنا ذراعيك رغم الكلال
تحوطان أزهرنا الباقية
ورغم ليالى الفراق الطويلة أقبلت تمشين فوق المياه
تشدين أيدينا الهاويه
وما كان فى الأفق إلا صباح محبيكِ
... عند اشتعال الفنار
وأضواء أيامك الماضيه
وحين تبوأت عرشك كانت ظلال المطاراتِ
... فى الغرب تنأى
وترتد فى الضفة الثانية
ووجهك كان يحن إلى الضوءِ
... يوم اختراق الأساطيرِ
.. فى مقلتى دمعة ماتزال
وقلبى يمد يديه إلى العابرين الذين استراحوا
ونمنا .. وأغرقنا كل هذا العباب

ولايقوى صخب الحركة الملاحية والتجارية فى ميناء بورسعيد على إطفاء وهج ذكريات البطولة الكامنة فى الحنايا يثيرها تاريخ الثورة المتجدد صيف كل عام، فلا

أكاد أستروح نسمات البحر فى شرفات المدينة التى امتزج تاريخها بتاريخ مصر الحديث منذ عرابى فى انتصاره وانكساره إلى اليوم حتى تتداعى القوافى والحروف رؤى ثائرة على الأحداث المأساوية وماتورثه من يأس وإحباط محركة أشرعة الأمل طالما تشرق الشمس بالحياة وللحياة كل صباح.

تنبثق كالشعاعات الفجرية– كلما سارت بى الخطا فى طريق «مطار الجميل على شاطئ بورسعيد» أطياف الملحمة التى سجلها الفدائيون بدمائهم وهم يردون فلول المستعمرين والصهيونيين سنة ١٩٥٦، ويمتد بى بصر الذاكرة إلى بحيرة المنزلة فى الشمال الشرقى لدلتا حين كانت مسرحا لهذه التضحيات فأغمغم بقصيدتى (الشواطئ) من تك الثلاثية الشعرية:

بكى القلب لما تراءى «مطار الجميل»
وطوّف أطفالنا حول أسواره الكابيه
تسائلنى عن ركود الظلال «منار»
وعن لهفتى ... عن غيوم تخيم فوق المكان
وأين «البحيرة» إن الشواطئ تمضى
كأن عيونا عليها تنادى حزانى علينا
لقد كان فينا الفدائىّ يوما
يفجرّها بالحياة والموت
... إن الشواطى تنأى علينا

مُحَفِّزات للعزف على وتر الشموخ الوطنى وبطولة عبد الناصر

إذا كانت مقاومة العدوان الثلاثى قد نفخت فى روح الشعر العربى فى مصر خاصة، فتحول من شعر العاطفة الرومانسية الحالمة والتغنى بعيون الحبيبة وجدائل شعرها والحلم السابح فى مفاتن الطبيعة ممتزجة بالمرأة المشتهاة، إلى الارتباط بقضية الثورة على الاستعمار والانغمار فى تيار الجماهير التى حررتها الثورة من البؤس والمهانة، فقد كان هذا التحول مفترق الطريق لشعرى.

واصبح رمز حورس محرر الوادى من الهكسوس متجسدا فى شخصية عبد الناصر، سواء فى قصائدى (من وحى بورسعيد) أو ما كتبته بعدها من وحى السد العالى فى أوائل الستينات.

لقد أتيح لى أن أشهد هذه المعجزة عدة مرات بدءا من عمليات الحفر الأولى وتحويل مجرى النهر حتى ارتفع الصرح شامخا سامقا يطاول هامة الهرم الأكبر، شاهدا على الإرادة الصلبة للشعب حين يحدد هدفا ويؤمن به ويثق بقيادته. ومن ثم وجدت بين يدىّ قصيدة (أغنية للسد العالى) كتبتها على إثر إحدى رحلاتى إلى منطقة جنوب أسوان، نشرتها بمجلة (الكاتب) ثم تضمنها ديوانى الثانى (فارس الأمل)، وكان استيحائى بعض الأساطير والرموز الفرعونية واضحا بالنظر إلى انبهارى فى البدايات بالحضارة الفرعونية وقراءاتى لبعض مصادر دراساتها، ولعملى عاما فى مهدها بالصعيد، ولأن آثارها شواهد ماثلة لعظمة أبنائها.

وربما كانت هذه العوامل الموحية المؤثرة أن جمال عبد الناصر من أبناء الصعيد، وأننى كتبت فى أول الخمسينات مسرحتين قصيرتين. أولاهما (أوزيريس) والثانية (اخناتون). وإن لم يقبض لهما أن تنشرا حتى اليوم. ولاشك أن مضامينهما وتقنياتهما الفنية المعتمدة على رموز الميثولوجيا الفرعونية ظلت كامنة فى ذاكرتى الشعرية، رافدة ماكتبت بعد ذلك من قصائد بشئ من صورها والأحداث التاريخية الفرعونية، جنبا إلى جنب مع رموز الحضارة العربية الإسلامية، واستيحاء الميثولوجيا الإغريقية بقدر ضئيل، إذ كنت ومازلت مؤمنا أن الحضارة العربية والروح المصرية الشعبية والواقع الحى هى الينابيع الثرة التى لا تغيض بالنسبة لشاعر يرى أن التراث الإنسانى وحدة واحدة، وأن التجديد ليس معناه تقليد الغرب، وأن تراثنا– فى جوانبه الوضيئة والثرية– بنية أساسية أو ينبغى أن يكون كذلك فى شعرنا الحديث.

خبت نبرة الشجى فى قصائدنا مع انطلاقه ثورة يوليه، وشعت جذوة التحدى لكل القيود التى تكبل روح الشعب وتحول بينها وبين الازدهار والعطاء،وانبعثت ببناء السد الآمال. ولم يعد القمر وحده ملهمنا، ولكنها الشمس الطالعة كل صباح

كما تغنى بها سيد درويش كرمز لتجدد الحياة وموت اليأس. كما لم تعد الوردة خد المحبوبة، فالشاعر الذى يحتضن آمال قومه ويشاركهم آلامهم بل يقود الركب لم يعد قادرا على الغزل وتصوير جمال الورود على حين يرى دم الأحبة المكافحين لاسترداد الحرية حوله فى أحراش إفريقيا الجريحة العارية الصدر والقدم.

وليست معركة تأميم القناة وتشييد السد العالى إلا النموذج الدال على يقظة الشعوب الإفريقية- ومصر فى القلب منها- وقدرتها على فل أسلحة المستعمر وبناء الحاضر والغد. لذلك عبرت قصيدة (أغنية للسد العالى) عن الفرحة الغامرة بالانتصار وعن عودة (أحمس) من جديد وانبعاث أشلاء (أوزيريس):

كل صباح بين طلوع الفجر
ورفيف الطير على وجه النهر
تنتظر الشمس على موعد
لقيا عشاق عند السد
يبنون لها من حبات القلب
صرحا لاتبرحه أبد الدهر
الأيدى السمراء يعانقها
وهج الشمس على الطمى الأحمر
متحدات تصعد شلالا
تهوى دوامات .. تطوى الصخر
تَطلُع أمواجَ حياةٍ تولد
فى قدس الأقداس .. إله الغد
والخصب عطيّة أوزوريس
منذ الهرم الأكبر حتى السد

ولكن حضارة مصر مزيج من الفرعونية والعروبة لا انقطاع ولا تعصب. ومن ثم تعانقت المآذن والمعابد فى شعرى، والسد العالى والأهرام والنيل والصحراء، وكتائب المحرر أحمس ممتزجة بصهيل الجياد منذ وفد عمرو وفرسانه إلى أرض الكنانة:

وتدق على شدو المزمار
وحنين الخيل العربية
والنيل يردد أغنية
تترقرق: لا تحزن إيزيس

وتبلغ الموجة الشعرية ذروتها فى ختام القصيدة:

فى موج جياش الفيضان
طامِ عات بين الشطآن
مُترامِ من أقدام الشعب
يتغنى بالمجد لأحمس

وتحكى قصيدة (العودة) التى كتبتها من وحى إحدى زياراتى للسد العالى رحلة المعاناة قبل الثورة:

كانت ترانيم المساء تحتضر
هناك عند قبونا العتيق
بين الصخور والشموع والعرق
وغربة البحارة الصغار
تذوب فى متاهة النغم
صيحاتهم صخابة قصار
٭٭٭
كانت مجامر الرماد تشتعل
وشمسنا تغيب
تغيبت فجأة على الجبل
قبل الشروق
كانت بروجنا المشيده
يدركها الموت الرهيب كل حين

وآن أن تـخمد شموع الذكريات الحزينة، وتكف أعاصير الشمال:

رُدَّت قلوب الشاردين
عادوا إلى ليل القرى
يطاردون عصبة الذئاب
وفى النهار يُسقطون عادىَ الجراد
حتى ضحاياهم على التلال
عادت قلوبهم تسير
دماؤهم مشاعل الطريق
راياتنا ثيابها المخضبه
وأغنياتها بشير
وغيِّضت دموعها النساء
وغادرت مهودها الأطفال
والأرض حنت للثمار
للشمس، للطيور، للعبير
وحين أب من غيابه الربيع
وقبَّل الصغار
كانت موانينا على الأفق
تضئ بالتذكار
كانت أيادينا تحطِّم الجدار
وترفع السدود فى منابع المياه
والأرض تحيا من جديد

ooo

وضجة المدائن المضيئة الفساح
على موانئ الشمال

على السدود المشرعات فى الجنوب
تبث شوق العائدين
وتقرئ الرجال آية السلام

فالثورة التى تجسدت بعد آلاف السنين وارتفع السد، اقترنت دائما فى شعرى بالثورة على العدو المستعمر، فكانت معركة بورسعيد هى معركة بناء السد، مثلما هما فى الواقع، إذ لم يؤمم عبد الناصر القناة إلا بعد سحب الولايات المتحدة الأمريكية عرضها تمويل هذا البناء عن طريق البنك الدولى، وهى أكبر المساهمين فيه، ثم كان العدوان الثلاثى الغادر.

فى الغرب لاتكاد تبزغ موهبة أدبية حتى تستأثر باهتمام النقاد وتتبناها مؤسسات ثقافية حكومية أو أهلية، فتتولاها بالرعاية وتوفر لها الأسباب التى تكفل نموها وازدهارها، مثل العمل بالمواقع الثقافية كالمكتبات العامة أو العمل الدبلوماسى الثقافى، لأنها تدرك أن الكاتب أو الشاعر الموهوب ثروة وطنية ينبغى الحفاظ عليها، ومن ثم يعتبر إهمال أصحاب المواهب تبديدا لهذه الثروة وجناية على هؤلاء وعلى المجتمع معا. ومن قبيل هذا التبديد أن تسند إلى الأديب وظيفة تمتص طاقته فيخسر إبداعه كما تخسره الحركة الأدبية، ولاتفيد منه تلك الوظيفة كثيرا حتى لو كان مجيدا فى أدائها، لأنه مهما بلغ من هذه الإجادة لن يتفوق على من يناسبهم العمل الذى عهد به إليه، ولاسيما إذا كان مهموما بالكتابة الأدبية أو شاعرا بالتناقض بين هذا العمل وتلك الكتابة.

لقد ارتضيت المشيئة القدرية التى ساقتنى إلى طريق الشرطة، بل شعرت فى البداية أنها نعمة من السماء، فهى تحقق لى مركزا مرموقا وتسعد أمى التى كفلتنى صغيرا بعد رحيل أبى. ولا أنسى فرحتها وفرحتى حين لبست أول مرة زى الضابط الذى يحمل على كتفيه ثلاث نجوم متلألئة، وهرولت إليها مقبلا يدها مزهوا بردائى، كى تقر عينها ولا تحزن، ولتعلم أن الله قد بارك جهدها وأحياها حتى تجنى ثمرة الكفاح وسهر الليالى حتى يترعرع الوليد ويصبح معقد فخارها وزهوها بين الأقربين والجيران.

ولكن فرحتى بالمنصب المرموق لم تستمر طويلا، إذ كان العمل بالريف يحول بينى وبين رعاية أسرتى المقيمة بالقاهرة وأنا عائلها، فضلا عما أتجشمه بالإضافة إلى العبء النفسى من نفقات مالية تقتضيها إقامتى بمنأى عن زوجتى وأبنائى وأمى

وإخوتى، وليس لى مورد إلا مرتبى من الوظيفة ومرتب زوجتى من اشتغالها بتعليم الموسيقى بمدرسة ثانوية فى القاهرة.

لذلك جاهدت فى سبيل أن يقدر المسئولون بوزارة الداخلية هذه الظروف الصعبة فيصدر الأمر بنقلى إلى القاهرة. أما أن يسند إلى عمل بالعاصمة يتفق مع مؤهلاتى القانونية والأدبية فقد كان ذلك حلما بعيد المنال وإن ظل يراودنى طوال السنين، ولم اكف عن التماس السبل إليه دون يأس، كما لم تكف أمى عن الدعاء إلى الله أن يستجيب لها ولى بتحقيق هذا الأمل عدلا ورحمة وما ذلك على الله بعزيز، ولكنه كان عزيزا على وزارة الداخلية لأنى من غير المحظوظين، وإذا لم تكن «الخدمة» بالأقاليم قد شرعت لأمثالى ممن لاحول لهم ولاطول، فمن ذا الذى يسد الفراغ ويحقق الرسالة؟

وأخيرا لاحت فى السماء بارقة من الغيث بصدور ديوانى (من وحى بورسعيد) فقلت لنفسى: لعل الغُمّة تنفرج فيعطف الموكلون بمصائر الضعفاء. ولعلى تلوت من آيات الذكر الحكيم: (وإن من الحجارة لما يتفجر منه الأنهار) . وتوكلت على الحى الذى لاينام، والأمل يسرى فى الحنايا ويمنحنى قوة التفاؤل، كأنه قطرات من ماء الغمام تروى الأرض العطشى وتنساب فى عروق النبات.

بادرت بزيارة بعض أبناء الأسرة الأدبية التى حرمت منها طويلا مقدما نفسى وديوانى الوليد المرتجى أن يشفع لى ويتيح لى مكانا بينهم. ولا أنسى هذا الصباح الذى حملنى وحملتنى فيه قدماى إلى دار الهلال حيث قابلت الشاعر صالح جودت رئيس تحرير مجلة المصور فى ذلك الحين. كنت قادما مباشرة من نقطة طوخ دلكة فى زيى الرسمى بطبيعة الحال، فكان مظهرى مثار عجبه إذ لم يكن يعرف من شخصيتى إلا الشاعر. أهديته نسخة من الديوان. وتبادلنا الحديث حول المهنة والشعر. ولم يكن يعرف موقع هذه النقطة الشرطية، وحين علم انتقد من بيدهم الأمر.

خشيت أن يكتب عن هذا الموضوع على صفحات (المصور) فأكون موضع مساءلة من الرؤساء، إذ كانت التعليمات تقضى بحظر اتصال ضباط الشرطة بوسائل

الإعلام إلا بمقتضى إذن سابق، ومن ثم قد يضيرنى إذاعة حوارى مع الشاعر صالح جودت على الرأى العام من حيث يريد هو أن يسدى إلى جميلا. ولكن الأمور جرت على غير ما رأيت، وكان ذلك خيرا لى ونقطة تحول مؤقت فى مسار حياتى العملية.

لم يكد يمضى غير أسبوعين أو أقل على ذلك اللقاء حتى بلغنى من بعض المدرسين فى طوخ دلكة نبأ ذاع وشاع وملأ الأسماع كما يقولون، وهو صدور العدد الجديد من مجلة المصور وقد نشرت به افتتاحية بقلم صالح جودت تتضمن بيان ماخلفته معركة بورسعيد من أثر فى النواحى السياسية والعسكرية والاجتماعية والثقافية، وأن ديوان (من وحى بورسعيد) ثمرة تمثل هذا الأثر فى المجال الأدبى. ينعى الشاعر فى هذا المقال على السيد/ زكريا محيى الدين وزير الداخلية تركه لصاحب هذا الديوان فى قرية نائية لاعمل له فيها إلا ضبط الجلابيب المسروقة، والجرى وراء «جاموسة مخطوفة»، أو حل المشاكل التى تقوم بين عمدة البلد وشيخها، وكان أولى بالوزير أن ينقله من الريف حيث يعمل فى ظروف لاتتيح له التوفر لإنتاجه إلى القاهرة.

كما ساءل السيد/ يوسف السباعى رئيس المجلس الأعلى للآداب والفنون عما إذا لم تكن مهمته هى الإفادة من هذا الضابط الشاعر بإتاحة العمل له فى المجلس.

امتزجت فى مشاعرى الفرحة بهذا التقدير الأدبى والإشفاق على نفسى مما قد يجره نشر هذه المقالة من عواقب لاتحمد. وكنت قد سارعت من قبل بالتوجه إلى ديوان الوزارة حيث طلبت من مدير مكتب الوزير وكان ضابطا بالقوات المسلحة أن يتيح لى فى نفس الساعة مقابلة الوزير، فأبدى استنكاره لرغبتى، واعتبرها جرأة غير محمودة، ولاسيما من ضابط فى رتبة صغيرة. ولما أفهمته أن إهداء ديوان شعر عن المعركة إلى أحد قادة الثورة أمر له شأنه، لأهمية الدور الذى يقوم به الأدب فى شحذ الروح المعنوية للشعب، وأصررت على طلبى المقابلة باعتبارها حقا لى وواجبا عليه تيسيرها، كرر أن الأمر ليس بمثل هذه السهولة فلوزير الداخلية مهامه الجسام وبرنامج محدد للمقابلات، ووعدنى بتسليم الديوان إلى السيد الوزير فيرى بشأنه مايرى.

وجاء الفرج بعد عدة أيام، إذ وردت إلى النقطة إشارة من الوزارة تلقتها المديرية وتفيد تحديد موعد لى كى أقابل السيد الوزير، ولم أدر حينئذ أكان هذا نتيجة لمقال الشاعر صالح جودت الذى بلغ فحواه إدارة الشئون العامة بوزارة الداخلية فأبلغته إلى الوزير، أم كان نتيجة وصول ديوانى إليه كما وعدنى مدير مكتبه، وإن كنت قد علمت بعد بضع سنين من موظف بمكتب الوزير التقيت به مصادفة أن الأمر يرجع إلى المقال المذكور.

قبيل اليوم المرتقب تلقيت من أركان حرب المديرية مكالمة اصطنع فيها الرقة يسألنى عما سوف أدلى به للوزير، وكنت قد أشعت بين بعض زملائى عامدا أننى سأتظلم من نقلى من مركز شرطة أشمون إلى نقطة طوخ دلكة، فأخبرت «الأركان» الماكر أنه لاعلم لى بسبب استدعائى. وأعقب ذلك مكالمة أخرى من مدير الإقليم هذه المرة، أراد بها أن يجس نبضى أو يتقى ماقد أكون قد أزمعت من شكايته إلى الوزير فسألنى متلطفا عما اتخذت من إجراءات بشأن بلاغ قدمه عضو بمجلس الأمة يتهم فيه مجهولا بالاستيلاء على مبلغ من المال كان فى حوزته.

ولم يكن هذا البلاغ من الأهمية بحيث يتصل بى «الحجاج» بشأنه، ولكنه «تحجج به» .. سألنى عن أحوالى، فقلت إننى قانع بوضعى بل سعيد !! ولاشك أنه لم يسعد بالمعنى الذى قصدته، وعرجت على موضوع البلاغ، فقلت إنه ادعاء باطل أراد به صاحبه أن يتخلص من مطالبة مزارع أن يرد إليه المبلغ المدعى بسرقته، وكان قد أودعه إياه ليكون نصيبه فى صفقة اتفقا على عقدها، ولم يف عضو مجلس الأمة بشروط الاتفاق.

حانت الساعة الموعودة، وقبل أن يأذن لى مدير مكتب الوزير بالمقابلة سألنى عما أعتزم الإفضاء به، قلت سأغتنم الفرصة فأطلب نقلى إلى «مصر». أنذرنى بالويل وعظائم الأمور إذا فهت بكلمة عن هذا الموضوع، ودلل على ذلك بأن ضابطا برتبة لواء كان يعمل بمديرية أسيوط وطلب من الوزير فى حوار بينهما نقله إلى القاهرة رعاية لأسرته المقيمة بها، فغضب ولى الأمر وأنهى المقابلة.

هنأنى وزير الداخلية قائلا إنه يسره أن يوجد بين ضباط الشرطة شاعر مثلى

يستلهم معركة بورسعيد ديوان شعر، وحثنى على المزيد من إنتاج الشعر الوطنى. أردت أن أطيل حبل الحديث لعله يفضى إلى ما حذرنى منه مدير المكتب دون متاعب. فقلت إنه لأمر مسعد أن يقرأ الديوان رغم مشاغله. أجابنى: نحن فى شهر رمضان الذى يتيح لنا الاطلاع وقد قرأت بعض القصائد. سألت عما إذا كانت ثمة ملاحظات له يمكن أن أضعها فى اعتبارى. قال: «لماذا لاتكتب الآن فى مجلة البوليس؟»

أسعفنى قوله فألمحت إلى رغبتى فى النقل إلى القاهرة قائلا إن عملى بين «طلمبة ماء ولمبة غاز» لايتيح لى الظروف المناسبة لمواصلة الإنتاج الأدبى. رسم على وجهه علامة غاضبة وقال «أنت تتقاضى مرتبك نظير الأعمال البوليسية التى تضطلع بها». وأضاف: «وأنت ضابط كفء ولانستغنى عنك». عبرت عن اعتزازى بهذا التقدير وأوضحت أننى لاأقصد ترك خدمة الشرطة فإنه يشرفنى العمل بها، ولكن أى ضابط برتبة صغيرة يستطيع أن يؤدى مهام النقطة التى أرأسها مثل أدائى، على حين يوجد المكان الذى أنتج فيه أفضل بالقاهرة وأنتم ترفعون شعار «وضع الموظف المناسب فى المكان المناسب»، فانفرجت أساريره وسألنى: «ماهى الجهة التى ترى أنها تناسبك؟» فأسرعت بالإجابة : «مكتبك الفنى». ولما كنت أعلم أن هذا مطلب عسير التحقيق أضفت : «أو إدارة الشئون العامة بالوزارة أو الشئون القانونية أو مصلحة الجوازات والجنسية».

أشار إلى مدير مكتبه الذى حضر اللقاء قائلا : قل لوالى (يقصد الصاغ أحمد والى وكيل إدارة كاتم الأسرار فى ذلك الوقت) يدرج اسمه (يقصدنى) للنقل إلى إحدى هذه الجهات فى الحركة العامة. فأفصحت عن رغبتى فى انتدابى بالقاهرة ريثما تصدر الحركة فى يوليه أو أغسطس .. تجهم مرة أخرى وقال: يكفى هذا. وانصرفت متجها إلى صحيفة الجمهورية التى كثيرا مانشرت أشعارى بها فنشرت خبرا عن هذا اللقاء فى نطاق مقابلات السيد/ زكريا محيى الدين تضمن تهنئته لى على صدور ديوانى الوطنى. ونشر النبأ فأسعدنى واحتفظت بالقصاصة التى تضمنته. وربما كانت إدارة الشئون العامة بوزارة الداخلية هى التى أرسلت به للنشر فى الصحف.

(٥١)

قاعة فوكس والمفتش العتيد

كان القدر يدخر لى – بعد مقابلة السيد زكريا محيى الدين وأمره بنقلى إلى القاهرة – مفاجأة أخرى. فلم يكن للشمس التى طلعت علىّ ذات صباح إلا أن تغرب عن وجهى قبل أن أجتلى بهاء الشروق. ذلك أننى اشتركت قبل هذه المقابلة فى أمسية شعرية بقاعة فوكس السوفيتية التى كانت تقع بشارع عماد الدين ويؤمها كثير من المثقفين، إذ كانت تمثل مركزا ثقافيا مرموقا فى ظل العلاقات الوثيقة بين النظامين والشعبين فى مصر والاتحاد السوفيتى، وتنظم بها محاضرات وندوات فى إطار برنامج نشاطها الثقافى. وكنت ألقى قصائدى فى تلك الندوة ضمن نخبة من شعراء مصر إشباعا لنزعتى الأدبية دون أن أجد حرجا فى هذه المشاركة، وأقدّم فيها بصفتى شاعرا، مرتديا بالضرورة زيى المدنى.

غير أننى جلست فى صفوف الحاضرين آخر مرة شاركت فيها، ولم يكن فى نيتى أن ألقى شعرا لولا أن الأديب الأستاذ عبد الرحمن الخميسى لمحنى وهو يقدم شعراء الأمسية، فدعانى إلى المنصة مقدما إياى للجمهور باسمى ورتبتى منوها بديوانى (من وحى بورسعيد). وكان ذكره رتبتى نذير سوء توقعته. واعتذرت عن الإلقاء الشعرى وأصر هو وجمهرة الحاضرين على الاستماع. فتلوت قصيدتى الأثيرة لدى وهى (ضابط فى القرية) بعد أن حم القضاء وكان لابد مما ليس منه بد، فلاشك أن شرطيا سريا من إدارة المباحث العامة كان بين الصفوف كما يحدث عادة فى المجتمعات والندوات، وقد علم بحضورى ومشاركتى فلا معنى لامتناعى أو انصرافى.

أخذت أحصى الأيام فى قلق مثل متهم برئ ينتظر الفصل فى قضيته، حتى إذا مضى أكثر من شهر على هذه الواقعة ظننت لفرط سذاجتى أنها مرت بسلام

فتوقفت عن الإحصاء، وفى عشية يوم جمعتنى بصديق من أبناء المهنة يعمل بإدارة المباحث العامة ألقى فى وجهى بالنبأ المشئوم، وعلله بما أصبت به من نزوة الشعر وماجرته على من عدم الحذر والتبصر فى العواقب. ذلك أن هذه الإدارة كانت قد فتحت لى – دون أن أعلم بالطبع – ملفا بعد أن اطلعت على ديوانى ضمن المطبوعات التى تتابعها، فوجدتنى أردد الكلمات المحظورة التى تدخل فى الدائرة الحمراء فى نظرها مثل الكادحين والعناة والثورة الشعبية وغيرها من المترادفات التى تؤدى هذه المعانى أو توحى بها، وكأن ثورة ٢٣ يوليه لم ترفع هذه الشعارات ولم تتداولها مواثيقها ومنشوراتها، بل كانت علة شرعيتها وتأييدها من الشعب والتفافه حولها.

ولم يقتصر الأمر على هذه الأدلة أو القرائن التى تكفى وحدها لإدراجى بين عشية وضحاها فى عداد المغضوب عليهم والضالين، بل زاد الطين بلة دليل آخر يكاد يرقى إلى مرتبة الاعتراف الذى يعد فى القانون سيد الأدلة، وهو تصدير الديوان بمقدمة للأستاذ محمود أمين العالم. وحين قلت للصديق إن هذا الناقد من أنصار الثورة ومن كتابها، وإننى لجأت إليه كى يكتب لى مقدمة لأنه يعترف بالشعر الحر ويصد عنه غائلة خصومه ممن يرونه خروجا على العمود الموروث، ويغالى بعضهم فيراه خروجا على الدين والقومية، أنبأنى أنهم يعلمون مالا أعلم. وشفع قوله بنصحى أن أكون على حذر من الآن، فسوف أكون وتكون قصائدى موضع تعقب. وقد انتفعت بنصيحته تلك فى حينها. كما أدركت أن وزير الداخلية بتكريمه لى هو فى جانب وضباط الإدارة المذكورة فى جانب آخر، ولم يكن فى مقدورها أن تستجوبنى أو تأمر باستجوابى بعد هذا التكريم، فأغلقت الملف قبل اتخاذ أى إجراء. وهاهى الفرصة قد أتيحت لهم أو أتحتها أنا لهم بإنشادى قصيدة فى قاعة ثقافية يشتبه فيمن يدخلها ولو كان وزير الثقافة، فحق على القول وعلى نفسى جنيت.

فى بورسعيد كنت أقضى مع أسرتى إجازتى السنوية فى صيف ١٩٥٨ حين وردت إلىّ من الأهل بالقاهرة برقية تفيد ضرورة عودتى فورا إلى العمل تنفيذا لأمر الوزارة. تباطأت فى الاستجابة إذ لم أكن قد أمضيت غير بضعة أيام وظننت أن (القائم مقام محمود السباعى هو الذى يتعجل عودتى لإعداد العدد الجديد من مجلة

الأمن العام التى كنت أتولى سكرتارية تحريرها، ثم وردت برقية ثانية، فعجلت بالسفر وعلمت أن نائب مأمور قسم الساحل الذى أعمل به قد حضر إلى منزلى فى صحبة مفتش الداخلية بناء على تكليف الثانى من السيد/ وزير الداخلية لاستجوابى فى تحقيق. إن الأمر إذن خطير.

اتصلت هاتفيا بنائب المأمور فلم أجد لديه معلومات عن موضوع التحقيق الذى بلغ من خطورته أن ينتقل أحد مفتشى الداخلية من الوزارة إلى بيتى، وقلت لنفسى: لم يبق إلا أن يستصدر إذنا بتفتيش المنزل أو يفتشه دون إذن من جهة الاختصاص بضبط الجرائم وهى النيابة العامة !!

أدركت أن وراء الأكمة ماوراءها، وسرعان ماانبعثت إلى الذاكرة واقعة القاعة الثقافية، وتيقنت أنها ولاشئ غيرها هى البؤرة التى فجرت الموقف. وفى صباح اليوم التالى اتخذت طريقى إلى مصلحة التفتيش بالوزارة حيث قابلت – عرضا – (القائم مقام) صلاح مجاهد فى مكتبه الذى يقبع قبل مكتب زميله الذى أرسل فى طلبى، فأسررت إليه أننى مستدعى للمثول للتحقيق. ثم قدمت نفسى للمفتش صاحب الشأن وجرى بيننا أعجب حوار:

– لماذا لم تحدد الجهة التى ستمضى بها إجازتك فى إقرار قيامك بهذه الأجازة؟

* سافرت مع أسرتى إلى بورسعيد للاصطياف وبحثت عن فندق للإقامة فيه حيث لامحل إقامة لنا فى هذه المدينة، وإن لنا (معارف) أمكن بواسطتهم إفادة أهلنا بعنواننا. وهأنذا قد حضرت. ونظرت لما أبداه من تعنت فقد استطردت قائلا :

* لقد انزعج أهلنا حين فوجئوا بحضورك إلى المنزل وأخذك تعهدا عليهم بإرسال برقية للتعجيل بحضورى. فما هو موضوع التحقيق الذى أدى إلى هذه الإجراءات الشديدة؟

– الأمر بسيط فأنت ذهبت إلى قاعة فوكس السوفيتية وألقيت شعرا دون إذن من وزارة الداخلية. وما عليك إلا أن تجيب بأنك حسن النية ولن تعود لمثلها وينتهى الأمر.

* أوراق التحقيق التى أمامك كثيرة مما ينبئ بخطورة ماهو منسوب إلىّ .. فأرجو الاطلاع عليها وعلى تأشيرة السيد الوزير.

– ليس من حقك الاطلاع على هذه التأشيرة ويكفى أننى أبلغتك بفحواها.

* بل هو حقى المشروع ولن أجيب حتى أرى بعينى الأمر الصادر بالتحقيق.

أصر كل منا على موقفه. ورفعت عامدا صوتى كى يسمعنى أستاذى صلاح مجاهد فأختلى به لأستشيره فى الأمر. ووقع ماتوقعت، فقد أقبل الرجل الكريم. وأفهم زميله أننى من خيرة الضباط، وأننى سكرتير تحريرمجلة الأمن العام، وطلب إليه أن يراعى ذلك. ولما أبلغته أننى مصر على الاطلاع على أمر التحقيق، لم يجد المحقق سببا للرفض. وكانت التأشيرة «مصلحة التفتيش العام للتحقيق وعرض النتيجة علينا» ولم يؤذن لى بقراءة المذكرة التى ذيلت بالتأشيرة ولا الأوراق المرفقة بها مع أن ذلك من حقى.

لحقت بالقائم مقام صلاح مجاهد وهو فى طريقه إلى مكتبه. فارتفع صوت المحقق: إلى أين تذهب؟ أجبت : سأتحدث مع القائم مقام صلاح مجاهد عدة ثوان. وأنا لست متهما حتى الآن وإلا كنت استصدرت قرارا بوقفى عن العمل. وهمست إلى السيد/ صلاح مجاهد بالواقعة المنسوبة إلىّ ولم أنكرها بينى وبينه، واستشرته أى الأمرين أكثر تحقيقا لصالحى نفى التهمة أو إثباتها فى التحقيق. فأرشدنى إلى مايحقق مصلحتى متعجبا من استفسارى رغم كونى محققا. والواقع أننى خشيت أن أنكر ثم تثبت الواقعة نظرا لتوافر بينات عليها فيضاعف جزائى. وقد تعلمت من هذه النصيحة درسا له أهميته القصوى فى مسائل التحقيق. ذلك أن القاضى يرتاب فى صحة نسبة التهمة المعروضة أمامه للفصل فيها طالما أنكرها المتهم.

وتأكدت أيضا أن هذه هى علة تهافت بعض ضباط المباحث على الحصول من المتهم الذى ينكر ارتكابه الجريمة على اعتراف، وإن لجأوا إلى القسوة، بل انتزاعها أحيانا بالإكراه، ومهما بلغت فداحة الجرم فإنها لاتبرر معالجة الجريمة بجريمة أخرى. ومن ثم سن القانون عقوبة رادعة على التعذيب، ولم تأخذه شفقة بمرتكب الفعل الذى يعد شائنا مهما كان دافعه أن تأخذ العدالة مجراها، وأن يتحقق هدف العقاب على الجريمة وهو زجر مقترفها وردع كل من تسول له نفسه أن يرتكب مثلها. فالطريق إلى الجنة ليس مفروشا بالنيات الطيبة. ولاينبغى أن يدرأ الباطل

بباطل، ولا أن تقام الدعوى العمومية على مذنب أدلى باعتراف تحت ضغط الإكراه بحجة الاقتصاص للمجتمع منه. فالقانون لايفرق بين جريمة يرتكبها الخارجون عليه وجريمة يجترحها رجال الضبط القضائى الموكلون بإقراره حفاظا على المجتمع.

إن المقولة المأثورة: «إطلاق عشرة جناة خارج قفص الاتهام وفى منجاة من عالم السدود والقيود «السجن» خير من برئ واحد داخل هذا القفص وبين جدران هذا العالم»، هى إحدى مبادئ العدالة بل بديهياتها. ومن الحق أننى اقتربت مرة أو مرتين من ارتكاب فعل القسوة فى معاملة المتهم، ولكنى لم أغتفره لنفسى أبدا بذريعة الزجر والمنع، ولا اغتفرت لزملاء لى هذا الفعل الذى لم أشاهده بعينى طوال حياتى الوظيفية إلا مرتين أنكرتهما فى حينهما ولن أنساهما أبدا مثلما لاأنسى مافعلت. إن من المبادئ أو البديهيات التى استوعبناها أيضا فى دراستنا القانونية فى الدروس الأولى أن المتهم برئ حتى يثبت العكس. وهذا المبدأ الإنسانى الذى أنيط بالقضاء تنفيذه هو الذى جعل ساحته تسمى محرابا للعدل رفعا من شأنه إلى درجة القداسة.

أعاد المفتش العتيد سؤالى شفاهة عن التهمة المنسوبة لى، وامتد نظرى إلى مادونه فى المحضر كاتب التحقيق فى اللحظات التى قابلت فيها أستاذى صلاح مجاهد فوجدته كالآتى: منسوب إليك المشاركة فى نشاط جهة تتنافى أهدافها واتجاهاتها مع السياسة التى رسمتها الدولة، فما قولك؟. أذهلنى السؤال المدون واستنكرت خبث الرجل وخداعه، إذ يتصور أن اختلاق اتهام جسيم لى يتعلق بأمن الدولة من شأنه أن يساعده فى إثبات كفاءته كى يرقى إلى منصب أعلى. انتهازية بشعة من مسئول كبير يفترض أنه اختير لما يتوافر فى شخصه من أمانة ويقظة ضمير.

ثار الخلاف مرة أخرى حين اعترضت على السؤال، فحاول للمرة الثانية أن يهوّن على الأمر قائلا إن السؤال روتينى، وإن إنكارى سيزيد موقفى سوءا. ولكنى لم أقع فى الشبكة التى نصبها لاصطيادى. وحين سأل عن السبب وراء اتهامى من جانب المباحث العامة إذا كانت الواقعة غير صحيحة، أجبت: أنى شاعر معروف، ولاشك أن مقدم الندوة أو أحد المشاركين فيها قد ذكر اسمى ورتبتى فى سياق الحديث عن

الأعمال الأدبية التى استوحت بطولة الشعب فى معركة العدوان الثلاثى، فظن المخبر أو المخبرون الحاضرون أننى ضمن الحضور فأبلغوا رؤساءهم. وهذا الإجراء لايتخذه ضباط بل مخبرون. وإذا بالمفتش الحصيف يتصل هاتفيا بإدارة المباحث العامة كما أدركت من الحوار الذى دار، وإذا هو يقول: إذن هو على حق فى قوله إن مخبرين لاضباطا هم الذين حضروا وشاهدوه.

وقبل أن ينتقل إلى سؤال آخر طلبت أن يثبت هذا الحوار الهاتفى فى محضر التحقيق ولكنه رفض. وحين جادلته زعم أنه سيثبت ذلك فى نهاية المحضر، ثم واجهنى بواقعة نشر القائمين على قاعة فوكس إعلانا عن الندوة بإحدى الصحف يتضمن ذكر اسمى ضمن شعراء آخرين، قلت إن ذلك لايعبر عن حقيقة، لأن مثل هذا الإعلان مقصود به دعوة الأدباء وغيرهم من المثقفين للحضور، ومن ثم يغرونهم بنشر أسماء الشعراء المعروفين وأنا واحد منهم دون أن يعنى ذلك حضور هؤلاء الشعراء جميعا.

واخترعت دليلا للنفى وهو أن الشاعر محمد الفيتورى الذى يُذكر اسمه عادة فى هذا السياق كان بالسودان فى وقت انعقاد الندوة. ولم يكن إثبات عدم صحة هذه الواقعة ليضيرنى كثيرا أو قليلا، مادام فى جعبة المحقق الألمعى أفاع أخرى يمارس بها لعبته. وقد صح ما اخترعته أو حدسته فقد اتصل الرجل هاتفيا بمصلحة الهجرة والجوازت والجنسية، فإذا هى تؤكد قولى بعد أن رجعت إلى دفاترها. وللمرة الثانية يرفض المحقق إثبات هذه الواقعة التى كانت رمية من غير رام كما يقول المثل العربى.

ظننت أن التحقيق قد انتهى عند هذا الحد فلم يبق لدى القائم به مايستدعيه لإدانتى. ولكن ظنى خاب إذ قال: لم يبق إلا اجراء أخير، ذلك أن تتم مواجهة بينك وبين المخبرين الثلاثة الذين شهدوا ضدك. وعليك أن تحضر غدا صباحا. قلت إن هذا الإجراء إذا تم مشوب بالبطلان. فلا يجوز أن أوضع موضع الاتهام ويقف جندى الشرطة شاهدا علىّ، وماهو شكل المواجهة التى تريدون اتخاذها؟ هل أقف كالمشتبه

فيه بين آخرين، ثم تطلبون من الشرطى أن يستدل علىّ؟ أم أقف أمام كل مخبر ويكذب كل منا الآخر؟ إن قانون الإجراءات العسكرية يقضى بمحاكمة الجندى الذى يكذب ضابطه الأعلى بإدلائه بأقوال تناقض أقوال الضابط.

لم يكن ثمة مفر من الإذعان، وحدثت نفسى قائلا إننى سأطعن فى إجراء المواجهة فإذا لم يأخذ المفتش بطعنى وتم هذا الإجراء على الوجه الذى يضيرنى، فإنى سأشكوه إلى الرئيس الاعلى. وفى مساء اليوم ذاته استلمت رداء مدنيا جديدا كان من حسن حظى أن «الترزى» قد فرغ منه. وعدت صباحا إلى مصلحة التفتيش حيث جرت المواجهة التى لم يخطر على بالى ما أسفرت عنه من عجائب هى أقرب إلى الخيال أو الحلم.

أمر السيد المفتش الجندى «المراسلة» القابع بالباب أن يأذن للمخبر الأول بالدخول، وحين مثل بين يديه قال له: هل شهدت اليوزباشى حسن فتح الباب وهو يلقى قصيدة فى القاعة الثقافية؟ فرد بالإيجاب. ووجه إليه السؤال الثانى: أنظر فى أشخاص الموجودين هنا، فهل تراه بينهم؟ وهو سؤال إيحائى باطل قانونيا، لأن هذه الصيغة من شأنها أن توحى للمسئول بالإجابة التى يريدها المحقق، هذا فضلا عن أنه لم يكن ثمة بالغرفة غير المفتش وكاتب التحقيق إلى جانبه يسجل الأسئلة والإجابة، وأنا أجلس أمامهما، وفى زاوية من الغرفة مفتش آخر للداخلية. ولاشك أن الشاهد سيتعرف علىّ ولو لم يكن قد شاهدنى من قبل. يضاف إلى ذلك أن تعرفه على - إذا حدث - سوف يرجع غالبا إلى أننى كنت منتدبا فى تلك الفترة بالإضافة إلى عملى بقسم الساحل لإلقاء عدة ساعات محاضرات فى المبادئ القانونية لجنود الشرطة فى مدارس الثقافة التى أنشأتها وزارة الداخلية، ومن ثم يعرفنى كل من انتظم بهذه المدارس، وقد يكون المخبر من بينهم، وهو أمر أدخره للطعن فى شهادته إذا كانت فى غير صالحى.

كان ردائى القشيب ونظارتى الطبية السوداء التى أستعملها نهارا، على حين أستعمل نظارة أخرى بيضاء للقراءة مثلما فعلت فى القاعة الثقافية، يوحيان غالبا إلى من يشاهدنى فى هذا السمت أننى زائر من أصدقاء المفتش أو زملائه رغم سنى بالقياس إليه.. قال المخبر: هذا هو اليوزباشى حسن فتح الباب. وأشار إلى مفتش

الداخلية القائم مقام حسن رشدى فما كان منه إلا أن صاح فى وجهه ساخرا: يا .. لقد كنت تعمل تحت رئاستى بإدارة المباحث فى بورسعيد .. هذا هو حسن فتح الباب، وأشار بيده إلىّ.

فى لهجة غاضبة قال المحقق الأريب للشرطى المغلوب على أمره: «اركن» فى هذا الجانب من الغرفة. ودعا الشرطى الثانى، ووجه إليه السؤال نفسه. فأدار عينيه بيننا جميعا ثم تفرس فى وجهى فخشيت أن يعرفنى، فخاطبته فى نبرة تهكمية: «لماذا تنظر إلىّ هكذا.. أتراني حسن فتح الباب؟» فانصرف عنى قائلا للمفتش: أنا لا أتذكر يأفندم !!. وعبر المفتش عن سخطه علىّ بقوله: أنت قاطعت الشاهد فاضطرب. فقلت فلتثبت مقاطعتى وسائر الوقائع بالمحضر، ولكنه لم يفعل. ونودى على الرجل الثالث، ويبدو أنه كان يسترق السمع من خلال ثغرة باب الغرفة وسمع مادار من لغط، فرأى أن يدع هؤلاء الضباط يأكل بعضهم بعضا وينجو هو بجلده، فهم من طائفة واحدة وسرعان مايتصالحون، أما هو فله الويل. هكذا كانت هواجسه فيما خيل إلىّ ولعل حدسى قد صدق، إذ كانت إجابته على السؤال الموجه إليه مماثلة لما قاله الثانى.

وهكذا خرجت من الموقعة سالما، وإن غنمت خصم يوم من مرتبى بعد ذلك جزاءً تأديبيا لمخالفتى التعليمات حيث لم أثبت فى إقرار قيامى بالإجازة الصيفية مكان إقامتى كى أُستدعى إذا أعلنت حالة الطوارئ أو استجابة لأمر رئاسى، وهو جزاء جائر. ولكن المفتش كان حريصا على ألا يخرج من المولد بلا ثمرة وأن يثبت كفاءته ليحقق طموحه. ولقد شكوت للقائم مقام محمود السباعى بعد ذلك تعسف مفتش الداخلية فيما اتخذه من إجراءات، فكان رده أن هذه هى مهمة المحقق: أن يجمع الأدلة والقرائن التى تدين المتهم!!

ولم يستسغ قولى إن كلمة محقق مشتقة من كلمة الحق، فمهمته أن يصل إلى الحقيقة فيثبت ما للمتهم وما عليه. ويبدو أن منطقى كان شاذا لخروجه على القاعدة المألوفة.

عرفت أننى لن أستروح نسيما عليلا بعد اليوم رغم نجاتى من أفاعيل المفتش العتيد، لأن الشعر الذى يسرى فى دمى سيجلب لى الشقاء مهما اتخذت من أسباب التقية. وهل أستطيع أن أتخلص من همى بقضايا الوطن والشعب وإحساسى بآلام المعذبين فى الريف وفى قاع المدن؟ هل أستطيع أن أوقف أنفاسى وخفقات قلبى وأئد عرائس الشعر وهو حياتى وموئلى وإن كان سر شقائي إذا قيس الشقاء بمنظار الآخرين؟ بعض الشعراء يتخذ الشعر وسيلة لاتقاء المضرة فلا يقول للباطل «لا» مرة واحدة، وإنما يتغزل فى خدود الحسان وقد ودهن، والبعض الآخر يتخذ الشعر سلما لارتقاء المناصب وجمع المال، فيغنى للأغنياء والحكام، ويلبس لكل حالة لبوسها، ففى الضحى يرتدى مسوح رهبان الاتحاد الاشتراكى، وفى العشية يضع فى سترته وردة حزب البعث، وبينهما يجأرتمجيدا للجان الثورية. وحينما تنحدر العروبة يولى وجهه شطر باريس فيزهو بقبعة «الإليزيه» ولباس «الشرق أوسطية» ويقول دون حياء : هأنذا تحت الطلب فمن يشترى؟!

وهكذا لم أكد أفيق من كابوس القاعة الثقافية السوفيتية حتى صدمنى الزميل الذى أنبأنى من قبل بفتح ملف لى على أثر صدور ديوانى (من وحى بورسعيد) بقوله: «أنت الآن فى خطر». لقد زادت الأمور تعقيدا إذ عرضت نتيجة التحقيق الذى أجراه معك مفتش الداخلية على السيد الوزير، فرأى أن قدرتك على تبرئة نفسك وهو يثق فى دقة مصادره وأهمها إدارة المباحث العامة (مباحث أمن الدولة الآن) تدل على خطورتك فأشّر على الأوراق: «تجرى تحريات ومراقبة دقيقة».

«أنت الآن موضوع تحت رقابة سرية من أحد ضباط تلك الإدارة. فخذ حذرك».

قلت: «مم أخذ حذرى، وجريمتى عندهم أننى شاعر، وليس لى عن الشعر غنى؟».

قال زميل المهنة الصديق الذى قُدّر له أن يصبح فيما بعد على رأس وزارة الداخلية كان جديرا بهذا المنصب: «لاترتد المنتديات الثقافية وتجنب الحديث مع من حولك». قلت مداعبا ومن البلية مايضحك: «واكتم نفسك، كما كانوا يأمروننا فى كلية الشرطة قبل إطلاق الرصاصة من البندقية وذلك فى حصص التدريب على الرماية».

شيوعى فى عهد الملكية !

كأنما لم يكفنى من صاحبى هذا النبأ، فألقى بقنبلة أخرى أشد وقعا. قال: لقد ارتاب فيك من أرادوا إدانتك بعد أن خرجت من التحقيق خروج الشعرة من العجين، فرجعوا إلى دفاترهم القديمة، فإذا هم يجدونك مسجلا فى قائمة الشيوعيين. ولكى يوثق قوله أضاف: ألم تكن طالبا بالحقوق سنة ١٩٤٥ وزميلا للكاتب الشيوعى كمال عبد الحليم فى نفس «الدفعة» وعضوا معه فى جمعيّة نشر الثقافة؟ «قلت: هذا كله صحيح. ولكنى لم أكن أعلم أنه شيوعى، كما لم يكن لدىّ أية ميول لهذا المذهب، فكيف أصنف ضمن معتنقيه؟». أجابنى: «حين ضبط كمال عبد الحليم سنة ١٩٤٦ فى خلية سرية شيوعية، وكان من زعماء الحزب المحظور الذى كان يطلق عليه «حديتو» استقصوا مسيرته ونشاطه منذ كان طالبا جامعيا، وعرفوا بأمر تلك الجمعية، ففتحوا ملفا لكل عضو من أعضائها».

عجبت لهذا المنطق بعد أن أفقت من هول المفاجأة. ذلك أن قاعدة «إن المقارن بالمقارن يقتدى» لاتصح وحدها دليلا على العدوى. فتلك نظرة قاصرة قد تؤدى إلى الإيقاع بالأبرياء. فليس حتما أن يكون الصديق نسخة من صديقه طبق الأصل، وإنما تشكل اتجاهات المرء عوامل أخرى كثيرة. وربما رددت حينئذ قول أبى العلاء المعرى:

تثاءب عمرو إذ تثاءب خالد
بعدوى فما أعدتنى الثؤباء

ويا أيها الذكاء فى البحث والتحرى كم من جرائم ترتكب بأسمك ويصلى نارها الأبرياء. وقديما قال شاعر آخر:

لم أكن من جناتها علم اللهُ
وإنى بحرها اليوم صالى

لاشك أن هذه السجلات مازالت قائمة يرجع إليها كمصادر موثوق بها كلما أحاطت الشبهات بفرد أو جماعة، أو جدّت ظواهر نسبت صحة أو خطأ إلى مايطلق عليه مذاهب هدامة، فيساق إلى المحاكم أو إلى المعتقلات الأبرياء والمذنبون فى سلسلة حديدية واحدة. وليس صحيحا أن أنور السادات فى أعقاب توليه السلطة قد ذهب إلى وزارة الداخلية وأقام محرقة للسجلات السرية كما نشرت الصحف الحكومية سردا وتصويرا. فمازال ينظر إلى هذه السجلات مهما تقادم عليها العهد باعتبارها صمام أمن الدولة، شأنها فى ذلك شأن لوائح الاشتباه والتشرد وقانون الطوارئ أو مايسمى تدابير أمن الدولة وإن كان منها ماوضع فى عهد الاستعمار البريطانى، وكأنما فى بقائها بقاء نظام الدولة وكيانها، وفى إلغائها تهديد هذا النظام وذلك الكيان بالتصدع أو الفناء. وتلك نظرة سقيمة بل وثنية من شأنها أن تهدر حريات الأفراد والجماعات وتحولها إلى خشب مسندة أو إلى قطيع من الغنم لافكر له ولاحق فى الاختيار.

لقد استوعبت الدرس وإن كانت ثمرته مرة ومذاقها ممجوجا، فمضت حياتى العملية – على غير ماأردت – مثل آلة مبرمجة أو ساعة دقيقة، فمن بيتى إلى قسم شرطة الساحل صباحا ثم العودة، وإلى مجلة الأمن العام مساء، خط سير واحد وفى أوقات تكاد لاتختلف. وانقطعت عن التردد على الندوات الأدبية وإن كانت من قبل نادرة، كما قاطعت أصدقائى وغيرهم من الأدباء. وكان شعارى مانسبوه إلى طارق بن زياد فاتح الأندلس من قوله مخاطبا جنده «العدو أمامكم والبحر وراءكم» وإن لم أكن مثلهم قوة ومنعة. أما الشعر فلم أنقطع عن تنفسه وعن نشره على صفحات المجلات والصحف. ولقد نفذ إلىّ المتربصون من خلال هذه الثغرة لعلمهم بأحد أساليب ضبط الجريمة وهو أن الجانى يحوم حول مكان ارتكاب جرمه بدافع خفى لايستطيع عنه حوِلا. فكان ما لابد أن يكون.

وكان نذير الشؤم بل الشؤم نفسه صدور الحركة العامة لتنقلات ضباط الشرطة فى أوائل اغسطس سنة ١٩٦٠، وتصفحت جريدة الأهرام التى نشرت هذه الحركة لأعلم مصير زملائى دون أن يدور بخلدى لحظة واحدة أننى أحد المنقولين بعيدا عن

القاهرة حيث مقر عملى. ذلك أنه لم يمض علىّ فى العاصمة أكثر من عامين أى أقل من نصف المدة التى ينقل بعدها الضابط إلى محافظة أخرى. أضف إلى هذا أننى كنت موضع تقدير الرؤساء والتزمت بما أُمرت.

لم أكد أصدق عينى حين لمحت أسمى منقولا إلى كفر الشيخ. ولم يقع قبل الحركة مايدعو الى نقلى. محنة من أشد ما ابتليت به فى حياتى بل زلزال لم يصبنى وحدى بل شتت شمل أسرتى : الزوجة فى عملها بالقاهرة والأبناء فى المدارس. لقد عاد الشمل إلى التفرق والتمزق ولكن بلا سبب هذه المرة، ولاسبيل إلى النجاة إلا بمعجزة من السماء، وسماء وزارة الداخلية لاتعرف المعجزات. وهل يقع عدوان على الوطن مرة ثانية فأستوحيه شعرى فأقابل وزير الداخلية؟ ويا للسخرية: أن تصيب الوطن كارثة حتى تنجو أسرة وترضى وزارة الداخلية عنى وترحم أحد أبنائها !!

كنت أتناول إفطارى فى أثناء اطلاعى على حركة التنقلات، وكاد حلقى أن يغص باللقيمات، ولكنى خشيت أن تنزعج شريكة الحياة إذا امتنعت عن الطعام، فكتمت الأمر عنها متظاهرا بأن كل شئ على مايرام. وغادرت الدار كالمعتاد إلى مكتبى ومنه إلى ديون الوزارة لتقديم شكايتى حيث تعقد بعد كل حركة عامة لجنة للبت فى التظلمات. وفى الطريق إلى الدرج الموصل إلى مكتب الوزير التقيت بالعميد محمود السباعى فأديت له التحية العسكرية إذ كنت مرتديا الزى الرسمى حسب طبيعة العمل الذى كنت أقوم به فى تلك الفترة، وانصرفت عنه معجلا إذ كنت على خلاف معه تركت فى اثره العمل بمجلة الأمن العام التى كان يرأس تحريرها. فأمسكنى من يدى وقال: «أعرف أنك مهموم لنقلك إلى كفر الشيخ. هل تظن أننى وراء هذا النقل؟» وكأنه حدس بما فى نفسى من سوء ظن به بسبب إصرارى على موقفى المشار إليه. أجبت لأشفى غليلى إن كان ظنى فى موضعه: «هذا فعل صغير لايقوم به ابن الكاتب الكبير محمد السباعى» . فأبدى امتعاضه كشأنه كلما ذكرت هذه الصفة، إذ كان يتجنى علىّ أحيانا فأقولها تعبيرا عن اضطرارى إلى احترامه رغم إساءته أو إجحافه.

استطرد: «السباعى لايصدر عنه مثل هذا الفعل. إنما نقلتك المباحث العامة. وطالما حذرتك من مصاحبة الأدباء، فإن بينهم كثيرا من الشيوعيين، ولعلهم

ضبطوك متلبسا بصحبة أحد منهم.» فبينت له أننى منقطع لعملى ليل نهار ولاصلة لى بهؤلاء. «واصطحبنى إلى مكتبه حيث اتصل بالعقيد أو العميد – لاأذكر بالضبط – حسن مصيلحى مدير إدارة مكافحة الشيوعية بإدارة المباحث العامة قائلا له: حسن فتح الباب عندى الآن. ولست أتدخل فى عملك. ولكنى أود أن أؤكد لك أنه ليس شيوعيا، فلو كان كذلك لما اخترته للعمل معى سكرتيرا لمجلة الأمن العام. وغاية الأمر أنه شاعر يردد كلمات مثل تلك التى يقولها الأدباء اليساريون دون أن ينتمى إلى حزبهم. وأنهى مهاتفه بأننى قادم إليه.

شكرت له حسن صنيعه، وقصدت مقر الإدارة المذكورة، وكان صدرى يضيق كلما مررت بها أثناء دخولى الوزارة فى مهمة وأثناء عملى بعد ذلك بمصلحة الأمن العام إذ كانت فى مواجهة مبناها. أما مدير إدارة مكافحة الشيوعية بالمباحث العامة فقد كنت أعرف اسمه وأسمع عنه فى الوسط الأدبى، وكان هذا الاسم محفوفا بالمخافة. والحق أن الرجل أحسن استقبالى وعاملنى معاملة زميل وإن بادرنى لأول وهلة مبتسما ابتسامة لها مغزاها وهو يقول : هاأنت قد حضرت !! يعنى أن هذا اللقاء قد تأخر وأنه يعرف عنى كل ظاهرة وخفية، أو أننى أفلت من التحقيق الذى أجراه مفتش الداخلية بناء على مذكرة رفعتها المباحث العامة إلى الوزير ولكنى وقعت الآن ولن استطيع الإفلات هذه المرة، فقد ضبطت متلبسا والأدلة قائمة وما لى من طوق نجاة ألوذ به، ولا عاصم من أمر الله.

بادرت بسؤاله عما إذا كانت إدارته هى التى طلبت نقلى خارجى القاهرة. رد بالإيجاب. سألته عما وراء ذلك.. فقال: تريث حتى تفرغ من قهوتك وسوف ترى. ثم أخرج من درج بمكتبه إحدى المجلات، وأطلعنى على غلافها متسائلا: ألست تكتب فى هذه المجلة؟. عجبت حين تبينت أنها مجلة الكاتب، قلت: وما الخطأ أو الضرر إذا نشرت أشعارا أو مقالات بها وهى مجلة حكومية كسائر المجلات التى تصدر عن الاتحاد الاشتراكى حزب الدولة بعد تأميم الصحافة؟». قال : «كل كتابها شيوعيون». وشرع يعددهم بأسمائهم: «أحمد عباس صالح وكان رئيسا للتحرير، أحمد نجيب الهلالى» وذكر عدة أسماء أخرى. قلت: لاعلم لى أنهم مدرجون فى قوائم

الشيوعيين. وأضفت: «ولماذا تصرح الدولة بإصدار هذه الصحيفة إذن؟». قال: «هذه أمور أنت لاتفهمها فهى تتعلق بالسياسة العليا للدولة» !!

ادركت لأول مرة أن لهذه السياسة وجهين وأن الدولة تكيل بمكيالين. فهى تسمح للماركسيين المعروفين لديها بتخصيص إحدى المجلات لكتاباتهم لأسباب ثلاثة: أولها ترضية الاتحاد السوفيتى الصديق، وثانى مكافأة هؤلاء الكتاب على تأييدهم لثورة ٢٣ يوليه. أما السبب الثالث فهو تركهم يعبرون عن آرائهم علانية بدلا من كبتهم الذى قد يؤدى إلى إصدارهم منشورات أو كتب سرية. أضف إلى ذلك أن إتاحة هذه الحرية لهم ييسر للجهة المختصة وهى إدارة المباحث العامة متابعة آرائهم ورصد اتجاهاتهم، فإذا تجاوزت الخط الأحمر المسموح به كان لها شأن آخر معهم.

قلت: «أليس من المفيد حلا لهذه المشكلة وهى رغبتى فى نشر إنتاجى بالمجلات ووجود محررين يساريين بها أن تسلمونى بيانا بأسماء هؤلاء حتى أتجنب النشر بالمجلات أو الصحف التى يكتبون بها حتى أكون بمعزل عنهم؟» !!

ساءه السؤال بطبيعة الحال لما ينمّ عنه من معنى غير مرغوب لديه، فتجاهله وكرر أن هذه سياسة عليا ولاشأن لى بها. ثم أضاف: «دعنا من هذا الأمر الشكلى، ولندخل فى لب الموضوع وهو قصيدتك المنشورة على صفحات تلك المجلة وهى (أغنية إلى جاجارين). فالعنوان نفسه يدل على اتجاهك اليسارى، فأنت تمجد الاتحاد السوفيتى. كان تقييمه لهذه القصيدة آخر ماتوقعت، وربما كان تعجبى منه أكثر من استغرابى مسألة فوكس. إنه إصرار إذن على الإدانة بشتى الوسائل انطلاقا من فكر يرفض كل مايخالفه دون أن يتيح أية فرصة للحوار، فهو من الثوابت التى زادها مرور الزمن رسوخا، ولم تستطع المتغيرات السياسية والاجتماعية والفلسفية داخليا وخارجيا منذ عصر الملكية حتى عصر الجمهورية أن تزحزح العقلية والأسلوب القديمين المسيطرين قيد أنملة، لأن تلك الثوابت كانت وأصبحت وستغدو دائما من المقدسات التى لاتمس، وقد جند أصحابها طاقاتهم لدحر كل من يخالفها بالعمل أو بالفكر حسب تفسيرهم لهذا العمل، وذلك الفكر. إن هذا المنطق يشبه نظرية التآمر التى يعتنقها بعض المؤرخين أو كتاب السياسة، فكل حدث أو ظاهرة

مرجعها عندهم مؤامرة ينسجها الآخرون، دونما نظرة إلى المشكلة من شتى جوانبها وأبعادها،، ومثال ذلك أن تفسر هزيمة ٦٧ بعامل واحد وهو التآمر الإسرائيلى الأمريكى، فى حين أنه أحد الأسباب، وثمة سبب آخر أساسى أهم منه وهو طبيعة الأنظمة العربية الحاكمة وفى مقدمتها النظام فى مصر، فقد نفذ العدو وانهار البنيان من خلال عيوب هذا النظام وأخطائه فى إدارة الحرب سواء أكان ذلك مسئولية القادة العسكريين وعلى رأسهم عبد الحكيم عامر أم مسئولية جمال عبد الناصر بصفته رئيس الجمهورية والقائد الأعلى للقوات المسلحة ومخطط السياسة الاستراتيجية. فمن المفترض أن أصحاب القرار كانوا يدركون بداهة أن الولايات المتحدة الأمريكية وعميلتها إسرائيل وحلفاءهما يتربصون بنا الدوائر ويبحثون عن أية ثغرة لاختراق جبهتنا داخليا أو خارجيا. ولولا الأخطاء بل الخطايا التى ارتكبها هؤلاء لما استطاع العدو أن يلحق بنا أبشع هزيمة فى التاريخ العربى.

قلت للمسئول الكبير إن عنوان قصيدة (أغنية إلى جاجارين) ومضمونها لايحتملان تفسيره، فأصر عليه. فسألته: «لماذا لم تطبق هذا المعيار وهو الأخذ بظاهرة العنوان على قصيدتى التى نشرتها بالمجلة نفسها وهى (أغنية وداع إلى همنجواى). إن الكاتب الذى أرثيه وهو إرنست همنجواى أمريكى، فهل يعنى هذا أننى منحاز للولايات المتحدة الأمريكية؟» وأضفت: إن ثمة مقولة مشهورة وهى أن المعنى فى بطن الشاعر. فإذا كنا لانفسر مايقصده الشاعر فى ضميره حسب مفهومنا، فمن باب أولى ألا نفسر ظاهره وفق رأينا.».

قال : «لندع العنوان أيضا جانبا، ولننظر فى المضمون، فهو يعكس اتجاها ماركسيا واضحا، وإلا فكيف تفسر معنى قولك فى مطلع القصيدة : (ياطيرا حط على شجر الغيب) إذا لم يكن هو الإلحاد؟». أجبت: «إن الغيب هنا مجاز والمقصود هو تخطى قانون الجاذبية الأرضية، وتلك مسألة تدخل فى باب العلم ولاعلاقة لها بالدين.» وضربت له مثلا بالعبارة التى قالها الحلاج هذا المتصوف الإسلامى المشهور: «مافى الجبة غير الله» وهو يعنى بها وحدة الوجود، ولكن أهل التزمت اتهموه بالإلحاد واستعدوا عليه السلطة، فقتل وصلب ظلما، على خلاف فى ذلك مع

الفهم الصحيح للمبادئ الإسلامية وماتقضى به من سعة أفق. لاسيما فى مسألة دقيقة تتعلق بما يضمره المرء، لأنه لايعلم الخفايا إلا الله تعالى، فلا يُكفر من ينطق بالشهادتين. وقدمت إلى محاورى أكثر من دليل عقلى ونقلى فى هذا الصدد. ويبدو كما لو كان قد سره هذا الجدل فأراد أن يستزيد .. ونظرا لأن الوقت لم يسعف، فقد أجل بقية الحوار إلى موعد أخر.

فلما كان الغد استأنفنا الحديث، وأراد أن يعرض أمامى براعته وعمق ثقافته الأدبية والسياسية، فتلا الأبيات الآتية من القصيدة وقد كتبتها على لسان رائد الفضاء :

والعالم فى عينى إله
يستخفى فى صورة إنسانِ
جمعته رغم شتيت الأوطانِ
أيد قادرة أن تقهر
أسوار البشريه
قادرة أن ترفع
أعلام الحريه
وتردد أغنية النصر

واستدل بالبيتين الأول والثانى على نزعة إلحادية يرمينى بها. فكررت ماسبق أن دفعت به التهمة من أن هذا الكلام لايعدو أن يكون صورا مجازية، وأن تفسيره يشبه تفسير من أدانوا الحلاج. واستفضت فى الحديث عن إيمانى بدور العلم فى تقدم البشرية، وأننى سبق أن كتبت قصيدة بعنوان (مولد نجم) من وحى أول قمر صناعى يدور فى الفضاء واسمه «سبوتنيك» وقد صادف إطلاقه فى ٤ أكتوبر ١٩٥٧ مولد ابنى هشام. ويومها قلت لرفيقة العمر: «فى هذه الليلة يدور قمران فى السماء». ولما علتها الدهشة قلت لها: «القمر الطبيعى وقمر صناعى أطلقه السوفييت».

ولم يقتنع العقيد بدفعى لاتهامه. وأراد أن يفحمنى بقوله إن الأيدى التى أشرت إليها فى تلك الأبيات هى أيدى الاتحاد السوفيتى فهى التى دفعت بجاجارين إلى

الفضاء. وكان ردى واضحا: إنها أيدى العلم، وهو فوق الأجناس والعقائد، ولو كان أول رائد للفضاء أمريكيا لما تغيرت معانى القصيدة، ولأشدت بالولايات المتحدة الأمريكية. وقد كانت إشادة الرئيس جمال عبد الناصر بالاتحاد السوفيتى فى البرقية التى بعث بها مهنئا إلى الرئيس السوفيتى خروشوف تتضمن أكثر مما جاء فى قصيدتى إذا سلمت معك بأننى أعنى بثنائى الاتحاد السوفيتى خاصة لا الإنسان الذى فتح آفاقا جديدة فى مجال الكشوف العلمية أيا كانت جنسيته وموطنه.

وجاءنى بما لم أكن لأتوقع قط : «عبد الناصر يقول ونحن لانقول» بنص هذه العبارة التى لايمكن أن أنساها. وكان تعقيبى أنى أؤمن بزعامة عبد الناصر وآخذ كل أقواله على محمل الجد. بل أراه القدوة التى نحتذى بها. وهنا وصل الحديث الذى تجاذبنا أطرافه إلى طريق مسدود بعد أن بدا التفاهم مستحيلا بيننا، فكان من العبث أن يستمر هذا الحديث حتى لايضيع وقتنا سدى. وقد ختمه بقوله: «إنى على يقين أنك لست من أعضاء الحزب الشيوعى، ولكنى على يقين أيضا أنك تعتنق الفكر الماركسى وهو يتضح فى أشعارك». قلت : إن الناس لايحاسبون على مافى ضمائرهم، ولست أنكر أننى معجب ببعض الأفكار التى جاءت فى النظرية الماركسية، ولكننى أختلف فى أفكار أخرى.

ولقد رجوته قبل أن أنصرف أن يقدر ظروفى العائلية، فيعرض على الوزير مذكرة بالموافقة على إلغاء نقلى. ولكنه قال: أننا محل ثقة الوزير ولايعقل أن نتراجع. قلت: إنه ليس من العدل أن يكون ذلك على حساب تشريد أسرة. قال : لامفر من أن تقضى عاما فى كفر الشيخ !!. وحين هممت بمغادرة مكتبه فجر مفاجأة أخرى لعلها أكثر عجبا إذ قال : «هل تعلم أنك أحدثت بلبلة للوزير؟» ثم أفضى إلىّ بالسر الذى لم أكن لأصدقه لولا أنه – وهو المختص العليم ببواطن الأمور – هو الذى حدثنى به : «كان الزعيم جمال عبد الناصر فى زيارة لإحدى دول المعسكر الاشتراكى فى أوربا الشرقية، وفوجئ فى أثناء حضوره إحدى جلسات المجلس النيابى بأعضاء هذا المجلس يقفون معلنين الصمت حدادا على قتل الرفيق الشيوعى المصرى شهدى عطية». فغادر عبد الناصر القاعة تعبيرا عن احتجاجه على الكلمات

التى فاه بها ممثل المجلس وهو يعلن الدعوة إلى الوقوف حدادا. فأسرع إلى السفارة المصرية حيث جرى اتصال بالقاهرة أكد موت شهدى عطية بالمعتقل. وطلب الرئيس إيفاد مندوب عاجل من وزارة الداخلية لإحاطته علما بالتفصيلات. وكلفنى السيد / زكريا محيى الدين بأداء هذه المهمة العاجلة. وأمرنى بالمرور عليه فى بيته بمصر الجديدة وأنا فى طريقى إلى المطار ومعى تقرير معد للعرض على رئيس الجمهورية.

زودنى الوزير بتوجيهاته وقبل أن أنصرف قال: «سأوجه إليك سؤالا على أن تكون إجابتك بلا أو نعم دون ذكر أية تفصيلات أو توضيحات. وكان السؤال : «هل حسن فتح الباب شيوعى أو غير شيوعى؟». وقد ترددت فى الإجابة قائلا: «أصل ياأفندم» فقال الوزير فى لهجة حاسمة: «كلمة واحدة .. نعم أم لا ؟» فقلت : «ليس شيوعيا.» قال : «هذا يكفى» وأديت له التحية وانصرفت».

لقد انطبع هذا الحديث فى ذاكرتى مثل وسم النار، ولعلى رددت حينئذ قول الشاعر :

والليالى من الزمان حبالى .. مثقلات يلدن كل عجيب !!

فما أكثر الأعاجيب التى حفل بها حوارى بضع ساعات خلال يومين مع العقيد حسن مصيلحى. ولكن أكثرها مدعاة للإثارة والدهشة هو حديثه مع السيد/ زكريا محيى الدين. أو يبلغ شخصى وأرائى - أنا الذى لاحول له ولاطول - هذا القدر من الأهمية بحيث أصبح شغلا شاغلا لوزير الداخلية وهو أحد قادة الثورة والرجل الثانى أو الثالث فى مدارج السلطة، وإليه توكل الأمور الجسام، حتى أنه اختير وزيرا للداخلية ونائبا لرئيس الوزراء؟

بل لقد بلغ من تقدير عبد الناصر لقدراته التنفيذية وصرامته أنه حين أزمعت الحكومة إصدار قرارات برفع الأسعار، وخيف أن يتذمر الشعب مما يحتمل معه نشوب مظاهرات، عهد إلى السيد/ زكريا محيى الدين مسئولية الأمن بتعيينه وزيرا للداخلية فى هذه الظروف الحرجة. إن قدر هذا الرجل يتجلى أيضا فى ترشيحه من عبد الناصر ليكون خلفا له فى رئاسة الدولة بعد أن أعلن استقالته فى أعقاب هزيمة ١٩٦٧ المنكرة، وإن كان قد أشيع أن نزعة زكريا محيى الدين اليمينية التى تلتقى فى

بعض جوانبها مع السياسة الأمريكية التى قهرت عبد الناصر هى الدافع لهذا الترشيح الذى لم يقدر له أن يتحقق، مما يرجع إلى المظاهرات الشعبية التى اندلعت يومى ٩ و ١٠ يونيه وطالبت الزعيم بعدم التنحى عن السلطة.

لن تستطيع أن تفر من ذاكرتى واقعة حسن مصيلحى ومادار خلالها، والحديث الذى تبادله مع وزير الداخلية عنى وما أثاره من شجون: تناقض الفعل والشعار .. مأساة الديمقراطية وحرية الفكر ومصرع الكاتب الوطنى شهدى عطيه، هذا الجرح الغائر فى نفوس التقدميين بل المثقفين الأحرار مهما اختلفت بينهم الآراء والاتجاهات. خوف السلطة الذى كاد يصيب فكرها بالاضطراب أو الشلل من رجل مثلى لايملك إلا الحرف، وتنكيلها به، مما يفسر إجراءات القمع العنيفة التى اتخذتها ثورة يولية حيال أصحاب الفكر الآخر، ومنها قتل صاحب كتاب (تاريخ الحركة الوطنية) الذى يعد مرجعا هاما، هذه الإجراءات الغاشمة التى كانت إحدى عوامل انهيار الحلم الوطنى والقومى وانكشاف عورة ثورة يولية وضياع فلسطين وسيناء والجولان بهزيمة ١٩٦٧، وكذلك إعدام البقرى زميلة العاملين بكفر الدوار سنة ١٩٥٤، وتنفيذ الحكم بالإعدام على سيد قطب زملائه بعد محاولة قتل عبد الناصر فى الإسكندرية، إن كانت هذه الأحكام تطبيقاً للقانون لم تخل منها أية ثورة، بل إن عمليات الإعدام فى الثورات أن الأنقلابات الأخرى أضعاف مضاعفة.

ومن ذا الذى تُرجى سجاياه كلها

كفى المرء نبلا أن تعد معايبه

حقا لم تكن تلك الأعمال مجرد معايب، بل كانت خطايا.

ولكن لنتذكر فى نفس الوقت أن ثورة ٢٣ يولية كانت ثورة شعبية على الاستعمار والإقطاع الرأسمالية المستغلة، وقد شكلت تحولا جذريا فى مصر ساندت حركات التحرير.

أنفذ الجائر مشيئته كأنه القدر القاسى المسلط على رؤوس العباد، أنفذها حتى لايفقد رب البيت ثقته فيه. وهكذا وجدتنى مشتت الشمل مكسور الخاطر فى كفر الشيخ بعيدا عن موطن أسرتى وأهلى وأحبابى فى ظروف معيشية لاتليق بضابط ولابمثقف شاعر أو غير شاعر. منفى بمعنى الكلمة نفسيا واجتماعيا. مرارة فى الحلق وفى الروح تطاردنى وأطاردها ولامعين. ولست لأنسى ماحييت دبيب خطواتى إلى المسرح العبثى الجديد لايفر من قدمى الطريق كما يقول كامل الشناوى وإنما يثقل خطاى عبء الروح السقيمة التى أحملها والزى الذى يثقل كاهلى وينوء به جسدى الواهن فى عز الشباب، فقد غدا مجلبة للضنى والألم وكأنه لعنة أبدية بغير ذنب جنيته.

وحدى كنت هذه المرة دون جندى تابع كما كانت حالى يوم غادرت مركز أشمون إلى نقطة طوخ دلكة مغضوبا علىّ من الحجاج. أطياف القاهرة تراودنى وأنا قابع على مقعد بالحافلة التى تقلنى إلى بندر كفر الشيخ حيث حللت للعمل به مكرها. أتمتم ببيت شعر من التراث عزاء وسلوانا فى محنتى، ورياح خريف سبتمبر تلفح وجهى فتهيج مواجدى ذكرى أنفاس القاهرة الليلية الرطبة على نهر النيل :

ألا ياصبا نجد متى هجت من نجد؟

لقد زادنى مسراك وجدا على وجد

وأهمس فى شرودى: حتى الشاعر البدوى لم يضن عليه المقدور بساعة يخلو فيها إلى موطن حبه قبل الفراق فينشد :

تمتع من شميم عرار نجد

فما بعدَ العشية من عرار

أما أنا فقد حرمت هذه الساعة، لأنى لم أستطع أن أتهيأ للتكيف مع الواقع الجديد،

منذ صدر أمر النقل حتى أكرهت على تنفيذه فغامت فى عينى الرؤى طوال تلك المدة التى بلغت نحو شهر أو أقل، وغاب عنى تأمل مواطن الجمال فيما أحببت ومن عشقت.

وكان لامفر من أن أعيش مكانى وزمانى فأتنفس هواء كفر الشيخ مع الزملاء الجدد. ومن حسن الحظ - حسبما خيل إلى وقتئذ - أن شبانا جامعيين من أهل المدينة تحلقوا حولى حين علموا بموقعى إذ كانت لهم ميول أدبية منهم الشاعر فؤاد بدوى. كما كان المقدم حسن السقا مأمور البندر من عشاق القراءات الأدبية. فكنا نلتقى فى أوقات فراغنا مساء لنتسامر ونتحاور فيما قرأنا. ولم يكد يمضى بضعة شهور حتى صدر قرار من المديرية بتعيينى قائدا لشرطة اللاسلكى والنجدة بناء على ترشيح المأمور بعد أن أنشئ بالوزارة هذا الجهاز لأول مرة وعممت فروعه على المديريات.

كان للمنصب الجديد زهوه: مبنى حديث ومكتب مستقل وسيارة لتنقلاتى مما كان لايتوافر فى بندر شرطة كفر الشيخ. ولكن أنَّى لسيزيف أن يكف عن حمل الصخرة والصعود بها ثم الهبوط فى دورة العبثية الأبدية؟ لقد فوجئت بنقلى إلى مركز شرطة سيدى سالم وهو يتبع مديرية كفر الشيخ، ولكنه يقع فى أقصاها شمالا حيث البرارى الشاسعة، وأسند إلىّ العمل فى وظيفة مأمور بالنيابة. وهكذا أصبح الطريق إلى القاهرة أبعد وأشق . وحرت فى تفسير هذا الإبعاد حتى أنبأنى المأمور أن الوزارة قد اعترضت على تعيينى قائدا لشرطة النجدة حينما عرضت عليها أسماء الضباط الذين أسندت إليهم المديريات هذا العمل، وأن المباحث العامة كانت وراء هذا الاعتراض وذلك الإبعاد.

كما علمت أن ضابط هذه الإدارة بكفر الشيخ كان موكلا بمراقبتى وتحرير تقارير سرية دورية بشأنها بناء على مذكرة من المقر المركزى للمباحث العامة فى الوزارة منذ نقلت من القاهرة توصى فيها رؤسائى بإقصائى إلى الأماكن النائية لأكون بمعزل عن الجماهير خشية أن أحمل إليهم «ميكروبى» فتتفشى العدوى ويختل أمن الدولة ويعم الفساد الأرض !!.

ألقيت رحلى فى مدينة سيدى سالم ولس لها من مقومات المدينة إلا الاسم، إذ تنتشر فيها مساحات شاسعة من البرارى (الأعشاب البرية) التى لاتصلح للزراعة إلا بشق الأنفس. وحيدا كنت أيضا مثلما حملتنى خطاى من قبل إلى بندر كفر الشيخ. من بعيد لاح مبنى مركز الشرطة حسبما دلنى أحد السابلة. كان منزلا عتيقا ذا طابق واحد مشيدا من الطوب الأحمر. هذا هو مأواى بل منفاى الجديد. حين دخلت - ولم يكن لجنوده علم بمقدمى - وجدتهم يتناولون غداءهم ويثرثرون فى حلقة حول «طبلية» كعادة الريفيين. صاح أول من لمحنى منهم «انتباه». ولكنها كانت صيحة فى واد، فقد كانوا يخبون فى ملبسهم الرث وجلهم كهول لايصلحون لأداء مهام الشرطة الشاقة. ودارت ساقية العمل العجوز مثلما دارت بى الأيام والليالى، بطيئة متثاقلة كأسنان المحراث القديم منذ عصر الفراعين.

كان من واجبات العمل بالأقاليم الريفية قيام الضابط بأربع دوريات ليلية، اثنتان منها قبل منتصف الليل والأخريان بعد المنتصف، وتستغرق الدورية أربع ساعات فى حدها الأدنى. فى قرى نقطتى طوخ دلكة وفيشا الكبرى كنت أجد فى امتطاء صهوة جوادى متعة وترويحا عن النفس المكدودة. أما هنا فقد كانت الدورية قطعة من العذاب للراكبين وللخيل. كان الحصان يجفل كلما دوّت الريح متناوحة تردد أصداء عواء الذئاب المنتشرة فى «هيش البرارى» حيث الفراغ الموحش فى تلك المفازات المترامية التى لايبلغ الطرف مداها.

كان أشد هذه العوامل وطأة على الجسم والروح برد الشتاء القارس وطقسه الكئيب المعتم، ومايتراءى للعين من أشباح كأنما ترقص رقصة الشياطين. وكنت أكثر إشفاقا على «جنديى السوارى» فى الدورية عن يمينى وشمالى، إذ كان أفراد

هذه الفئة غالبا طاعنين فى السن، هزيلين من جراء سوء التغذية لضآلة المرتب الحكومى وكثرة الأبناء. لقد وحد بيننا طريق العمل الوعر فكنت أشعر برضاهم النفسى لمشاركتى إياهم العناء مما كان يخفف عنهم مايلاقون من مشقة. ومع ذلك فقد كانوا رجالا أشداء يتسمون بالصبر والالتزام الوظيفى، مما كان يجعلنى أشعر بالاطمئنان كلما حل الدور على أحدهم للقيام بعمل «الجاويش المنوب» للمركز أو البندر أو النقطة.

على أننى كنت أشفق أيضا على الجياد الثلاثة، وأشفق على نفسى وعلى الجنديين التابعين، لا بدافع إنسانى فقط، ولكن خيفة أن يسقط جواد فيتحمل راكبه المسئولية سواء أكان الجندى أم الضابط. فالوزارة يهمها الجواد أكثر من الإنسان، لأن الجواد «عهدة» كما سبق أن ذكرت حين كاد أن يكبوبى الحصان فى نقطة فيشا الكبرى.

تفجرت مياه هذا البئر المعتم بعد ذلك بسنوات طوال فى قصائد عديدة تضمنها ديوان (معزوفات الحارس السجين) الذى نشر فى دمشق سنة ١٩٨٠ ثم أعدت نشرها بعنوان (أحداق الجياد) فى مصر سنة ١٩٩٠، فكان الغروب إشراقا شاعريا من وحى الدوريات الليلية التى قمت بها فى قرى مركز سيدى سالم سنة ١٩٦١، وإن كنت قد مارست هذا العمل بالضرورة فى المناطق الريفية الأخرى التى اضطلعت بأعباء الوظيفة بها. ومثل سائر القصائد التى كتبتها بعد وقوع أحداثها بزمن طويل، كانت (معزوفات الحارس السجين) أكثر تميزا إبداعيا، وامتزجت فيها بعيون الفلاحين عيون الجياد التى لم تفارقنى طوال حياتى، واقعا ورمزا وخيالا، أرضا وفضاء وسماء، فراغا وامتلاء، ذهول الدهشة ورحيق الصبر، ماضيا وحاضرا وغدا، إذ توحدت فيها الأزمنة وإن تفرقت الأمكنة.

جواد (كفر الشيخ) خطا بى نقلة بعيدة بعد جواد (ضابط فى القرية) سنة ١٩٥٧، فقد حمل الثانى معاناة رفض الريفيين لرجل الشرطة رمز السلطة وإن كان شاعرا:

ومشية الجواد بى تَهِيج

لواعج الشجون
وتحمل الأنين عبر كاهل السنين
من مصرع الجدود فى سنابك الجياد
وعولة النساء بين الطين والرياح
وموكب الحراس والأمير

وأما الجواد الأول فقد فجر مأساة الاغتراب الاجتماعى ورفض السلطة لى – وأنا المنتمى إليها شعارا وزيا – ورحلة البحث لا عن مصيرى وحدى، ولكن عن مصير شعبى الذى أمتزج بروحه وأنا قبضة من ترابه ومصير الإنسان فى كل مكان. أزمة وجود ومجتمع وتاريخ. ويصور هذه الرؤية الناقد المفكر ابراهيم فتحى بقوله: (إن «أحداق الجياد» للشاعر حسن فتح الباب ليست أحلام فارس قديم، فالاغتراب فيها تعبير عن تناقضات مصير اجتماعى. والجياد استعارة كلية لتجربة إنسانية فى الصراع والمكابدة. ولكن الأسطورة الشعرية تعيد تشكيل كل قصائد الفروسية فى التراث العربى والعالمى، بل هى تقلبه رأسا على عقب لتستخرج نواته الحية).

لم تكن قصائدى: (أحداق الجياد) و (طائر الصباح) و (الجواد) و (اعتراف) و (الراية) و (الزويعة) و (الريح) مجرد تصوير لواقع رحلتى الليليةعلى جوادى وأصدائها فى نفسى ودورها فى تشكيل حياتى، ولكنها كانت تعبيرا عما ترمز إليه هذه الرحلة وذلك الجواد، وأثرها فى تكوين رؤيتى للإنسان والعالم والتاريخ. ومن ثم خرجت لفظة الجياد من معناها المعجمى إلى معناها الدلالى الذى يتجاوز التعبير عن التناقض الذى عشته إلى تصوير قضية الأرض والإنسان والحرية والعدل.

وهكذا تشع الرؤيا من أرض الواقع، وتستمد قمرها من شمسه ليدورا فى فلك الحقيقة والحلم والوجود والمثال. ويصبح الجواد فى القصيدة الأولى مجازا ورمزا:

الخريف الجهم خلف الباب
والرحلة حانت والجياد
وقفت بين الفصول الأربعه
٭٭٭
ياجيادى استيقظى

يشرئبُّ العنق الضامر فى وجه السماء
يولد المستضعفون
⭘ ⭘ ⭘
ياجيادى فاتك الركب ولكن الفصول
وقفت بين الجباة السودِ
والليل ارتمى بين الحوافرْ

ولكنه يصبح الجواد بمعناه المعجمى فى قصيدة (طائر الصباح) ذات السمة الواقعية، إذ أصور فيها تجربة (الدورية) الليلية فى كفر الشيخ:

تقاطرت خلفى سواقيهمْ
وسال الصمت من عينىْ جوادى
من عيون الليل، من تجهم الحراس
أغفت مواجعى على حجارة مسنونةٍ
غرقت فى أقبية من الرصاص
وبيتهم من طين
وكان صاحباى فارسين مقرورين
تمثالين من نحاس
كانا الجناحين .. وكنت طائرا بلا جناح

وتسلمنى الملامح الريفية السمراء للجنديين الفارسين اللذين يرافقانى فى الدورية ودأبهما وقناعتهما إلى الإحساس ببؤس القرية الفقيرة العارية القدمين وهى تغط فى سباتها العميق بعد يوم عمل شاق:

ترُى أحبَّتى يرون .. يسمعون حين يحلمون
دبيب خطونا على مساكن النملِ؟
طاردنى ظلى
فجئت فى (دورية اليلِ)
أنفاسهم خابيةٌ .. كانت شواظا
فى حصار الشمس تلجم استباقنا على الجيادِ

وارتيادنا أماكنَ الجفاف والأزمنة الخضراء

واعلن تمردى على الذين أرادوا أن يضعونى فوق رؤوس بنى وطنى من الفلاحين المستضعفين، على حين أود لو كنت ابن الأرض وخادمها لا السيد الأعلى. وأصرخ رافضا كل مايميزنى عنهم ويفرق بينى وبينهم:

كان خيالى مقعدا .. طرفى حسيرا
لأننى حين أمرت. ما أطعتُ
لم أكن كما أُريدَ بى أميرا
نصبت نفسى راعيا أجيرا
ألقيت ماحمّلت من قشٍ
ومن شرائط ملونه
كان ينوء كاهلى بها
وقلبى كان عاريا ..
غرارة منفوخة تحملها رياحهم
تنأى بها الرياح
نزعت شارة الإماره
وسرت فى طريقى الليلى
محمولا على أعناقهم. خلفى سواقيهم
وسال الصمت من عينى جوادى
من عيون الليل .. من تجهم الحراس
يسألنى عن طائر الصباح

عيون السواقى كانت غافية فى ليل القرى وأنا ورفيقاى والجياد أيقاظ نمر بها فلانسمع خريرها وهى تتقاطر خلفنا إذ نغادرها عائدين إلى مركز الشرطة. هكذا كانت تلتقى فى عينى وفى خيالى عيون السواقى وأحداق الجياد وعيون الليل بعد أن كنت لا ابصر إلا عيون الريفيين وهى تطاردنى بصمتها.

وعدت فى قصيدتى (الجواد) إلى العزف على وتر هذه المطاردة الصامتة ممن احب ومن تنتمى جذورى إليهم. لقد انفجر فى أبياتها الجرح القديم منذ حيل بينى

وبينهم، وقهر السلطة التى أمثلها لهم منذ أقدم العصور. ولكن كلمة (الغفران) التى تضمنتها هذه القصيدة توحى بأنهم تعاطفوا معى أو أن مشاعرهم نحوى تراوحت بين البغض والحب. وتكاد الأبيات ترسم صورة دخولى القرى أول مرة أجاهد فى انتزاع أقدامى التى تغوص فى التراب وأرفع قامتى لأنقذ هيبتى، وحيدا تعلو ثيابى غبرة الطريق مهموما لما حاق بى من قهر أشبهنى بأهلها، غير أنهم لايعرفون مأساتى. وزاد اقترابى النفسى بينهم حتى لاح لى بينهم طيف أبى الذى رحل دون عودة فرأيته معهم يروى الأرض بعرقه ودمه:

وانفجر الصمت
تحلل الطين الذى ارتوى
أبى وإخوتى منه وكانوا صامتين
لطخ سترتى المزركشه
أنقذنى من قبعات الدم
من قلعتى .. والقوقعه
تحلل الطين وكانوا صامتين
لما دخلت من بروجها المبعثره
خضراء كانت شمسها المحترقه
حامت حمامة على ظلى
نصبت قامتى المعفره
ثم التقينا فجأه
كانت عيونها التى غفت مسهّده
وكان قلبها بعيدا .. كان قلبها
يقتله الغفرانْ
يطفئه التألقُ
أخضر كالشمس التى تحترقُ
أرق من حد السكاكين التى تخدش قلبى
عريان تحت عينها التى غفت مسهّده

قد تبدو هذه الصورة التشكيلية رسوما سيريالية، ولكن مدلولها ينبع من بؤرة الواقع المأساوى. فهنالك الأرض معبرا عنها بالطين، والشمس، وبروح القرية التى تحمل إلى الذاكرة أبراج الحمام بدلالة الحمامة التى حامت على ظلى، تلك هى خلفية المشهد الذى تحجب فيه روحى عن النفاذ إلى قلوب أهل القرية سترتى الرسمية وقبعتى.

وتعصف بى مشاعر الاغتراب ورحلة العذاب بسبب ماترمز إليه هذه السترة وتلك القبعة. فيعود الرفض كشكل من أشكال المقاومة للواقع الذى فرض علىّ وفُرض على من أحب ففرق بيننا. وينتهى المشهد بعودة الجواد كرمز هنا لقهر السلطة منذ القدم أو رمز لمقاومتى المستميتة لقدرى:

نزعت عن جبينىَ القناع
لثمت فضل ثوبها
أعطيتها أوسمتى
الفارس الذى ترجل
كان مغنيا رقيق الصوت والإهاب
وكان حاملا صليبه يوم ارتحل
وسترةً .. وقبعه
أودعتها أغنيتى .. طارت بها
شرارة .. حمامها حطَّ على قلبى
على البيادر
وأودعت حنينىَ الحفائر
نفته من ضلوعها
غاصت قوائمى .. أنا غريمها
رجعت بعد ألف عام
أنا الجواد الطاعن المكابر

لقد أدهشنى إذ أقرأ هذه القصيدة الآن تكرار حرف الحاء فى كثير من كلماتها، فهل يدل هذا – إذا استعملنا المنهج الأسلوبى – على صوت الأنين والنواح المنبعث

من الطين وتاريخ الصراع بين الأقوياء والضعفاء ومن قلبى: (تحلل - حامت - حمامة - حاملا - حط - حنينى)؟ وهل يدل تكرار حرف القاف على الصراخ المعبر عن الغضب والتمرد: (أنقذنى- قبعات- قلعتى- القوقعة- المحترقة- قامتى- التقينا- قلبها- يقتله- التألق- تحترق- أرق- قلبى- رقيق- قوائمى)؟ أم أن الجرس الذى يحدثه هذان الحرفان وكذلك حرفا العين والغين فى تآلفهما أو تقاطعهما صدى للتوتر الدال على اضطرام عاطفتى واحتدام مشاعرى وإحساسى بالتناقض بين مهنتى وهويتى، بين واقع أبناء الأرض وأحلامهم؟

إنه انفجار الصمت الطويل لنفض العبء عن الكواهل المثقلة. لذلك تكررت كلمتا الصمت والصامتين فى مطالع قصيدة (الجواد) ثم جاءت الكلمة الأولى فى قصيدة (اعتراف) التى يدل عنوانها ومضمونها على هذا الانفجار. إن صمت الارض ومن عليها كان أول ماراعنى فى التجربة التى خضتها فى ريف بلادى، وسوف يظل وقعه كالجرح غائرا فى قلبى. هو رد فعل الفلاح المصرى فى مواجهة السلطة الغاشمة التى عاناها الآف السنين بحكم موقع مصر الجغرافى وماتدره من خيرات، وغير ذلك من الخصائص والعوامل التى وردت فى كتاب (شخصية مصر) للصديق العالم الراحل الدكتور جمال حمدان. وهل أدل على ذلك من أن المصرى لم يحكم بلده منذ عهد الفراعنة إلا بعد اندلاع ثورة ١٩٥٢؟ لقد عبر أبو الطيب المتنبى عن عطاء الأرض المصرية الذى لاينضب معينه، واستنزافه من قبل الأقوياء بالسلاح أو بالدهاء، فى غيبة عن حراسه المغلوبين على أمرهم لا النائمين كما قال فى بيته المشهور:

نامت نواطير مصر عن ثعالبها
وقد بشمن وماتفنى العناقيد

إن الفلاح حينما يعجز عن مقاومة القوة بالقوة يعبر عن رفضه بالصمت والاحتماء بترابه مصدر انتمائه وحياته، فينزوى فى داخله بعيدا بعيدا عن الوجوه القبيحة، وتتجمع أعضاؤه فى جسد واحد وعقل واحد حتى لايصيبهما الحاكم الأجنبى بالشلل. وهنالك فى هذه القوقعة الهائلة يبتدع لغته الخاصة وحكاياه وأساطيره الشعبية التى تصور بغضه للمحتلين أرضه أو المستغلين عرقه وسخريته بهم.

وإذا كانت قصيدة (الجواد) قد انتهت برمز السلطة التى تتجسد فى شخصى معبرا عنه بالجواد الطاعن المكابر، نظرا لقدم هذه السلطة وشغلها مساحة التاريخ المصرى كله، فقد جاء هذا الرمز بالصورة ذاتها فى قصيدة (اعتراف) بعد عبارة (ينقذنى من هوة الصمت) إذ وصفته بالجواد العاقر القديم:

سأعترف
عشرون عاما فى شراع النفى ما اعترفت
أركض فى مدائن النجوم والجماجم الجوفاء
تهدر بالموت
والقصب الدامى يموج أخضر البحار
ينقذنى من هوة الصمت
تحت النخيل فى الظهيره
وفى الأصائل المثيره
يروعنى شروق الاحتضار
على روابى الانتظار
ينقذنى من شبح يخوض فى دمى
من صدأ الصليل
فوق جوادى العاقر القديم

وكلمة الموت فى هذه القصيدة مرادفة لكلمة الصمت، لتوازى الدلالتين أو وحدتهما مثلما تجاور المقابر البيوت فى الريف وتلاصقها مما يدل على التعايش بين الموت والحياة، ومثلما يمتزج الشروق والظهيرة كما وردت هذه المفردات الثلاثة فى القصيدة ، ووردت أيضا كلمتا الإثارة والاحتضار مترادفتين أيضا، ومثلهما الشروق والاحتضار والهوة والروابى.

وتتضافر حروف الجر وظروف المكان التى تفيد الأضداد وهى: (تحت-فوق)، (فى-على-من). والنجوم والجماجم الجوفاء متطابقتان أو هما سيان. وجاءت كلمة (الانتظار) لتعنى أن الشعب المصرى رغم الصمت والموت يظل فى انتظار معجزة الخلاص مهما طالت أزمنة القهر المتعاقبة.

لقد تضمن النص الشعرى كذلك تصويرا للطبيعة والإنسان والعلاقة بينهما فى ريف الصعيد بوجه خاص، إذ مارست فيه العمل أيضا، وعرفت قسوة المناخ والفاقة والحرمان التى تلقى بظلها الثقيل على أهله مما ينعكس على طباعهم فى بعض مناطقه، فيبدون غلاظ القلب وهم أبناء الأكرمين، ويرتكبون الجرائم وقد ولدوا أبرياء أصفياء. إن النخيل الذى يطل فى سماء القصيدة يتراءى فى الحقول وعلى ضفاف النيل فى مجراه الرئيسى أو قنواته كأنه صفوف منتصبة من الحراس الصامتين، وقد شبهه الشاعر محمود حسن اسماعيل وهو من أبناء قرية النخيلة بالصعيد – واسمها مشتق كما هو واضح من النخيل – بالراهب، فى بيت من قصيدته المشهورة عن النيل: (يانيل ياراهب النخيل). وقد استكن فى ذاكرتى ووعيى منظره المهيب والقرويون يستظلون به من لفح الهجير فى الظهيرة ورمضائها.

على أن أهم أشعارى التى استوحت قساوة العيش ومرارته بالصعيد هى قصيدة (الجيل)، ويدور محورها حول قرية (دشنا) التى ترقد فى حضن الجبل وظاهرة الإجرام المتفشية فيها حتى جاء فى إحدى الدراسات الإحصائية القديمة أنها أكثر بلاد العالم إنتاجا للجريمة بعد مدينة (شيكاغو) مدينة العصابات بالولايات المتحدة الأمريكية وذلك بالقياس إلى نسبة عدد الجرائم إلى عدد السكان. ذلك أن هذه القرية كانت تمثل نموذجا للتخلف من جراء التركيب الطبقى والعشائرى والإقطاعى وإفرازاته من الفقر وتفشى جرائم الثأر والخطف وازدياد تلك الظواهر بعد ذلك فى ظل البورجوازية الطفيلية.

والقصيدة تصور معركة ثأرية بالسلاح النارى بين طائفتى الهوارة والفلاحين سقط فيها كثير من الجناة والأبرياء مضرجين بالدماء، ومحاولة رجال الشرطة ـ الذين خفوا إلى مكان الحادث ـ السيطرة على الموقف، وحقن الدم المسفوك الذى يخضب وجوه الضحايا وأجسادهم ويلطخ جبين الأرض الطيبة. وفى القصيدة أيضا إشارة إلى العلاقة المفقودة بين عالمين جد مختلفين، هما عالم (الشرطة) وعالم (الأهالى)، ونضح لتعاطفى مع المتهمين لما جنته عليهم البيئة والظروف الاجتماعية والاقتصادية والميراث التاريخى من أوزار جعلت الحمائم الوديعة التى عرفتها فى

أوقات السلم والأمن تتحول إلى وحوش كاسرة يفنى بعضها بعضا رغم كونهم فى هموم الحياة سواء وقد خلقوا أسوياء.

تختتم قصيدة (اعتراف) بالأبيات الآتية الدالة على أزمة الاغتراب: اغترابى كفرد محكوم عليه بالخذلان من بنى وطنه لأنه يمثل (الحكومة) وإصراره على التشبث بالأرض والانتماء إليها وإليهم لأنهم هم الأرض وهم ملحها:

غاصت بأرضها التى احتضنتها قدمى
عُذبت مرتين
فمرة لأننى أحببتها
ومرة لأننى لم أعترف
أنا الغريب الملك الضليل

فى قصيدة (الراية) لايرد ذكر الجواد صراحة وإنما ضمنا من خلال الرمز له بالقوائم. وتتضمن هذه القصيدة إحساسا طالما راودنى وكان هاجسى الملح وهو الشعور بالذنب الندم محاكمة النفس، قد عبرت فى قصائد أخرى عما أدى إليه هذا الشعور من قلق نفسى تحول إلى أزمة مستحكمة لابراء لها لأن الماضى لايعود من جديد حتى يمكن أن نتحاشى ماوقع فيه من أحداث. واستشعر هذا المعنى أحد النقاد وهو صديقى الشاعر الأستاذ أحمد لطفى بقوله فى ختام مقال له عن ديوان (أحداق الجياد) إن قوة التعبير عن الإحساس بالندم كادت تحمل إلىّ عدواه.

ولعل بداية هذا التعبير قد جاءت فى نهاية قصيدة (اعتراف) حين وقر فى خلدى أننى لم أعلن جهرا انضمامى إلى طبقة الفلاحين ورفضى المنصب الحكومى مع أنى حاولت ذلك مرارا دون جدوى. ثم ورد اعترافى بالذنب حادا وصارخا فى قصيدتى (الراية) التى تتوحد فيها الذات بالوطن ترابا وشعبا:

قتلت مرتين
فمرة نفسى
لأننى رفعت راية القناعه
وكان لى غلام
رأيت فيه وطنى المجرح الشهيد
يعود أخضر الإهاب ضاحك العينين
وكان لى وتر
أطفأت فيه شجنى المخاتل العنيد
لأننى استبدلت بالذين آمنوا

بأننى النبى فى ثياب ماردٍ
أما وطلتين
وبــعــتهـــم

إنها الخيانة المتوهمة إذن والصفقة الخاسرة: أن أشترى أسرتى وأبيع الذين بايعونى لرفع راية العصيان فى وجه الحاكم، مثل متولى الصياد ومحمود الخفير وبائع الياسمين، فآخذ بثأرهم أو أسترد حقوقهم المهدرة. ولكنى ماجزيتهم إلا بالخذلان حين رضخت للسلطة وتخاذلت وأذعنت ذليلا، على حين ظنوا أننى القادر على أن أشد أزرهم وأخلصهم من لعنة التاريخ، فإذا بالمرتجَى الذى عقدوا عليه الأمل يصيبه الداء العياء وتحل عليه لعنة الخنوع.

طالما خطر لى فى ساعات غليان الروح برفض الواقع القمئ ومقاومة أعداء الحق والعدل أننى ماخلقت إلا لأكون ثائرا ينتهى كفاحه بالاستشهاد. أولست من أحفاد الحسين سيد الشهداء كما قالت أمى رحمها الله، ودللت على صحة هذا النسب بوثيقة صادرة ومعتمدة من جهة رسمية كان يحتفظ بها أحد أقرباء أبى ولاأعلم مصيرها اليوم. ففى هذه الوثيقة الكتابية سلسلة الأبناء والأحفاد من نسل الحسين مما يعنى أننى من أهل البيت النبوى. ومازالت زوجتى حتى اليوم تلح فى مطالبتى بالبحث عن الوثيقة كى أدرج بها اسم ولدى هشام.

ولاشك أن تركيب شخصيتى هذه من أسباب كثرة مرثياتى لشهداء الثورات سواء أكانوا من الأبطال أم من عامة الناس ولاسيما الأطفال. فلضحايا القضية الفلسطينية التى تمثل ملحمة ومأساة من أكبر ملاحم التاريخ ومآسيه نصيب كبير فى شعرى. وكان الأساتذة والطلاب الفلسطينيون فى الجزائر حين كنت أعمل بها يسمونني الفدائى لنضالى بالموقف المعلن والكلمة الجهيرة دفاعا عن أبناء الأرض المحتلة، على حين يصمت كثير من المثقفين، بل يصل بعضهم إلى حد التشكيك فى موقف الفلسطينيين الذين يعيشون مشردين فى المنافى، ويتبنون زعم أعداء الوطن الفلسطينى فى الخارج والداخل أن أصحابه قد باعوا أرضهم (كبرت كلمة تخرج من أفواههم، إن يقولون إلا كذبا).

لقد نشر لى ديوان كامل فى دمشق بعنوان (رؤيا إلى فلسطين)، ولى قصيدة ملحمية طويلة بعنوان (بيان الفتى الفلسطينى) نشرت فى مجلة (القاهرة) بمصر، ولم تخل كثير من قصائدى على اختلاف رؤاها من التغنى ببطولة الشعب الفلسطينى. كما كتبت عدة قصائد عن أطفال الحجارة الأبطال الذين غذوا بدمائهم الزكية شرايين المقاومة، وإليهم سوف يرجع الفضل فى قيام دولة فلسطين طال الزمن أو قصر. وضمت المرثيات التى كتبتها ونشرتها شهداء حركات التحرر فى العالم كله منذ الخمسينات حتى إليوم، بدءا من ضحايا السفاحين الاستعماريين وأذنابهم فى فلسطين والجزائر والعراق حتى جيفارا فى أمريكا اللاتينية، وضحايا الوحش الأمريكى من شعب فيتنام.

لكأن دمى ينزف من دماء الشهداء التى أعجب كيف تستطيع الأرض فى كافة أرجاء المعمورة أن تمتصها ولا تحولها إلى حجارة ترجم المعتدين أو طوفان يبتلعهم وإن كنت أعلم أن هذه الدماء تئول إلى شجر من عنب وزيتون وحقول من قمح.

ما أغزر مافاض فى شعرى من مراث شجية للراحلين تمجيدا لبطولاتهم أو تخليدا لذكراهم حتى تأتسى بهم الأجيال القادمة طالما أن الصراع هو قدر البشرية المحتوم حتى أن أوقات السلم على الأرض لاتكاد تبلغ واحدا على مائة من أوقات الحرب. إن هذه الغزارة غيض من فيض دماء الشهداء. وأرانى - بعد أن ودعت رفاقى الشعراء الذين ذهبوا وتركونى وحيدا إلا من مرثياتهم - أردد بيت شاعر النيل حافظ إبراهيم على مابيننا من خلاف فى الرؤية وفى أشخاص من رحلوا:

إذا تصفحت ديوانى لتقرأنى

وجدت شعر المراثى نصف ديوانى

ويخيل إلى أن مشاعر الثورة التى تضمنتها قصائد التغنى بالثورات والبكاء لغياب الأبطال فى شعرى مرجعها إلى أنهم فعلوا ماعجزت أنا عنه، ففى غزارة شعرى الذى استلهمتهم إياه تعويض لهذا النقص الذى ينوء به كاهلى، أو هو تعبير عن الرسالة التى ألزمت نفسى بها منذ حبيت وحلمت أن أكون فى طليعة الثائرين، فانطلقت روحى وظل جسمى مقيدا ينتفض فى أغلاله ولايملك إلا الصرخات لعلها

تبلغ الأسماع وتحرك القلوب الخواء. وعزائى أننى حاولت أن يكون قولى فعلا، فنطقت دون خوف وإن عجزت عن الفعل. ولم أتردد مثل شاعر النيل إذ يقول :

إذا نطقت فقاع السجن متكأ

وان سكت فإن النفس لم تطب !

ثورتى هذه المجهضة أو التى لم تكن هى التى عبرت عنها فى ختام قصيدة (الراية) حيث يتفجر التناقض الذى عشته:

وبعتهم
من بعد ماأسلمت نفسى بالبكاء والحنين
وزلزلت قوائمى
أنا المغنى شاهد العصر الحزين
ومرة أبى قتلت
«أبى الذى مضى
ولم تشيع نعشه حشود»
قتلتهُ
لأننى مشيت مختالا على قبره
ونمت عن ثأره
وكانت الأفعى التى التفت على صدره
ترمقنى بنظرة جوفاء
وضحكة جامدة صفراء
رجعت خالى الوفاض
تفاحتى مُرّة
أنا رقيق الأرض .. شاعر الأمير

ويتجلى الصراع بين السلطة القاهرة، وبين التمرد عليها فى قصيدة (السواقى) حيث ترمز (الجياد النخرة) والسناجق ـ وهى احدى فئات المماليك- فى مطلعها إلى رموز السلطة وضمير المتكلم إلى الثائر على القهر والاضطهاد، كما يشبه الفلاحون المصريون بالشادوف المصلوب تارة والصفصاف الحزين تارة أخرى:

وكم رُميت فى سراديب الجياد النخره
أقول لا: يلفظنى السرادق
ألعنهم: يرموننى بما افتروا
أحثو على وجوههم تراب قريتى
يغرون بى السناجق
تتكأ جرح مهجتى السنابك
يا ويلنا من شجن الشادوف
يدور مصلوبا على حفره
ينزف ملحاً
تقول لى صفصافة حزينه:
أنزف جرحا .. هل لديك من عزاء؟

إن المأساة الحقيقية لاتكمن فى قهر السلطة للفلاحين، وإنما فى العجز عن مقاومته رغم أن الشعب يملك من طاقات المقاومة مايستطيع به أن يُسقط الجناة إذا شحذ سلاح الإرادة. هكذا تأتى خواتيم القصيدة دعوة صارخة إلى الجموع ليفجروا الثورة التى عجزت عن إشعالها إلا بالكلمة، حتى كلمتى هذه جاءت حزينة باكية أحيانا، على حين كان ينبغى أن تثور:

تمر بى الزوبعة اللعينه
يفر عصفورى: لم البكاء؟
الحب أقوى
والسواقى السبع لاتنعى الجدود
وإنما تبكى على الأحياء
تبكى على عشاقها
تبكى على العصفور لايقتحم الأنواء
فى موكب من الدماء والسرور
تسقط الصقورُ
تسقط الجياد

والحب يبقى والسواقى السبع لاتبكى
العصافير التى عادت .. تطير

وتأتى قصيدة (الزوبعة) تنويعا على لحن (الراية) فهى تعترف أنى جعلت نفسى فى خدمة السلطان، إذ اقوم على حمايته من احتمال تمرد المستضعفين عليه لاسترداد حقوقهم منه، بل أجبى الأموال من عرقهم المسفوح واقدمها إليه غنيمة باردة، وهو يستحل اقواتهم ويسومهم العذاب الوانا، بل يقيم عرشه على عظامهم المنخورة مناديا: أنا ربكم الأعلى:

فى سالف من الزمان
نُصبت عاملا على مملكة الرعاه
وجابيا يهبط أسواق العبيد
يفتش اللّحَى .. ويثقب الخدود
وكنت حارسا على مقاصر العراه
أحجب أعين الجماجمِ
أحمى مراتع الصقور من تطلع الحمائمِ

إنه الشعور بالإثم، فلا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق، لكن الجانى ضحية لأنه مكره. وكم حدَّث نفسه أن يثار لها ولسائر المكرهين .. ولقد حاول وأسكته الغاشم المستبد وأرغمه على أن يكون صوته وأن يحمل سوطه ليجلد به ظهور العناة. وليس يملك إلا الشعر وهل يجدى الشعر؟ وحب الضعفاء وهل يجدى الحب؟ ومقت المسلطين على رقاب العباد وهل يجدى المقت؟:

أصعد كلما أشاء دون أن
أملك مرة مشيئة
أقول : ماذا لو أصبتُ
ثأرىَ القديم مرةً؟
ولم أكن دخلت قبلها (مدينة الدمى)
ولارأيت كيف يفجر الولاه
ويصبح الخنا مواسم

فصرت عاريا بشعرى كاسيا بسوطهم
مصفدا بالحب قادرا بمقتهم

ويختلط برق اليأس والندم برعد الصرخة الأخيرة واللعنات الممطرة على السجن والسجان، ويتداخل صوت النشيج بصليل القيود:

أصيح فى مفترق الرياح
يامن يبيعنى جراحه
بقلعتى .. والقوقعه !
بصهوة الجواد والرماح !
أصحو على مذام سادتى العراه
أبيت سجانا على جماجم الرعاه
أنا السجين فى قيود العرى :
دمية ودمعة
تفاحة وجمجمه
أنا سجين الزوبعه

٭٭٭

(٥٦)

موكب الزينة وكتاب الموتى

من رحلة العمل القصيرة فى قسم شرطة الساحل بالقاهرة استلهمت قصيدتى (الموكب) التى تعبر عن قهر السلطة أيضا ولكن من خلال صورتين إحداهما تعرفها رحلة المسافر الجواب فى أرض الوطن على إطلاقها، فهى تشمل أى مكان فى مصر، وتقع فى أى زمان، والثانية لاتعرفها غير المدينة بردائها يوم الزينة حينما يحل أو يرحل السلطان، فيقام له موكب يناسب أبهته وصولجانه. وقد يكون الحاكم هو ابن الشعب مثل عبد الناصر القائد الوطنى والقومى، ولكن المراسيم – ولاسيما الخاصة بإجراءات الأمن – التى استقر عليها العرف منذ عصر الملكية لاتتغير ولاتتبدل.

ذلك أنه أسند إلىّ قيادة طابور من الجند للقيام «بخدمة تشريفة» بمعنى استقبال رئيس الجمهورية وتابعيه والحفاظ على الأمن والنظام حتى لايحدث مايعكر صفو المناسبة البهيجة. كان الرئيس هو الزعيم جمال عبد الناصر، أما المناسبة فكانت إلقاؤه خطابا بمناسبة ذكرى الثورة سنة ١٩٥٨، والمكان (ساحة عابدين) أمام القصر الجمهورى فى ذلك الحين، وكان من قبل القصر الملكى الذى تعاقبت عليه أسرة محمد على باشا الحاكمة.

أصدر مأمور القسم أمره إلىّ بالتحرك على رأس القوة فى الساعة الحادية عشرة ظهرا مع أن الخطاب الذى يزمع الرئيس إلقاءه يبدأ الساعة السابعة مساء، فارق الوقتين، وقدره ثمانى ساعات، اقتضاه تسلسل الأمر من الوزارة إلى قسم الشرطة، مرورا بمصلحة الأمن العام ثم مديرية أمن القاهرة. كل رئيس يأمر بالقيام قبل الوقت الذى يأمر به ضابطه الأعلى بساعتين على الأقل ضمانا لأداء الخدمة فى موعدها. فوزير الداخلية يأمر بانتظام القوات فى الساعة الخامسة مساء، ووكيل الوزارة يرى أخذا بمبدأ الحذر والاحتياط أن يكون القيام الساعة الثالثة. وهكذا يستمر التسلسل التحتى الذى يقدم الوقت كل مرة ساعتين حتى يصلنى الأمر بالقيام قبيل الظهر.

«أطع الأمر ولو خطأ ثم تظلم» هذه هى القاعدة التى لايجرؤ ضابط أو من هو أدنى على الخروج عليها ولو كانت مخالفة للمنطق والصالح العام ومبادئ العدل والرحمة، بل حتى لو كانت مناقضة للنظام العسكرى ذاته. وهكذا أُمرت فأطعت. وبلغنا (ميدان عابدين) فى الموعد المقرر حيث كانت السيارات القادمة من مختلف أقسام شرطة القاهرة تلقى بحملها من الضباط والجنود. وعجزت بعض الأقسام عن توفير وسيلة انتقال فاستقل الجنود والضباط السيارات العامة.

كان الطقس شديد الحرارة، فنحن فى شهر يولية. وشكا إلى الجنود العطش والجوع بعد ساعتين وأكثر من الانتظار، فسمحت لهم بالتردد على المقاهى والحوانيت لابتياع طعام يتبلغون به والحصول على ماء، وربما كان منهم من لم يملك قروشا فاقترض من زملائه. ولكن الطامة الكبرى أن «هندامهم العسكرى» المعد للمناسبة قد اغبر وأصبح لايصلح مما قد يسائلنى فيه الرؤساء فى مرورهم، كما تعذر على أن آمرهم بمراعاة الوقفة النظامية.

حين حلت الساعة الموعودة كان الهدف المقصود وهو الاصطفاف فى صورة طابور منظم بعيد التحقق بعد أن بلغ العياء بالجنود مبلغا. وهكذا تتغلب الصورية والخوف المريض من المسئولية على الجوهر والمغزى.

كان الخيال يسرح بى بعيدا فى أثناء هذه المهام قطعا للوقت الرتيب الذى يثير الملل، لكن عينى كانت على الواقع بطبيعة الحال. ومن ثم اختزنت ذاكرتى الشعرية صورا وأخيلة تطفو على السطح إذا توافر مثير يحركها من عمق الوعى الذى تكمن به. من بعض هذه الأخيلة نسجت خيوط قصيدتى (الموكب) وقد كتبتها بعد هذه القصة بنحو عشرين عاما، وكانت مغايرة لها ولكنها من وحيها:

مسافر إلى الشمال
زهر من اللوتس .. حزمتا شعاع
مسافر بلا متاع
ألقى بىَ القطار فى محطة محتشده
رأيت فيها من رأيتُ

غير أن من بحثت عنه
لم أجده !
٭٭٭
أشار لى حمال
لأقرأ الذى طواه فى يمينه
أسلمتها يدى .. أعادها إلىّ
ولاح لى «كتاب موتانا» على جبينه
٭٭٭
لاذت بكفي طفلةُ
وكنت قد أُلبست زينة من الثياب
حملتها .. صاح بأذنى ناصح رفيق
لأن موكب السلطان كان فى الطريق !!
٭٭٭
هرولتُ أفسح الفضاء للبشير
تشبثت عصفورة شاردة بخطوتى
لتجتلى الحدائق المعلقه
من كوة تطل من أقدام عسكر الأمير
ذكرت أننى أسير
وددت لو علقت فى جناحها الكسير
لو أننا معا نطير
نطير قبل أن ترانا أعين الصقور !!

مثل الكاتب الأمريكى الأسود (أليكس هيلى) فى رحلة البحث عن (الجذور) ظل يشغلنى هاجس العودة إلى منبت أبى وأجدادى الذين تجسدوا لى فى أهل القرى، والحنين إلى السكنى فى عيونهم وضلوعهم. لقد فقد هو جذوره فراح يجدّ فى إحياء الماضى الذى انقطعت أواصره بعد أن أدرك أن اسمه وحاضره كليهما مزيف. أما أنا فهاهو ذا الأصل ماثل أمامى فى الحياة والأقدام المترامية كالظلال حولى ولكنها تنكرنى كما أنكر أنا حاضرى. ضدان لايتفقان.

وانحلّت العقدة بالخيال، فتوهمت أننى ظفرت باعترافهم ورضاهم عنى. وربما كان وراء هذا التوهم ما أنست فيهم أحيانا من نظرات تكاد تقول أنت منا وتلفنى بغلالة من حنان. كانت نظرات صادقة، فالعنب لاينبت شوكا، ولقد جهدت ما وسعنى الجهد أن أحوز ثقتهم ومحبتهم بما أقدم لهم من جميل هو حق لهم. ألست نصير (متولى) الصياد وأصحابه؟ ألم أغامر فى سبيل رد حقوقهم إليهم وإن تعثر بى الطريق؟ ولكنى حاولت وعانيت ويكفينى شرف القصد، وطالما رددت قول الشاعر القديم:

وعلىّ أن أسعى وليس علىّ إدراك النجاح

لقد رأوا بأعينهم وقلوبهم أنى تخليت عن شارة الحاكم الذى يبغضون، فأمّرونى – فيما تخيلت – عليهم. فصرت مثل (غاندى) و (تولستوى) حبيب الفقراء. لكنى أفقت من أحلام يقظتى فوجدتهم بعيدا بعيدا عنى. لم يخذلونى وإنما أدركوا بذكائهم المفطور وحكمة السنين الطويلة أننى عين السلطة وعونها مهما فعلت، لى عالمى ولهم عالمهم، ولن يلتقى العالمان وإن كنت على دينهم.

عاجز أنا عن حل المعادلة الصعبة بل المستحيلة. تتلبسنى عمايتى فليس لها من

دون الله كاشفة. وقد صدقوا فى سوء ظنهم بى إذ كانت المهنة تقتضينى أن أرتدى قناع الصرامة كلما حققت بلاغا ينطوى على شبهة جريمة، وماكان لهم أن يتغلغلوا فى أعماقى حتى يدرأوا الحدود - وهى سوء ظنهم هذا - بالشبهات وهى اضطرارى إلى التظاهر بالقسوة بحكم المهنة. وبالغت فى ارتيابى بنفسى فخيل لى أننى عذبتهم أحيانا. وهكذا تمخضت هذه التصورات والأحاسيس المضطربة المضطرمة عن قصيدتى (الرمح):

صرت أمير الفقراء
نصبت خيمتى ليالىَ السهاد أصبحت
حبل معذبين
رفعت رايتى على بيادر الذين حمّلوا جيادى
حفنتى شعير
يوم تناءينا .. وكانوا ياسمين
رجعت حينما أُمرت
ركزت رمحى فوق صدرهم فقاموا عانقونى
وجدتنى أكثر منهم غربةً
لاعش يأوينى
عرضت نفسى فى ركاب المدن المسافره
طاردنى الدليل
لولاه ما اكتشفت وجهى
وماعرفت وجه (طيبة) التى
تسأل عنى السفن المهاجره
ترصدنى بجفنها العليل

تنويعا آخر على لحن الصورة والأصل كانت قصيدتى (الألوان)، فهى رفض للواقع وعودة إلى الحلم، وهى تعبير-مرة أخرى-عن عقدة الإحساس بالإثم الذى لم أقترفه، ومزيج من الضحى والغروب، من النور والظلمة.. من الصوت والصدى .. من الحقيقة والوهم.. وهى فى كل الحالات شوق جارف إلى شاطئ الخلاص وعمل

دءوب من أجله ولكن بلا جدوى .. لأن الفرد كما قلت محكوم عليه بالحصار والعجز مهما حاول. هو مجرد قطرة فى محيط. ولن يكف تيار الظلم الأسود عن جريانه مالم ينتفض الشعب على قلب رجل واحد لينتزع مصيره بيديه. ولن يتحقق هذا إلا إذا توافرت الظروف الموضوعية لذلك. ولعل الحلم الطوباوى هو الذى يلهمنى أن يسترد المظلوم حقه ويشرق وجه مصر ويستقيم مسار التاريخ بعد أن انحرف طويلا طويلا ويعتدل الميزان. إنه الفردوس المفقود أو عالم المدينة الفاضلة.

موال على أرغول حزين وترجيع مأساوى هكذا بدأ الخطاب الشعرى واستمر فى التمرد على الواقع والتشبث بحلم الانتماء إلى الجذور ورفض القرية ردائى ووجهى:

نصبتُ آلة الزمان
أسأل عن موتى
كنت حزينا ضائع الصوتِ
لاتنظروا إلىّ
لن تعرفوا وجهى
أنا الذى سامرتكم طويلا
أحببتكم قليلا
ينبت ريشكم على أجنحتى
فأكتسى لونا
ويأبى داخلى الألوان
لأن فى ضلوع أحبابى الذين لم يملوا
صحبتى وردا بلا ألوان
وحين خنتهم
وجئتكم
عذبنى أنى جنيت الشوك
وضاع منى الورد

وكان شوكى مثل وردهم بلا ألوان
رأيت فى حضن الضحى صبارة خضراء
وقبل أن يأتى المسا أضحت بلا لونٍ
وحالت فى فمى الألحان
شربت أحزان القرى .. غنيتها
لم تتبعنى .. لم أكن بتابع أمين
كان ردائى صفرة نزحتها
من عرق السنابل
ولم يكن لخطوتى التى جهدت كى تلينَ
غير أصداء السلاسل

ooo

ولست قديسا مقاتلا
يخونني اليقين .. لايَصْدقني الذى أريد
يطلب قلبى الوهم مصباحا على الأمواجِ
يختار أناشيدى دليلا
ينخر عظمى الخوف.. أعترف
.أموت بالداء الذى يقتلكم
قصائدى تقاتل
يهرب قاتلى الجبان فى إهابى
أغتدى أنا الذى قتلت
لأننى مازلت أرقب الأفق
بعين لص جارح لايعترف
وقلب حارس على مفترق الطرق
يحلم بالأطفال والشفق

هكذا تفجر الجرح القديم شظايا فى قلبى وكبدى، كل عضو مجرّح والروح لايقر لها قرار. ولكن الشعر يظل الغصن الذى أتشبث به مقاومة للموت المفاجئ، لأن القضية أكبر منى وأرانى فى حربى مثل (دون كيشوت) الممزق بين الوهم واليقين. بين الجسارة والخوف.. لما حُرم الشاعر طفولته ازداد قربا من أطفال القرى المحرومين وحبا لهم، وإن كان يرتدى فى نظر آبائهم زى الجلادين. إنه القتيل فى عينى نفسه والقاتل فى عيون شعبه. بين الدروب التى تشق الأرض والشفق الذى تعلقت به روحه بون بعيد .. فهو الحارس السجين والحكيم الذى ضل طريق الحقيقة.

وكانت قصيدة (الغريب) عودا على بدء، إذ استرجعت فى ذاكرتى مشهد الفلاحين وهم جلوس يتسامرون على (المصاطب)، فإذا طلعت عليهم من بعيد تهامسوا ثم سكتوا إذا اقتربت وودوا لو تبتلعهم أو تبتلعنى الأرض كأننى جند سليمان وهم النمل فى مساكنهم. ومايلبث جلدى أن يتساقط رهبة من عيونهم المشرعة فى وجهى كالسيوف، أو رغبة فى احتوائهم لى أو احتوائى لهم. ثم وجدتنى بعين الخيال واحدا منهم:

لمّا حوت أحبتى الأرائكُ
سوداء .. كانت عرشَهم من طين
تهامسوا .. لم يلبثوا إلا قليلا
بعدها تضاحكوا
وفجأة تفجروا بالصمت حينما طلعت
كانوا هناك ينظرون
كالحة أثوابهم .. ناضرة وجوههم
مشرعة الأقدام والعيون
سمعت خفقا واحدا من جمعهم
بين الصياح والسكون
تساقطت ضحكتهم على ثيابى انهمرت
وألهبت جلدى .. رجعت
وحين حوصرت بصمتهم ضلوعى
تساقطت دروعى .. أصبحت
بارودتى التى ادخرتها هباء .. أصبحت
سيفا من الخشب
حملت فأسا مثلهم .. كلّت يدى
نصفى الذى تحت الرداءِ
عاد حمال حطب

أبصرت الريفيين بعينى وقلبى فى أشكال شتى وكانت رؤيتى ابتسامات أطفالهم

رغم أسمالهم البالية من أعظم مباهج الحياة عندى. أما الكبار فقد نضحت هذه الرؤية إشفاقا عليهم. ومع ذلك، فقد كنت أستشعر الفرحة فى عيونهم ورقصاتهم الشعبية فى الموالد. وكم وددت أن أشاركهم بهجتهم ساعة أو بعض ساعة فى أفراحهم وأنا أشهد منظر (جهاز) العروس يتهادى به الجمل وأختزنه فى وجدانى وذاكرتى حتى يأتى يوم أراه فيه مسطورا على الورق بعنوان (الحلم):

أحمل بين أضلعى ليالىَ الشتاء كومة الحطب
أحمل أعواد القصب
كنت أبى
أنكرنى أحبّنى
وفى عيونهم حملت بعده وشم لهب
دجت – وكانت ليلة صيفية صافيةً –
تجهمتْ حين ارتضيت بعده منقلبى
مسيرتى من تحتها .. سخط نبى
ساقيةِ الغضب
تعبتُ .. أيقظت سهادىَ اليد التى تغضنت
على فم الطنبور
وهدهدتنى خطوة على حفافى ترعةٍ
تحلم بالهودج والصندوق والنحاسَ والحصير
تحلم بالليمون والكافور

ooo

رقم الإيداع ١١٧٨٩ لسنة ١٩٩٤
I.S.B.N.
977-00-8236-8

مطبعة اطلس
imprimerie atlas

LE CAIRE : 11-13 RUE SOUK EL TEWFIKIEH, R.C. 100731, TEL : 5787797
القاهرة : ١١ ، ١٣ شارع سوق التوفيقية س . ت ١٠٠٧٣١ ت ٥٧٨٧٧٩٧